يقدم لكم رواية

زنابق تحت الجليـــد

للروائي التونسي:

عبد الرزاق السومري

إلى الذاكرة ... ما تبعثر من الأشواق
إلى هناك ...
ع. س

الجروح الغائرة لا تندمل ... تعود الأطياف شفّافة كسحر الشّفق ثم تذوب وتتلاشى في نسغ الذّاكرة. إنّه ما زال يرى الدماء تنزّ على الإسفلت ، أصوات وهمهمات ثمّ طلقات متتالية وأنين متقطّع ...

مسكين أنت يا علاّوة، تقتلك الكوابيس وهي تنخر ذهنك كلّما عاودك الشوق إلى الماضي وتجاذبتك الرياح القديمة. ماذا يبقى بعد ذلك غير حلم ينطفئ؟

نظر إلى الساعة الجدارية وكمن يزن الوقت المتبقّي ضغط على زرّ أسود فدار المحرّك وتململت القصعة في ثقل وكبرياء ترسم في داخلها أودية وهضابا.

في اللحظات القلقة يصبح كلّ شيء مثيرا حتّى أتفه الأشياء تنتشله من الزمن وتحلّق به بعيدا تتسلّل الذاكرة من الكوّة الصغيرة ثمّ تهيم به في المدى الأزرق. رنا من النافذة إلى النجوم السّاهرة فوقه ، آلاف من الأعين ترصده وتتعقّب فيه إثما قديما.

يا إلهي ! لماذا تلاحقني الكوابيس بهذا الشكل؟! غمغم بعبارات ثمّ التفت إلى القصعة يتثبّت من إحكام السّير الجلدي يدور حول محوره الأبدي. اقتطع جزءا كبيرا من العجين ثمّ مدّه على طاولة معدنيّة مستطيلة وبحركة مثيرة راح يحلجها ويرقّقها ثمّ يفتلها من جديد لتصير في أشكال مستطيلة وأقراص مدوّرة.

امتلأت الأطباق بسرعة واصطفّت الأرغفة ترسل بياضا ناعما وبمشلط صغير مرّ عليها يشرّحها حتّى لا تنتفخ ويبلغ الوهج لبّها ثمّ تناول فرشة كذيل الحصان غمسها في الماء ورشّ بها الأرغفة. لحظات فقط وتدبّ الحياة في هذه الكتل الطريّة الناعمة ...

قابلته اللوحة الزرقاء على الجداريّة " هذا من فضل ربّي " الشّعار الذي يحبّه سي مسعود ويمسح به ذنوبه وسرقاته. السبحة الرقطاء تتلوّى في يده وهويتمتم بآيات ويذكر قائلا: " الميزان يا ابني الميزان.. نحن لا نريد الحرام، الكيس يعطيك خمسين خبزة وإلاّ لحقتنا الخسارة. مصطفى الديواني وأصحابه لا تأخذ منهم شيئا، مزاياهم أسبق. تفهم ما أقول لا تنسى ذلك. "

عادت الأطياف مرّة أخرى، ما ألعن الكوابيس ! ما تلبث تتوارى عن الذاكرة حتّى تظهر من جديد بمراس عنيد تنفذ في المخيّلة ومرّات تخترقك برغم عنك كغشاوة من أثير. منظر الدّماء يثيره، رائحة العجلات المحروقة، رائحة مسخمة تسدّ الحلوق، أقدام تسحق الجليد ووجوه تتدفّق كالسّيل.. هل كان حلما كلّ ذلك؟!

دفع الأطباق بجاروف صغير داخل الفرن، ولمّا انتهى سحب سكّة من الحديد فانسدّت المغارة المتوهّجة وسكنت أنفاسها. أشعل سيجارة ثمّ جذب بعمق ونهم كمن يعبّئ ضمأ إلى شيء ما، إلى نقطة بعيدة في الزمن. تطلّع إلى ما أبعد ونفث أنفاسا كالفحيح. العيون تقتحم عزلته وتعبر به حجبا مغلقة.

نظر إلى الساعة الجداريّة مرّة أخرى يحسب وقتا متبقّيا ثمّ تسلّل بين الأكياس المرصوفة في الركن. استلقى ينفض عن عينيه غسق الفجر، يتأمّل الدوائر المتلاشية من تبغه المحروق، تتجمّع وتتكتّل ثمّ تذوب من جديد. ارتاح لهذا الصفاء القاسي فانبجست له من تلك الدوائر أشياء منسيّة، غمامات ورديّة تعبر في رفق وهدوء وترسم عيونا جميلة لعلّها عيون مريم، هيكل المنّاعي العملاق، صوت فائز اللاّفي يناديه ... آه هل ترى مازال يذكره ذاك الشقيّ؟ من يدري أ مات أم مازال حيّا؟

*** * * * * * * * * ***

" أرحّب بكلّ الإخوان الحاضرين معي، وآمل أن أوفّق في مهمّتي وعملي معكم، لا أخفي في الحقيقة سروري بتعييني في هذه المنطقة وأعتبر نفسي محظوظا على ذلك "

هكذا استهلّ كلمته، المرّة الأولى التي يقابل فيها أعيان البلدة ومسؤوليها. جاؤوا كلّهم يهنئونه بالمركز الجديد ويعلنون صفاء نيّتهم في خدمة البلد بقلوب مخلصة. جلس أعضاء المجلس البلدي في المقدّمة في حين تراصّت الصفوف الأخيرة بالفلاّحين والقرويّين في قشاشيبهم الخشنة وعمائمهم البيضاء. الجوّ يرسل رائحة دسمة حادّة

تنشر بخارا كثيفا، بخار الأفواه الفاغرة والسجائر. الكلّ ينصت بدون حراك إلى الوجه الأحمر العريض والكلمات المتدفّقة باسترسال ولباقة مدهشة:
'' مكتبي مفتوح للجميع، لست الذي يغلق الأبواب في وجه الناس. لم آت هنا إلاّ من أجلكم وأملي شديد في كلّ من معي '' بعض الرؤوس ترتفع وتنزل استحسانا ثمّ ما يلبث أن ينفجر وابل من التصفيق عندما يتوقّف الخطيب أوينطق بعض العبارات لها وقع خاصّ في قلوب الحاضرين.
أنهى خطابه قائلا: '' وأمّا الزبد فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض '' علّق واحد من الفلاّحين: '' صدق الله العظيم '' فالتفتت إليه بعض الرؤوس وكأنّه قال كلاما ممنوعا ثمّ سكت.
وقف الجميع تحيّة وإكراما لضيفهم الجديد. صافحوه ، لم يلمسوا إلاّ أطراف أصابعه من عرض الطاولة الخضراء الكبيرة التي تفصلهم عنه، بعضهم حيّاه من بعيد بأن رفع يده إلى جبينه.
انفضّت القاعة على غمغمات الحاضرين، بقي هويصفّف أوراقا بيضاء ويدسّها في ملفّ بنيّ، تقدّم الفرجاني سائقه الخاصّ يزيح السّتائر الكتّانيّة السوداء ويجمع من فوق المبسط كؤوسا وقوارير ومنافض دعست فيها عشرات السجائر. وفي غمرة انشغاله رأى سيّده يتّجه نحومعلق معدنيّ صغير فأسرع بحركة آليّة يمسك المعطف ويرفعه بينما اكتفى الضيف بمدّ يده إلى الوراء وتمريرها في رفق وهدوء.
الفرجاني أوموسطاش كما يشتهي أن ينادى، شهرته معروفة لطول شواربه. يعتني بتحفيفها وعقفها '' يقف عليها الطير '' كما يقول. كان حركيّا مرتبطا بالمعمّرين وخدمتهم سنين طويلة في مزارع الكروم التابعة ل''موسيودالار ''، يقضي صباحاته في الضيعات وفي الظهر في فيلة '' مادام هيلين ''. وفاؤه لهم يشهد به حنينه الدائم إلى العهد الزّاهي البائد. مازال يرتدي المعطف الألماني الأصفر ويضع المارسييز.
مدّت الشمس إصبعا من وراء المنازل، فاصطبغ الأفق حمرة وهّاجة ثم انسابت زخّات خفيفة من المطر، جوّ خريفيّ ينذر بشتاء مبكّر. تحرّكت السيّارة الكحلاء في الشّارع اليتيم، تصعد طريقا يضيق ثم ينفرج كأنّها تخرج من غور سحيق، انعكست الشمس الغاربة على الزجاج الأمامي فأمهل الفرجاني وخفّف السرعة. مازال الطريق يرتقي ويتلولب حتّى القصر القديم والقلعة الشاهقة التي تطلّ من القمّة الأخرى. لمّا دخلت السيّارة غيضة أشجار التنّوب هبّت نسمات جليديّة باردة رخيمة ناعمة عندها أمر سي ماجد سائقه بالتوقّف.
ولمّا ترجّل أطلّ من التلّ على المنحدر الغابي وتموّجات الخضرة تكتسح الأرض. البلدة كأنّها مغروسة في الوهد، تشرف عليها القلعة من الخلف ويقف القصر القديم في

مواجهتها كالديدبان، في آخر الخيط الأبيض الممتدّ تنام المقبرة وتتناثر البيوت هنا وهناك بقرميدها الأحمر وبياض جدرانها الأشخم كأنّها حبّات من الجوهر نثرت على بساط أخضر.
ظلّ سي ماجد يتابع السنونوات التي تشقّ طريقها في الهواء ثمّ تضيع في المدى الأزرق. لمح في البعيد قرويّتين تحملان حزما سوداء من الأغصان اليابسة، صغيرتان في الأفق، تكبران ثمّ تتناءان شيئا فشيئا حتى تصيران نقطة سوداء ثمّ يضيع النظر.
إحساس غريب يجعله كالمأخوذ في عالم ليس عالمه، عالم المدينة الصاخب غير هذا العالم الساكن البسيط. لعلّها قرية الأساطير القديمة، بعضهم يسمّيها سويسرا الصغيرة. أنعشه الجوّ المشبع برائحة الشجر وعطر البيلسان. منظر الروابي التي تنخفض وتنبسط ثم تعانق الوادي في السفح.
قد لا يكون لهذه القرية مجد قديم ولا تاريخ، رجالها عاديون، قانعون ومعتدلون، كلّ ما فيهم مألوف ولا يوحي بشيء لكنّ ثمة جوع أخرس يسكن نظراتهم، وميض ما يوشك أن يشتعل كلّما زدت معهم في الحديث. هل هي عريكة خاصّة بسكان الوهاد والجبال؟! يتحدثون كثيرا عن أيّام الاستعمار وبطولات قديمة لم يشهدها أحد فيذكرون '' الجنرال كياف '' كيف تراجع أمام القعبوط وعساكره بمكاحل يدويّة بسيطة ثمّ يقصّون شطحات مثيرة عن الوليّ الصالح '' سيدي عبيد '' وسهراته المتخفّية مع نساء الفرنسيس دون أن يفطن له أحد. يقسم أحدهم بأغلظ الإيمان أنّه رأى عباءته الشهباء يرتدّ عنها البارود ولا يخترقها ذبح عشرين في ليلة واحدة ولم يكلّ.
في مثل هذه اللحظات تفيض ألسنتهم بسيل الحكايات الخارقة عن عهدهم البائد، عهد الرجال الذي لا يعود ولن يعود، فقط لأنّهم عاشوه وحدهم ولا يسمحون لأيّ كان أن يتطفّل على عالمهم. إنّها الأيّام التي تمضي ولا تترك وراءها غير تنهّدات حاسرة ، السرجان لزهاري يتذكّر وهويداعب ساقه الخشبية كيف تراجعت العساكر الفرنسية أمام غارات أولاد الصالحيّة ومشائخ العباسي، يهوي الواحد منهم بخنجره على القفا حتّى ينفصل الرأس عن البقيّة ثمّ يكرع من الدم الفرنسي. السرجان يتحسّر على الأيّام القديمة لم يبق منها سوى ساق مشدودة بعصائب من المطاط وعصيّة صغيرة من المعدن الخفيف ترقد تحته. لم يجن من ذلك كلّه سوى عشرين ألفا من الفرنكات ونياشين لا تسمن من جوع. هل ترى يكفيه ذلك لإعالة حلّومة المجنونة وأولادها الخمسة؟! دائما الحكايات المثيرة لا تترك غير العبارات الآسية وحسرات في القلب، ولّى زمن الثورة تاركا تنهّدات عميقة من أفواه جافّة مصدورة.

* * * * * *

أرخى سي ماجد رأسه إلى الوراء يرقب الخط المستقيم الممتدّ عبر المنحدر. تسلّلت إلى عينيه عذوبة كالخدر وودّ لوينام على هذه الصخرة إلى الأبد.

قال الفرجاني مخاطبا سيّده:
يبدوأنّك أول مرّة تزور المنطقة سيّدي، الهواء هنا صحّي ومفيد والجوّ يريح الأعصاب.
تنحنح سي ماجد قائلا:
فعلا قد يحتاج مثلي إلى قليل من العزلة أحسن من السجن بين جدران المدينة، مثلي لا يستطيع العيش هناك وإلاّ مات مختنقا.
استرسل الفرجاني في الحديث يبوح لسيّده بأسرار مهمّة:
صحيح الهواء منعش هنا والحياة ممتعة، لكن عريكة الناس حادّة ومزاجهم صعب، لقد عانى منهم المعتمد القديم ولا أظنّك دون معرفة بذلك سيّدي !
التفت إليه يروزه من أسفل إلى أعلى واكتفى قائلا:
لا تخش شيئا، سوف نجعل الدماء الحارة باردة منعشة مثل هذا الهواء.
قال ذلك وراح يتابع الغيوم الأرجوانيّة تسرح في اليمّ الأزرق، تتهادى في رفق كأمواج من الزّبد.
في اللحظات العذبة غاب قرص الشمس واقتمّ الأفق بهالة من ظلّ أزغب. لاحت في البعيد بيوتات صغيرة ينوس ضوءها كليلا يقطع الظلمات. هبّت ريح خفيفة داعبت هامات الصنوبر والتنوب وفي غضون ذلك كان المساء قد اغسوسق.

*** * * * * ***

فكّت عقدة من منديلها ثم مدّت له قطعتين نقديّتين ودسّت الباقي تحت ثيابها . '' هذا كلّ ما تبقّى، اذهب إليه ، قل له نحن نطبخ حساء البرغل منذ أسبوعين، قل له لا أريد صدقات ، أريد عملا وإلاّ سوف نتسوّل..''
تصلّبت نظراتها وهي ترمقه بعيون ذابلة، عروق نافرة مزرورقة ونحول تبرز له العظام في مستوى الصدر. لا يدري لماذا تسلّل إلى داخله إثم ثقيل وهويأخذ منها المبلغ؟ ترى ما الذي بقي له أن يفعل ! عيب أن يتسوّل مثله، يسرق أوينبش في زبل المترفين، ما

الذي بقي يا ترى ! الأبواب التي دقّها موصدة والحياة أمامه سرداب طويل مظلم الأفق..
لأول مرّة شعر بالحقد على الرجل الذي لم يره، راح يتابعها تذرع الباحة المتربة بقبضة يابسة من الصفصاف، كلّ سعلة تهتزّ وكأنها تخرج من داخله. لا يعرف ماذا يتربّص في الظلمات من جديد؟ ماذا يبقى من الشقاء الآخر؟ ولماذا تدير له الحياة ظهرها بهذه القساوة؟
'' السعد '' جاثم في مكانه لا يتحرّك، كلّ أعضائه سليمة لا تخوّل له الحصول على بطاقة إعاقة وحتّى لوكان هناك عمل فلن يظفر به مادام العمدة يمقته ولا يحتمل رؤية سحنته: '' اسمع يا ابن الطاهر أنت تقف أمام وجهي كل يوم وكأني قسّام أرزاق، أعوذ بالله منكم ومن أمثالكم ''
راح يرقب في غفوته زنابير صفراء تمخر دعامة الكوخ فتترك ثقوبا سوداء عديدة كأنها خرقت بمخارط. تراءى له شبح حياته من خلال تلك الثقوب مكتنفا بسيماء الشرّ والضياع، أشتات من الصور لا تبرح فكره.
مسكينه التي حاولت إيقاظ'' السعد '' الغارق في سباته في مكان لا يعرفه..
'' هل عقدت النيّة؟ '' حرّك رأسه وهوينظر إلى الحبات المصقولة السوداء تدور بين أصابعها برشاقة عجيبة
'' قول بجاه سيدي عبد السلام ''.. عيناه في ثديها يقطر حليبا في فم الرضيع.. '' ساكناتك ما فيها أماره حوريّة بنت سلطان الجان، روحها في شجرة رمان، حمراء ما فيها أمان. علاّوة يا وليدي تمشي ما تقول أح ترقد ما تقول صح داخلاتك تابعه في باب الدار رابعه وصلّي على السابعه وقول بجاه سيدي عبد السلام''.
عيونها تشبه عيون الغجر، تتدلّى على صدرها أسوار كثيرة من المرجان الأبيض والحلي الرخيص ونقشت على زندها أشكالا متفرّقة من الوشم في هيئة عيون وأصابع خمسة وعقارب متعامدة في أوضاع عديدة.
ناولها قطعة صدئة بمائة مليم ثم نهض متثاقلا. تمثّل صورة '' التابعة '' المتربصة به تنينا له سبعة رؤوس. لماذا تختاره دون غيره؟ ! لماذا لا تتبع سي المناعي مثلا له النزل الفخم والمال الوفير وزوجة ضخمة الأرداف وأطفال كالشهد؟ !
لماذا تقف'' التابعة '' في باب علاوة المسكين وتنسى البيوت الأخرى؟!
لعبت برأسه الهواجس والهلوسات ، أطلق من خلالها ضحكة عالية متشنجة وهوينظر إلى الخرز الذي أعطته له ، الخرز الذي يسكن في السحر الحلال ويطلّ منه '' السعد ''.. من يدري قد تكون عجوز ألمانية أوحلوب هولندية هذه المرة فتقول له تعال كما أنت، ادخل بثيابك ولا تخش شيئا، ''الفيلة '' والسيارة وكل ما تريد..

آه لويعثر على الخاتم داخل القمقم، لا يهم إن خرج المارد، هذا شيء لا يخصّه ولا يعنيه.. ‘‘النفلة ’’ اليتيمة، صدّقهم فوضعها في كأس وانتظر حتى الصباح لم يجد شيئا، قالوا له لم تعقد النيّة ولم تقرأ سورة الأنفال.

* * * * * * * * * *

عبر الشارع الضيّق المؤدي إلى السوق القديم ثم انعطف يمينا في اتجاه الساحة العامة قرب مبنى القصر البلدي. البلدة تنهض في تلك اللحظات ثقيلة، تترنّح وتميد على صوت المجوّد ‘‘ يوم تبيضّ وجوههم ’’ وينشج بالبكاء حتّى يغصّ خشوعا وخوفا من عذاب الآخرة وبئس المصير.

مرّ على محلاّت الجربوع تفتح أبوابها والباعة يعلّقون سلعهم على الواجهات بعصيّ طويلة تشبه المخاطيف. مازال الغسق يرين على المدينة، سيارات تمرّ في صمت.. غمغمات هنا وهناك. في هذا الجوّ الصباحيّ تتيقّظ أحاسيس جديدة وأحلام نائمة .. خواطر كثيرة تهدر في دماغه.. تتماوج وترسم له آفاقا بعيدة.

ينساب صوت المذياع من مقهى العياشي يمتزج برائحة البنّ المنعشة وغمغمات الجالسين:

ومشى الصياح مع الريح

وهمومك غنينا حبوه جذبة وشطيح

هذا وعدك يا مسكين

الحاجة في صدرك سكين

تشتدّ نقرات البانجوالمغربي يجاوبها الهجهوج في شجن يرقّ تارة ويعنف أخرى مع ضربات الدفوف والطبول ثم تعود متماوجة كالسيلان وإذا بها تحتضن الأرواح وتهيم بها.

وقف علاوة قرب المبسط الذي يفصل المقهى إلى نصفين، فرش بالقاشاني الرخيص ورصّفت فوقه الكؤوس والأباريق ومصفاة ضخمة. انشغلت كلّ الطاولات بلاعبي الورق والنرد يشربون النارجيلة ويثرثرون كثيرا.

سمع صوتا خشنا أبحّ يصل من الخارج ‘‘ تعطي لله تخلّلي لله، لله يا محسنين ’’ الشبح الواقف مغبر، تتدلّى منه لحية شائكة كالسمار. يمضغ شيئا ويتلمّظ فتبرز مضغته كلّما همّ بالكلام. مدّ له النادل كأسا من الشاي الأحمر، تناوله ثمّ صبّه جرعة واحدة وهويمسح أنفه بزغب جلبابه ويكرّر ‘‘ تعطي لله تخللّي لله.. ’’ صاح أحد الجالسين إلى طاولة اللعب: ‘‘ اكشف آش عند حجر، اثنين شاي في آمبا يا عصفور ’’. صبّ النادل سيلا أصفر ناعما يستقرّ في قرارة الكأس فتعلوه فورة من الزبد وتسمع له نشيشا لذيذا. طلب علاوة كأسا هوالآخر ثمّ جلس إلى نصف طاولة في الركن. خفّت عنه حمّى الخواطر، لعلّ جوّ المقهى ينسي الأحزان كما يقولون، يشغلك عن همومك.

رشف متصنّتا إلى الصوت المنبعث من صندوق خشبيّ معلّق تحت سقف المقهى '' الحكومة تؤكّد على تطوير المخطّط وتطبيقه في القطاع الفلاحي بإدخال الريّ قطرة قطرة ثمّ ربط الإنتاج بالإنتاجيّة ''.
'' قوات الدرب المضيء البيروفيّة تتقدّم بقوّة وتتمكّن من السيطرة على ثلثي المناطق المحظورة. الثوّار رفضوا التفاوض وتسليم الأسلحة وطالبوا بخلع الرئيس المنصّب '' لم يصغ للبقيّة، لا تعنيه السياسة ومشاكل العالم وربّما أيضا أن الهواجس الأخرى ما تلبث تمنع عنه التركيز تشلّ التفكير في غير ما هومهمّ بالنسبة له طبعا، الأساس أن يجد عملا يضمن قوت يومه ويطعم أخته غالية ووالدته قبل أن تعصف بهما الحياة إلى التسوّل. ماذا يهمّ من أخبار العالم وجميع المخططات الرباعيّة أوالخماسيّة ؟ هل ستمنحه الخبز أوتمطر عليه الذهب؟ بدت له السياسة لهوا يشغل البطون المتخمة التي لا تعرف الجوع ولا العراء، البطون التي لم تقتت من زبل المترفين. تخيّلهم برقاب غليظة حمراء ورؤوس صلعاء تلمع من فرط النعمة والرخاء.. لعبة مسلية ! ربّما هكذا لأنّه لا يستسيغ الأشياء المجرّدة.. مازال يذكر عبارات قديمة '' أنت تصلح راعي خنازير، مكانك ليس هنا.. '' يضحك كلّ الطلاب ويضحك هومعهم متحامقا فيستشيط المعلم غضبا ويأمره بالوقوف ورفع يديه في الركن إلى نهاية الحصّة. الفصل الذي يتكرّر دائما وكأنّ الحماقة كتبت عليه من قبل أن يولد. هل كان ذلك قدره؟ يتخيّل المشهد الساخر من مسرحيّة قديمة .. معلّم اللغة العربيّة الوسيم، مازال يتذكّر أصابعه الناعمة الطويلة وبدلته الأنيقة كان يضع الفتيات دائما في المقاعد الأماميّة ثمّ يكلّفهم بالقراءة الصامتة ويا ويل الذي يرفع رأسه أويهمس أويحرّك شفتيه.. صديقه جابر أبوالبهائم الذي يتلذّذ ضربات العصا ولا يسحب يده، حيلة مضحكة وطريفة وهويعلّمه كيف يغسل يده ببول البهائم حتّى تغلظ وتخشن فلا يحسّ بالألم.
فطن إلى صوت يناديه فاستفاق من خيالاته على جسم طويل القامة أسمر وافر التقاطيع يشير إليه بالجلوس إلى الطاولة المقابلة.
مقداد، أنت هنا ، اعذرني لم أنتبه إليك
رأيتك شاردا كأنك تحمل هموم الدنيا على رأسك ! خفّف عليك قليلا
مدّ له سيجارة وهويقول بنبرة مواسية:
لا تحمل همّا الناس كلّها في كوابيس هذه الأيّام، لست وحدك، انظر إلى هذه الوجوه الكالحة تحملق في الفراغ !
نحّى بكفّه ذبابتين ملتصقتين على حرف الكأس ثمّ رشف متفكّرا في كلام صديقه.
صديقه الذي انفتح له '' باب العرش '' كما يقولون، ناصرته الأيّام فتخرّج مخبريا بعد سنتين من التدريب، صار جديرا بلفت الأنظار، لم يفقد فذلكته وروح الابتسامة

التي طبعت شخصيته. ورث ذلك من طفولة محفوفة بالشقاء و فلم يفارقه ذلك الولع القديم بالمغامرة وجسارة الشباب. مازال يتذكّر أيّام الفتونة والسطوعلى المزارع وسرقة الفلاّحين في الأسواق.. البائع اللعين الذي كاد يشجّ رأسه بالميزان في الوقت الذي فرّ فيه مقداد بسرعة عجيبة.. غالبا ما يقع وتخونه الفطنة العمياء فيقول له صديقه متشفّيا: '' أنت لا تعرف كيف تتوجّس الحذر بقلبك مثلي ''. وكمن لفت نظره إلى مسارب الحياة ودفائنها،ظلّ يتعلّم منه ويعجب من ذكاء يأتلق من عينيه كشعلة نار. لكنه يحس في قرارة نفسه أنّ خيبة ما تطارده وتدفعه مهما كانت التجربة إلى أفق مجهول.

*** * * * * * * * ***

قام متثاقلا وهويخاطبه مبتسما:

ستكون ضيفي الليلة، آمل أن تقبل الدعوة، ثمة شخص عزيز سيكون معنا.

اعتذر علاّوة بسرعة لكنّه لم يجد منفذا يتعلل به أمام إصرار صديقه. لم يترك له الفرصة واكتفى قائلا: أنتظرك في تمام السادسة لا تتأخر.

دفع الحساب ثمّ توارى بخفة في الزقاق.

حبّات البرد تتراقص، تنقر زجاج النوافذ وتتسرّب عبر المداخن وفتحات الأبواب. دوّى الرعد واهتزّت أركان البيوت بأصوات مفرقعة ارتجّت لها السقوف. بسرعة فائقة افترشت الأرصفة والأنهج بساطا ناشفا من الثلج الأبيض البكر وتغيّر وجه المدينة النائمة بتعويذة من سحر الطبيعة الهوجاء. البياض يكتسح كلّ شيء والجوّ ساج إلاّ من حبّات المرجان البيضاء تتسارع في انتظام كوابل من الحصى. بين الحين والحين تعود همهمة الرعد وتمتدّ ألسنة البرق تمزّق صمت المدينة التي انفردت بها العاصفة. ينقطع التيار ثم يعود ومع كلّ فرقعة تتلطّف القلوب رهبة، إصبع من الفحم على الحواجب يكفي لطرد الخوف ومنع الرهبة عن قلوب الأطفال '' عليّ يزمجر في السماء بحصانه الأشهب ويتوعّد سوء العاقبة.. ''

البلدة في عزّ شتائها، شباط الأعتر، شهر الثلوج والبرد الشديد، تسقط فيه الأعمدة والأشجار وتنفصل أغصان الزان والفرنان ويتجمّد الماء في الأودية ويموت كلّ شيء. تبقى كسف الجليد تدور في بطء والكلاب السائبة تطارد بعضها مغمورة بسحر البياض. في مثل هذه اللحظات تقفر الشوارع ويستكنّ الناس في بيوتهم ونادرا ما تبرز بعض الهياكل البشريّة تتحرّك في هدوء.

رنّ جرس الهاتف يقطع الصمت، تناوله على مهل.

آلو، من؟ سي عاشور، أهلا كيف الحال؟

العفوسيد المعتمد، أردت فقط الاطمئنان عليك، لا شكّ أنّ البلدة أعجبتك، شتاؤها قاس يلزمه فقط بعض الاحتياط.

تنحنح سي ماجد قائلا:

فعلا كما قلت، تصوّر أنني أول مرّة أرى الثلوج في حياتي. المناظر ساحرة والأرض كلّها بيضاء حتى القرميد والأشجار تغيّر لونهما. قلوبنا فقيرة لرؤية هذه الأشياء.

ضحك سي عاشور مستحسنا ما قاله سيده ثمّ أضاف بلهجة جادة:

هذا حسن، على شرط أن لا تكدّر قلوبنا الأوغاد ورعاة الخنازير. هل علمت أنّهم يهدّدون بالإضراب هذا الصباح؟

تمتم سي ماجد ثمّ قال:

لا أفهم ما تقول، من تعني بالضبط؟

عملة النزل يساندونهم عمال شركة الخفّاف، يبدوأنّ واحدا انتحر البارحة. كان يشتغل مع المناعي ولهذا السبب يهدّدون بالإضراب.

سكت لحظة ثم أردف:

النقابة تغلي وتحتجّ كما أبلغني الكاتب العام. هي التي تدفعهم إلى التظاهر.

انتفض وهوممسك بمقبض السماعة كأنه لا يصدّق ما يسمع، خاطبه بنيرة آمرة:

اسمع لا تدع الأمور تتطوّر، أمامك أربع وعشرون ساعة لحصر الشرذمة التي تحرّك العمال، نحن لسنا في غابة والأمور ليست فوضى، سوف أتّصل بالمناعي بنفسي.

أضاف سي عاشور:

قد تراه الليلة في النزل، حاولت الاتصال به منذ ساعة فلم أجده، ربّما خرج مع الألمان لصيد الوحش والخنزير. لكن لا يهم، اطمئن، المسألة بيدي ولا شيء يفلت من زمامي. أنا أعرف البلدة كما أعرف جيبي، من سيرفع رأسه سينال الجزاء.

اطمأنّ بالفعل لكلامه وأحسّ بثقة تبدومن خلال لهجته الخشنة الرصينة. لا أحد يجرؤ على دخول مركزه إلاّ ويخرج تائبا يحبوويبعبع كالنعجة. كل صعاليك البلدة ومنحرفيها يشهدون له " رمبو" " الحاكم خصاي في العفاريت " كما يسمونه ويكفي

أن يقع أحدهم بين يديه وينظر شواربه الزعراء وعينيه الحادتين كالصقر حتى يبول في سرواله.
البرودة تشلّ الأطراف، التيار ينقطع ويعود والمكتب يضيق ويرين عليه الصمت. يبرز التمثال البرنزي كالشمع الأصفر، ابتسامة خرساء عنيدة تضفي عليه سعادة باهتة.
فرك يديه يستمدّ قليلا من الدفء ثم وضع قرصا أحمر وسط كوب من الماء ثم شربه جرعة واحدة. آنس تحسّنا جديدا في صحّته ونشاطه خاصة بعد أن حذّره الطبيب قبيل قدومه من نزلات '' الانجين '' وأوصاه بالحمامات '' العربي '' الدافئة.
'' عليك " بالماساج" والعلاج الطبيعي ؛ لأنّ مشكلتك لا تتوقّف على الأدوية وحدها ولا على الحبوب المنشّطة. أنت وحدك القادر على علاج نفسك، فقط الحلّ يتطلّب الكثير من الجرأة والتضحية ''
مازالت كلمات الدكتور'' لوبيز'' تدور في أذنه لكنّه لا يريد أن يفكّر في الأمر أوأن يشغل ذهنه بمسألة تبدومحسومة مسبّقا. ولماذا يكلّف نفسه كلّ هذه المقاومة العبثيّة أمام الموت المختبئ في ركن من أركان الجسم؟!
إنّها لعبة مضحكة مسلّية، من يستطيع أن يفهم هذه اللعبة؟ قهقه في أعماقه وهويغمغم: '' لا بدّ أنّها عاهرة، عاهرة هذه الحياة التي نتشبّث بها ! ''
أحسّ بينبوع الحقد والنقمة يتفجّر بداخله، يحوّل قلبه إلى صخرة متكلّسة وطمأنينته إلى كذبة كبرى. لماذا يشغل الذهن بهاجس الحياة والموت؟! ما جدوى أن يكون الجسم هذا كما هوأوأن يغدومتحلّلا في التراب؟ إنّنا نندفع برغم عنّا إلى الهوّة الفاصلة كالفراشات التي تطير من تلقاء أنفسها إلى اللهب..
وضع المعطف ثمّ مرّر أصابعه في قفّاز من الجلد وخرج يفتح باب السيارة الراسية أمام الواجهة. ندف الثلج تغطّيها من كلّ جانب. صفق الباب بسرعة ثم قرص مفتاح التشغيل، شعر بنفسه مدفوعا بلذّة الهرب بعيدا بعيدا عن تخوم الزمن. لا يدري لماذا يعاوده نفس الإحساس كلّما جلس على مقعد القيادة؟
داس على البنزين ثمّ حرّك ماسحتي الزجاج الأمامي فراحت ترقص يمينا وشمالا تفتح نصفي دائرة تتّسع شيئا فشيئا. انفرج الشارع أمامه مثل غور بعيد وانطلقت السيارة تخترق ملاءات الثلج والضباب تاركة وراءها جمرتين متّقدتين وسط ستائر الظلام.
* * * * * * * * * *

وجدوه يتدلّى أمام العتبة، فعلها غفلة منهم ! لم تتفطّن زينة عندما ربط الحبل في عمود السقف الخارجي وترك مسافة ذراعين بينه وبين الواجهة حتى لا يبقى له أمل الخلاص أوالتفكير فيمن عساه ينقذه. كلّ شيء مصمّم بحيث حار الناس في الوقت الذي أخذه ساسي قبل شنق نفسه بطريقة عجيبة. السيجارة مازالت مشتعلة على المسند الخارجي، لم يشرب منه إلاّ أنفاسا محدودة ثمّ ترك الباقي في اللحظة نفسها. ساقاه الغليظتان تتدليان مثل عمودين من الخشب، والعينان جاحظتان بارزتان ككريات الزجاج، كأنه يحدّق في الناس ويقول لهم: '' ها قد أرحت نفسي منكم أيّها الأوغاد ! ''

تقدم شيخ من الجماعة ثمّ صعد سلما يستند إلى جدار وبحركة خفيفة أسدل له جفنيه وكأنّه يقرأ في نظراته إثما عميقا. أمر بأن يبقى كما هوحتى تصل الشرطة، لها ما تقول في جثة ساسي التي بقيت تسدّ مدخل البيت في نحوأربع ساعات على الأقل، مما اضطرهم إلى لفّه في لحاف مثل الشاة المسلوخة.

زينة أدمت خدودها وهي تصرخ وتولول، تعانق طفليها ثم تدقّ صدرها نادبة: '' أبوكم راح.. أبوكم راح.. تركنا وحدنا.. '' ثمّ تلتفت إلى باقي النساء الجاثمات على الأرض تستحثّهن على البكاء.

في المساء، وبعد أن بحّ حلقها من الصراخ، عصبوا لها رأسها داعين لها بالصبر وله بالرحمة في حين بقيت كالواجمة تنظر باهتة ولا تصدّق ما حصل. قرأوا البردة وذكروا الأدعية في مكان المغسل لطرد الأرواح الشريرة، وبعد سويعات من الخشوع والتأثر بدأوا يتسللون واحدا واحدا فلم تبقى إلاّ زينة المسكينة تحتضن طفليها على ضوء الشمعة الكليل وساسي يرقد إلى الأبد بجانبهم.
لم ينم لها جفن ليلتها، طيفه يلازم خيالها حتى في اليقظة، خاصة الأيام الأخيرة التي تهاوى فيها وصار سريع الانفعال كثير الهواجس. لا تنسى كلماته وهويلعن ويجدف على العالم " الأوغاد.. الكلاب.. أعرف كلّ شيء وبإمكاني أن أشيع فضائحهم واحدا واحدا.. لا يكفي انهم لصوص.. تجار بغاء ومخدرات ثم يقطعون رزقي أنا وأبنائي.. والله العظيم لن أسكت حتى لووضعوا السكين في رقبتي، الموت بيد الله ليس بأيديهم.."
في مكان أجرد تمتدّ فيه شجيرات من السلم البريّ ساروا به في موكب ثم صعدوا به ناحية المقبرة حيث أعدت حفرة مستطيلة ليرقد فيها ساسي إلى الأبد. قرأوا الفاتحة وقوفا ثمّ صلّوا عليه. كان بعض الرجال يمسحون دموعهم بقبضات أيديهم والبعض الآخر ينشجون في صمت. هالوا عليه التراب اللزج وكأنهم يخشون أن ينتفض من جديد ويمسك بتلابيبهم.
هبّت نسمات الشتاء القارصة وانفضّت الجنازة خرساء تنحدر مع تموجات الأرض الطريّة ثم تغيب عن البصر شيئا فشيئا.

تتقد العيون وتتوهّج كأنما تنتظر أول إشارة لتنفجر ويكتسح لهبها المكان. كلّ الذين جاءوا انشغلوا بموت ساسي المفاجئ، تتسع غمغماتهم وهمساتهم وهم يستعيدون أطوار الفاجعة، البعض يدخّن في صمت، وجوه كالحة تنتظر شيئا ما يطفئ غضبا مشتعلا.. إنهم أصدقاؤه، يعرفونه ولعلهم يدركون بعض الحقائق التي تغيب عن الآخرين.
في مقدمة القاعة وعند الزاوية يجلس رجي نحيل أصهب البشرة يضع نظارة، إنه فائز اللافي بهدوئه المعتاد وتلك القوة الغريبة التي تتوهج من عينيه. الكلّ ينظر إليه مترقبا أول كلمة تنبس بها شفتاه ليبدأ الاجتماع. تبدوفي نظراتهم رهبة كالإجلال لمن يجلس قبالتهم. لا شيء ألذّ من كلمة تدفع الدماء الحارّة في العروق الباردة وتطفئ النار المتأججة بداخلهم.
قبل أن يأتوا كانوا يشتمون المناعي بأقذع الصفات ويتوعدون النيل منه مهما كانت التهديدات. ولمّا تكلم فائز اللافي فجأة ران الصمت وامتدت العناق في تركيز كبير. لم يبق غير صوته واضحا، هادئا يخترق الصمت وينفذ في الآذان الصاغية . كلامه في

الأول بدا بعيدا عن قضيّة ساسي، كأنه رام أن يشدّ الانتباه للقضايا الحقيقية ثم من بينها حادثة الموت. راح يفسر لهم أبعاد الحادثة قائلا:
إخواني، إنّ النقابة تعتبر موت ساسي كارثة لنا جميعا وانتهاكا لكرامة كلّ واحد منّا لذلك نحن نكذّب كلّ ما يروج من أقوال مغرضة ولا نشكّ في تآمر المناعي وأزلامه لذرّ الرماد على العيون.
انتفض عامل من وسط الجموع المتراصة يعقّب على كلام اللافي في غضب واضح:
كل العمال يشهدون بموته ظلما، كثرت ديونه ومشاكله، نحن نعرفه لا يطعم أبناءه الحرام ولا يقبل أن يمسّ ذرّة منه.
سرت غمغمة تؤيّد كلام المتدخّل في حين اكتفى اللافي بإيماءة برأسه ملاحظا انفعاله فطلب منه إنهاء كلامه ثم يترك لهم الفرصة للحديث. كانت القطرة التي أفاضت الكأس وفجرت الأحقاد..
إننا لا نشكّ في أمانة وصدق العم ساسي، ودوافع الانتحار كلنا يعرفها ولا يخفى علينا شيء. يبقى الأمر الآخر يتعلق بمشاكلنا مع المناعي بخصوص المطالب التي رفض الحديث في شأنها، لدينا قائمة مهمة تتعلق بالساعات الزائدة ومنح العمل الليلي والطرد التعسفي والقائمة تطول.
سكت لحظة كمن يمهّد لقول فصل ثم أردف:
إذا هذه هي مطالبنا وسوف نستخدم الإضراب حتى يركع ويعرف أنه لنا عليه حقوق و'' ديون '' مسروقة. يبقى عليكم دائما بالتريث وتحكيم العقل، لا نلجأ إلى الحلول الفرديّة، المناعي يمكن أن يجعل من ذلك طعما لإسقاطنا وإفشال خططنا.
يتدفق الكلام من فمه رخيا كالسيل ويستقر في الآذان الصاغية وكأنه يرسم أفقا ورديا بعيدا في العيون الحالمة.
ليس المهم أن ينجح الإضراب أويفشل، أهم شيء أن يترك فجوات من الضوء في العيون الحالكة ويطلق الأفواه المكممة. لعلّ هذا الكلام هوالذي يبقى فائز اللافي محتفظا به وحده، الغور الذي ينظر من خلاله إلى الأمور.
قال في ختام كلامه:
إنّ حقوقكم مشروعة لأنكم أنتم الذين تكدسون أرباح المناعي ليسافر بها هووزوجته إلى باريس للاصطياف أويصرفها في عيد ميلاد ابنته. هذه الأموال لكم فيها نصيب، سوف نسعى إلى افتكاك بعض المطالب وهذا متوقف على عزمكم وتكتلكم. أنتم وحدكم القادرون على إنجاح الإضراب أو إفشاله بالمزيد من الجهد والتضحيات.
انفضّت القاعة شيئا فشيئا تاركة آمالا كثيرة تتوهج في الصدور.
****

لحظة خارجة عن مدار الممنوع، لحظة اختراق تتخطى الأفق وكلّ التخوم، استطاع الزمن هذه المرة على الأقلّ أن يتجاوز تخومه قيد أنملة.. صافية هي الطريق التي تقود إلى النجوم..
'' هيلاس '' يرقد في الظلّ، ليل المدينة يجثم على النفوس وشيء ما في الأعماق يرتجف.. لا ندري في هذا الزمن الملعون يصير كل شيء مستباحا رخيصا حتى القلوب السادرة في كهوفها..
كل التماثيل النائمة تحلم تحت الثلج المتساقط بزهيرات الجلنار، بالشمس الذهبيّة تسافر كلّ عام ثم تصافح آذار فتورّد الزنابق وتستميل عباد الشمس وتختمر الثمار في الأرحام..
هكذا من قطرات الجليد الذائب تتململ البراعم النائمة وتشرق حياة...

دخل الفرجاني بمعطفه الأصفر يتقاطر ماء، غشاء من الثلج يغطي رأسه وأعلى كتفيه. كان البرد شديدا نتف الثلج تتطاير وتتسرّب إلى البيوت، تغطّي الرؤوس والمداخن وأشجار الفرنان والزان الأخضر، يتدلّى الجليد من حافات القرميد لامعا حادا كالإبر.
أخذ كرسيا ثم جلس في الزاوية، طلب من النادل شايا:
أهلا بك موسطاش هل نسيت الناس؟
التفت فجأة فوجد السرجان بشير والشيخ نايف وعمّار يجلسون بجانبه، حجبتهم العرصة القائمة عن ناظره
اعتذر ثم حمل كرسيّه بجوارهم.أراد عمار أن يستفزّه مرّة أخرى بفذلكته اللاذعة قائلا:
هل شبعت يا موسطاش فلم تعد تعرف أحبابك؟ فعلا النعمة تجعل الأذيال رؤوسا !
انتفض غاضبا يحملق فيه:
وهل تعتبر نفسك من الأحباب أيّها الجرب؟! اسمع أحذّرك، لا تعكّر مزاجي بفذلكاتك القارصة..
ضحك عمار متراجعا، يعرفه سريع الانفعال لا يقبل المزاح حتى مع نفسه لكنّه مع ذلك تمادى في استفزازه بشكل خفيّ:

أخبرني يا موسطاش بما أنك من المقرّبين، هل ثمة زيادة في" الحضائر "؟ يقال أنّ المعتمد الجديد ينوي فتح مشروع مقاومة الانجراف وإصلاح الشعاب والطرقات..
ردّ عليه ببرود وغلظة:
ليس لديّ علم، أنا لست مسؤولا حتى أجيبك ثمّ أهل مكّة أدرى بشعابها..
- لقد تغيرت يا موسطاش أصبحت تخاطب الناس من أعلى، لا أدري أين تعلمت ذلك، هل درستها وراء النعجات؟ ما ينقصنا إلاّ أنت تخاطبنا بالعربية وتضرب لنا الأمثال !
انفجروا ضحكا رغم غضبه وغليانه ثم ما لبث أن انتصب واقفا يتهدده ويشتمه بأبشع النعوت، أوشك أن يقلب عليه الطاولة لولا تدخل السرجان وقد أمسكه من ذراعه ليهدأ من روعه ثمّ مدّ له سيجارة وأعاده إلى مكانه..
تكلم الشيخ نايف مازحا:
دعنا يا موسطاش من فذلكات عمار، لقد تعودنا عليه والله الجلسة لا تحلوبدونك، نحن ننتظرك لننسى القليل من همومنا. هيّا العن الشيطان واحك لنا عن مغامراتك مع " مدام هيلين " ماذا كانت تفعل لك؟ هل كانت فعلا جميلة؟
يبتسم فجأة وهويشعل السيجارة، كان ينتظر منهم ذلك، الفرصة التي يثبت من خلالها رجولته أمام عدوّه اللدود. عمّار الأخوص ما ينفكّ يهينه ويرميه بالكلام، اللعين لولا السرجان لعصره بين ذراعيه وعلّمه أنّ من يسخر من موسطاش لم يولد بعد، هوالذي تقف الطير على شواربه يهزأ به عمّار الأملط !
ألحّ عليه السرجان بنفسه مرّة أخرى وطلب من أن ينزع الضغينة عن قلبه فعمار ليس غريبا والمسامح كريم..
جذب أنفاسا ثمّ راح يسرد القصّة ويتعمّد تفاصيلها فيطلب الشيخ نايف المزيد والإعادة حدّثهم عن "هيلين " الجميلة يبيت عندها في ليالي الصيف المقمرة. بعد أن يسكر زوجها " جورج القصير " تهيّئ له علبة " الجيتان " وزجاجات البيرة ثمّ تتسلّل له إلى المخزن في قميص النوم. لا يزال يذكر شفتيها الطريّتين، نهديها ينتفضان كرأس القطّ وهي تتوسّل إليه وتستجديه المزيد، تظلّ تحدّق في عضلاته وشواربه المعقوفة ثمّ تناديه " فيري " بنوع من الغنج والدلال. يختبل موسطاش مرّة أخرى ويفقد صوابه فيحملها بين ذراعيه كالخرقة، يعتصرها حتّى تطقطق عظامها..
قالت له يوما:
أتمنى يا " فيري " حبيبي لوأموت يوما بين ذراعيك ! أنت الوحيد الذي يمنحني لذّة الحب، الموت ربيب الحبّ وكلّ الذين عشقوا بصدق ماتوا وانتهوا..

يضحك الشيخ نايف لسماع الجملة الأخيرة كاشفا عن أسنان صفراء خرّبها الخمر والسجائر ثمّ يسأله مازحا:
أ كانت بدينة يا موسطاش أم نحيلة؟
يردّ عليه بغلظته المعتادة:
ألا تخجل يا شيخ؟ من في سنّك يكون قد تاب وتراه الآن يصلّي ويسبّح.
باللهّ عليك دعنا من الفتاوى والمواعظ، حدّثنا عن " ماري " الأخرى كيف كنت ترقبها عارية مع زوجها " بيار " ؟ ذكرت مرّة أنك اشتغلت عندها، لاشكّ أنّك نلتها !
يمتنع كمن يخفي سرّا عزيزا عليه ثمّ سرعان ما يتهاوى أمام إصرارهم. يشترط أن يدفع ثمن الشاي مسبقا، ثمّ يواصل:
أيّهما تعنون " ماري" الطويلة الشقراء أم" ماري " الراهبة؟
فيلحّ الشيخ نايف من جديد:
نحن نريد الأولى، الثانية لا نعرفها، ولا نظنّك تصل إليها؟
تتغير سحنته ويزداد صلفا وعنادا:
أنت دائما تكذّبني يا شيخ النحس، خير لك أن تتلهّى بأشياء أخرى إذا كانت حكاياتي لا تنفع وصارت قديمة..
يعتذر الشيخ نايف متراجعا:
لا تغضب يا موسطاش، بالله عليك واصل واحك لنا عن أيّهما شئت نحن نريد أن نسمع فقط.
خمد هياجه تدريجيا وأحسّ بهم يتهاوون تحت سلطانه وقد كفّوا عن مناغشته فيرسل دخان سيجارته متماوجا من فمه ومنخريه ثمّ يقول مبتسما:
كنت أسير إليها بعد الظهر لأذبح لها الخنانيص وأسلخها. أجد الباب مفتوحا، أدخل المطبخ لأضع سلّة البيض فتسمع حركتي وتناديني. صوتها يردّد أنينا لذيذا يدخل جسمي كالتيار، يصعقني ويحولني مشلولا عاجزا مطواعا لها كالعجينة. لوتقول لي ارم بنفسك في النار أرميها لأجلها، لأجل تلك الأرداف المربربة. أطلّ برأسي وصوتها يجذبني إليها ولكنّي سرعان ما أفاجأ بها فوقه.
عند اللحظة نفسها تقف أذنا الشيخ نايف ويفغر فاه مستلذّا وملتقطا كلّ كلمة تسري من فم الفرجاني. فيستحثّه لمواصلة الحكاية:
من؟ من كان فوقها؟ هل رأيته بنفسك؟
فيردف موسطاش:
العاهرة تستثيرني، تتعمد ذلك. أنا أعرف مزاجها، تريد أن ترهق أعصابي وتجعلني أكسر عظامها بيدي هذه. تصوّروا تظلّ فوقه تعلووتهبط وذلك الخنيث " بيار " يتضوّر

تحتها كالشاة المذبوحة.. لا أتحمل الموقف ولا أقوى على قبول المهانة. لوأبقى أكثر أكون قد انقضضت عليها وأريتها ماذا يفعل موسطاش.
اللعنة على بنت حواء، كانت شهية ولحيمة الفخذين والأرداف، الله يرحمها وإن كانت من النصارى. كلّ ذلك يأكله الدود والتراب..
كان عمّار ينصت للحكاية، لم يقل شيئا في الأول، إلاّ انه سرعان ما أردف بسخريته المعتادة:
كنّا نظنّك فعلت شيئا يا موسطاش " واحد يستمتع والآخر تأتيه الحلاوه " لعلّك كنت تخجل منها؟!
سدّد إليه النظر وقد تصاعد حنقه وفاض صبره، فلوى خناقه ثمّ دفعه إلى الخلف شاتما:
سأكسر ضلوعك يا ابن الزانية، كنت تفلّي القمل فصرت تسخر من الرجال. إن كنت تشك في رجولتي فهات لي زوجتك تجرّبني، سنرى من منّا الفحل لا تخجل.
تعالت ضحكاتهم تملأ المقهى ثمّ ما لبث السرجان أن ارتمى عليه يطوقه بذراعيه حتّى لا يفتك بعمار الذي بدا خائفا. رأى جبهته المعقودة وشواربه ترفّ حتّى صار يرتعش من الغضب.لوانفرد به لحطّم عظامه، الوغد لا يستنكف من فعل أيّ شيء، ألم يخرج عضوه مرّة أمام الملأ عندما بالغوا وتمادوا في مناغشته.

نظر السرجان إليه معاتبا:
ما كان عليك أن تعكّر مزاجه هكذا، أنت تعرف غضبه.
قاده بعد ذلك خارج المقهى وهويغلي ويغمغم متوعدا وسحنته تتلفّع سمات الشر والانتقام..

طلب مقداد زجاجتين من البيرة وصحنا من الفول المسلوق. راح يبحث عن طاولة شاغرة وسط الجموع المتراصّة كعشّ النحل، تبعه علاّوة إلى الزاوية يتسلّل معتذرا بين السكارى والكراسي، الحانة ضيّقة تنشر رائحة القروصة والشواء ويظهر من بساطتها أنّها لا تؤمّ إلاّ أنصاف الكادحين من البلدة وبعض المزارعين ورجال القرى. بضعة أنفار من رجال الجمارك والتعليم جلسوا إلى طاولة مستطيلة ملئت بشتّى أنواع الغلال والسمك. تقف القوارير الخضراء على حافتها كالقلاع، وصاحب الحانة يقوم وراءهم وعينه على البعض خوف الزجاجات الطائشة أوالمشاكل التي قد تحصل. تعجب علاوة من الكميات الهائلة التي تأويها البطون من الخمر والبيرة. كأنهم يشربون بنهم المفاخرة، لذّة غريبة تتجوهر في داخلهم وهم يرصفون الزجاجات الفارغة وينظرون إليها بفخر وإعجاب. رجل ضخم يتقاطر تحته سائل أصفر لزج، بدا ثملا، يترنّح العالم ويميد في رأسه فيصبّ الكأس في حلقه ونصفه الآخر على المبسط.
اعتذر مقداد لصديقه:
أخشى أن يضايقك المكان، ولكن لا يهم في المرة القادمة سوف تكون الدعوة في البيت
أمال الكأس ثمّ صبّ زجاجة كاملة وهويبتسم قائلا:
كأس أوكأسان تكفي لانتشالنا من الأوهام والكوابيس..
ضحك علاوة ثم ردّ عليه مازحا:
بدأت تتفلسف يا ابن عمي، خذ المسألة ببساطة ولا تعقدها. نحن هنا نريد أن نريح أذهاننا من التفكير.
أزجى إليه بنظرة ثابتة معلقا:
حتّى وإن كنت أبالغ، فإنّ أمثالنا لا يسكر بسهولة مادامت أشياء كثيرة تظلّ توقظ الذهن

قال ذلك مبتسما وهوينظر إلى الكأس التي طفح على حافتها الزبد:
قلبك فائض، لا شكّ أنها تذكّرتك !
وكمن صعقه بسؤال لم يكن ينتظره، انفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة مستنكرا كلام صديقه:
أنا لا أبكي الموتى يا مقداد، القلب الذي تعرف مات من زمان وحتى الذكريات صارت لا تثير فيّ شيئا.
لا يعلم هل حقّ له أن يكذب ! أن يعانق الوهم ! ولم لا؟ هل ينسى الحروز التي يعلقها على شجر الصفصاف، قال له الحاج عمران: كلما داعبتها الرياح وتحركت الأغصان إلاّ واشتدّ بها الوجد وجاءتك تحبومع الغسق..
الصدع العميق ينفرج ويتّسع فتنساب رؤى ورديّة، تتماوج ثم تهوي ويكتنفها ضباب، تغيم ثم تعود شفافة كالمرآة، ترسم شجرة العناب في ليلة قمراء فيراها تتسلل إليه من الزريبة مع آذان الفجر وقد اطمأنت على الحاج في الميضاة. يلوح شبحها وهي تقترب فتشتد نبضات قلبه، تقترب أكثر وكأنّها تعدّ خطواتها، لا يدري كيف يحتضنها، يعتصرها بين ذراعيه، يتحسّس نهدين ويفكّ الثنايا فينحلّ المعقود، يدسّ رأسه بين رمّانتين صلبتين، تغمغم وتتلوّى ثم سرعان ما تنفلت من أحضانه كسمكة بريّة.
عاهدته بالخبز والملح الذين ربطا بينهما، أقسمت بكلّ الأولياء السبعة أنّها ستنتظره إلى الممات، لن تغيّره لوبكنوز الدنيا كاملة. وفي لحظة واحدة تبخّرت كلّ الرؤى ولم تترك سوى ثقلا عميقا ينزّ في القلب.
سكب كأسه الثانية محملقا فيه ثم قال:
لماذا تفرّط في "صبيحة " يا مقداد ، كان بإمكانك إن تأخذ الأمور بأكثر جدّية، تعرف بالضبط ماذا أقصد.
أومأ برأسه وكأنه يتعمّد أمرا ما ثم قال:
خطبها موسطاش من السرجان. قال أنّه جاهز لكلّ شيء وحتّى السرجان ملّ بقاءها في البيت. البنت تجاوزت الثلاثين، الدنيا حظوظ يا علاوة وأنا من الذين أعطتهم الدنيا بمؤخّرتها. تصوّر " صبيحة " عرفتها وظلّت معي سنوات وفي الأخير كانت من نصيب ذلك الخنزير.
أتمّ جملته وقد بدت على سحنته سمات الانفعال، فطلب زجاجتين مشيرا بيده. لمح وهويلتفت فجأة شابّا متوسط القامة يدخل رفقة رجل آخر. عرفه بسرعة وكأنه ينتظر قدومه فأومأ إليه:
أستاذ فائز ننتظرك منذ لحظات.
سحب له كرسيا ثم أذن لصديقه أن يجلس مخاطبا:

ابن عمّي علاوة، أظنك تراه أول مرّة، ثم التفت إليه مقدّما فائز اللافي.
على الرغم من معرفته البعيدة، لا يدري لماذا تحيط صورة هذا النحيل في ذهنه بكثير من الألغاز الغامضة.. ماذا لديه دون بقية الناس؟! كيف يمكن لمثله أن يشكّل خطرا؟! كيف يخرّب عقول الناس كما يدّعون؟! رأى في هدوئه وائتلاق عينيه ما ينبئ عن نفسيّة مسالمة وديعة، فهوأضعف من أن يؤذي عصفورا واحدا.
مدّ له سيجارة في حين انشغل مقداد برفع سدّادة الفلّين عن زجاجة " سان جورج".
قذف منها قليلا ثمّ صبّ كأسين مشيرا إلى ضيفه:
الجلسة معك لها نكهة خاصّة، لا تنسى أنّك معلمنا.
اعتذر بسرعة:
أرجوك، لا كلفة بيننا
سكت لحظة ثمّ أردف:
الرجال تفنى يا مقداد، ليس المهم في الكبرياء الفارغة، ومن يعبر الآفاق الشاقة والمسالك الخطرة عليه أن يسير بصمت، بجلال وبرود. الرجال الحقيقيون نادرون مرّوا بصمت، بدون ثرثرة أوضجيج، انتصروا في اللحظات العابرة بدون تخطيط مسبّق أوبهرجة فارغة. إنّهم أشبه برعشة الموت تصيبك غرّة. ونحن لسنا سوى أقزام أمام هؤلاء.
تحدّث اللافي بحماس شديد يذكر تجاربه وعلاّوة يصغي بسذاجته كلّها إلى الحديث. لم يدرك بوعيه البسيط إلاّ ذلك الإحساس الغامض بشوق إلى حياة ما يختمر ويتدفّق في حضيض ذاته، شوق ما يعصف به إلى عوالم فسيحة يرسمها اللافي في ذهن بسيط. لأوّل مرّة ينتابه شعور كهذا، يرى عقلا عملاقا يعمل بهذا الرأس النحيل المربّع ولا يكلّ. كيف يستطيع هذا الرأس أن يحمل كلّ هذا الكلام؟!
ثقل لسانه بعد حديث طويل والنعاس يغازل عينيه فخاطبه وقد تبدّت نشوة الخمر على محيّاه:
أنت رجل نادر يا أستاذ فائز. تحمل الدنيا ومتاعبها على كتفيك لكن للأسف نحن نعيش هنا كالبهائم. الناس عندنا لم يتعلّموا بعد حتّى كيف يغسلوا مؤخّراتهم.
ضحك اللافي حتّى مال على كرسيّه ثم علّق:
لا أظنّ ذلك، ليس الذنب أنّهم ورثوا الجهل والطاعة والخوف. أنت تدين الضحيّة وتسكت عن الفاعل الذي زرع الظلام في نفوسهم. هكذا كنّا جميعا ومازلنا. النفوس المعتمة تعشش فيها الخرافة ولا يشرق فيها النور بسهولة.

هزّ رأسه صامتا وقد بدا عليه شعور عاجز وهويتلقى ردودا قاسية تنفذ إلى الصميم. أحيانا يرى وراء صورة الكاهن الوديع لسانا كالنار. قوّة مجهولة تثوي في أعماق هذا الجسم النحيل.

* * * * * * * *

شعر بنفسه يحتضن السماء، يعانق النجوم ويلثم نسيمات الليل مسكونة بصمت الخلاء. تسلل بين شجيرات الصبّار وعرائش الكروم ثمّ تسمّر فجأة وقد آنسته أصوات متنائية تمتزج بنقيق ضفادع وهسهسة صراصير تأتي من الوادي.
دفع باب الحوش ثمّ سار متثاقلا ناحية الحجرة المظلمة. ألفاها بعيدة، تنأى عنه كلّما اقترب منها، خانته ساقاه فجأة وترنّح، أدار القفل عدّة مرّات ثمّ رمى بجسمه على الفراش، زاغت نظراته فرأى السقف يدور. ضغط على حافة السرير وراح يتقيّأ.
حشرجة تقطع صمت الليل، حاول أن يعود إلى وضعه الأوّل لكنّ القيء غلبه وشلّ حركة جسمه. لم يشعر بها كيف دخلت إلاّ حين رفع رأسه وسوائل القيء والمخاط تتدلّى من فمه. رأى هيكلا نحيلا غائما يقف أمامه. لا يدري أ هوالخجل أم الوعي المفاجئ يجعله ينتصب برغم عنه؟ تسمّرت ساقاه وأحسّ بقوّة دماغه تنحدر وتسري في كامل جسمه المتصلّب كالصخر. تقدّم نحوها وعيناه تأتلقان كالجمر في حين تراجعت هي وكأنّها تتوجّس شرّا حلّ به. أمسكها من ذراعيها بعنف ثمّ رجّها رجّات قويّة متتالية وفجأة ألفى نفسه بين أحضانها ينشج كطفل صغير يذوّب في دفء صدرها قرّا مكبوتا سنوات. بكت وهي تمسّد على شعره:
الملح يا ابني لا يداوي الجروح، بل يزيدها تقرّحا..
* * * * * * *

مع الفجر غمرته هالة من الشوق الروحي وتدفقت فيه رغبة رائعة لاحتضان الحياة، للسفر في الآفاق البعيدة. النجوم تندثر وتتلاشى كأجمل ما يكون والليل ينسحب تاركا خيوطا من الشرق تطلّ فاترة البياض، لكنّ الضباب ما لبث كثيفا قاتما يجثم بردائه الداكن على الوهدان والجبال وغابات الفرنان والصنوبر.
سكب سطلا من الباء البارد على رأسه فأحسّ بعينيه تتفتّحان وانتعاشة تسري في كيانه. نظر إلى الأفق المترامي وهويفكّر في موعد الخميس ...
* * * * * * * *

تهتزّ الخصور والعانات على دقّات " البندير " وصوت " الزكرة " ثمّ سرعان ما تحتدّ مع الإيقاع نشوة وتخمّرا لذيذا يشعل النفوس..
هذا على رأس السلطان والسلطانة، على رأس المدعوين كبيرا وصغيرا !
قطع المائة مليم تموت وتختفي أمام الأوراق النقديّة من فئة الخمسة والعشرة دنانير..
الزغردات تعلو وتنخفض بحسب قيمة المبالغ ومكانة المتراشقين..
وقف السرجان وسط الباحة يحرس الحفل وعينه على الغرباء والسكارى. اليوم عرس صبيحة ابنته وعليه أن يجهّزها بنفسه.. سيكون فرحها حدثا تحكي به النساء والعوانس شهرا كاملا.. مهرها لن يقلّ عن الألف دينار وغربال من الذهب الأصفر..
دار دورتين ثمّ ضرب الطبل بعنف ومهارة:
هذا على رأس الزغردات ، على رأس أمّ السلطانة بنفسها !
في الواجهة الأخرى جلس موسطاش على " الفوتوي " الخشبي يرتدي بدلة جديدة ويضع رباط عنق أنيق.. بدا وجهه مشرقا وقد أحاطت به العيون وبهرته أضواء الفوانيس فلاحت شواربه محفّفة معقوفة كالسيف.. عليه أن يكون الليلة أكثر فحولة واغتلاما ، فهومنذ شهر يأكل عجينة اللوز والعسل مخلوطة بزيت الزيتون وماء الزهر.. لوجاءته الجازية بعينها لفتقها نصفين.. " الطيّاب " خاف منه هذا الصباح في الحمام !
كان ينظر إلى الجالسين بعين من التباهي والوقار لكنّ خياله يسرح بعيدا، سيعيش أحلى ساعات عمره وما أحوجه إلى أنثى تؤنسه في الليالي الباردة وتقيه قساوة الوحدة والعزوبة القاتلة ! تنتظره كما ينتظر كلّ نساء الدنيا أزواجهنّ كلّ مساء.. لقد ملّ حياة التشرّد والضياع والانتظار خلف الأبواب وتحت الأحواش.. هوالذي بات الليالي إلى الفجر وأوشكت الكلاب أن تدقّ عنقه، كلّ ذلك من أجل قبلة أوغمزة بسيطة لا تغني من جوع.. جاء فجأة طيف " هيلين " ، جميلة حلوة لكنّها مخيفة صغيرة النهدين، لعلّ صبيحة أحسن من ذلك بكثير فهويحبّ الأرداف الضخمة المكوّرة والعانات

الكثيفة ولا يهمّ الوجه أوالملامح، قلّما ينظر إلى فوق..لا شكّ أنّ صبييحة لحيمة الفخذين كما يتصوّرها. لقد تأمّلها يوم الخطبة واخترق بناظره اللحاف إلى تفاصيل الجسد، خدّاها تفّاحتان تغريان بالقضم..
قطع خواطره زعيق " الزكرة " وتواتر الإيقاع يهيّج الغرائز ويستثير الشهوات، ظلّ رتيبا متصاعدا تشحنه نشوة صوفيّة ترتجّ لها العظام والفرائص. تصاعدت دقّات "البندير" دفعة واحدة تتلجلج وهرج شيخ يتماوج وسط الحلقة كالمختبل ثمّ يلحس المنجل الأحمر بلسانه. تصاعد الجوّ أكثر فراح يتمرّغ على لوحات شائكة من الصبّار البريّ، يستغيث وينتحب وينادي بأوليائه الصالحين ويطلب المزيد.. تدور المبخرة تلسع الأنوف برائحة حادّة " وشق وداد في عينين الحسّاد ". طافت في الزوايا المظلمة ثمّ دخلت حجرة العروس حيث تجلس صبيحة وسط كوم من الفتيات والنساء تجمّعن حولها كالطوق. بدت على غلالة الأنوار الفسفوريّة شديدة البياض حتّى بانت العروق الزرقاء وتورّدت بشرتها، لكنّ تجعيدة حزينة وغيمة دمع توشكان أن تنهمرا.. كان الوهن قد مسح منها بعض من نضارة الشباب فتبخّر وتلاشى ذلك العنفوان لا سيما وهي بنت الثلاثين، إلاّ أنّ تحت شفافية" الماكياج " ظلّت جميلة القالب رشيقة القوام..
مازال النهدان نافران وعينان تأتلقان كالنار تحت العوسج ، ترنوان باتقادهما إلى آفاق بعيدة صمّاء..
يدور ويتلوّى، ينتصب ثمّ يجثم على ركبتيه مستنشدا " سيدي عبيد وأوليائه الصالحين ". التفت إلى القبلة ثمّ هوى.. عصبوا له رأسه ثمّ مدّدوه على حصير مغمى عليه. لقد غيّروا له " الطريقة " لكنّ ظلّ " البندير " يجلجل ويقرع الآذان متحدّيا..
تحت عريشة عنب هرمة تجمّع البعض في الظلام يشربون البيرة ويتطلّعون إلى النجوم، لا يرى إلاّ لمعان السجائر تأتلق كالمقابس أوبعض الضحكات العالية تفضح وجودهم.. أحلّ لهم السرجان ذلك ولكن في الستر فهوالذي اختار لهم المكان وزوّدهم بالأكل.. لعلّهم من أصدقائه المقرّبين ولا شكّ أنّ عمّار الروج والشيخ نايف من بينهم. السرجان انقطع عن الشرب من سنوات ولكن في مثل هذه المناسبات لا مانع من حضور البيرة والنبيذ لتكتمل الفرحة ويسعد كلّ الناس.
برغم برودة الشتاء كان القمر يغزل ألحانه الحالمة، يلثم القلوب العاشقة لسحر الحياة، بسدل ضياءه على النفوس الضامئة إلى النور، ظلّت العيون مشدوهة فجأة، كالحائرة تنتظر شيئا ما يرتجف لساعة من عمر الزمن.. ساعة حاسمة وليس ككلّ الساعات.
زاد نسق الإيقاع وعلت دقّات" البندير" حتّى اشرأبّت الأعناق وتسمّرت العيون واجمة إلى نافذة مسدلة الستار، شاعت في النفوس نشوة امتزجت بالخوف والهواجس..
لحظات فقط فاصلة وترقص" الحاجّة"ملء قوّتها ب"السوريّة " أمام الجميع، لابدّ أن

تمون الدماء كثيفة قانية حتّى يراها كلّ الفضوليين، شهادة على شرف العائلة ونقاوتها. " الحاجّة " تنتظر مثل هذه الليلة بلهف وجنون، هذه ليلتها، ستغلق الأفواه وتكمّم الألسن التي طالما لاحقت ابنتها بالكلام.
كانت النظرات مشدودة ناحية الباب المغلق، تعلوعارضته العليا صفيحة معدنيّة كنعل الفرس وعود من الشوك لطرد العين. ظلّت القلوب تنبض وفاتت برهة من الزمن. نزل شابّان إلى الحلقة يرقصان ويصفّران يضربان الأرض بكعبيهما فتتماوج الزغردات تثقب الآذان. ظلّ " البندير " وحده هوالسيد، ينسج بإيقاعه الشهيّ أمواجا جارفة من اللذّة الروحيّة تروّي ضمأ العذارى والعاشقين. ينفذ إلى الغرائز فيؤجّجها وإلى القلوب فيدغدغها للحظات فريدة من الدهر..
تحت غمرة من الانتشاء علا التصفيق يشجّع الشّابين على مواصلة الرقص. رائحة البخور الممتزجة بالعطور الأنثويّة زادت الجوّ اهتياجا، تصاعدت الأصوات والتهاليل ، كانت تشبه الصراخ ولكنّ الصراخ يتحوّل فجأة إلى بكاءات فجائعيّة ، إلى نحيب وزعيق حادّ. هرع الكثير يحتشد أمام الباب نصف المغلق، تزاحموا وتدافعوا بعصبيّة واختلطت الأمور وكأن الحفل قد دخل طورا من الهستيريا. "البندير" وحده يتكلّم بسخرية ولامبالاة، اشتدّ الصراخ وهوت أشياء من الزجاج وانزاح الستار فجأة وتوقّف الإيقاع هذه المرّة. صار الغضب يذكي الوجوه، تصايح الناس وتغامزوا.. البرعم مفصوم ! الريح تهبّ والطاحون لم يعد لها وجود ! الخيبة التي أخرست الجميع وجعلت الموت أهون من الحياة، في مثل هذه الحالات يستباح كلّ شيء، يصير رخيصا هيّنا على قيد أنملة واحدة..
بقي السرجان مشدوها، لم يدر ما يفعل، أحسّ بركبته ترتخي ولا تقوى على حمله، تماوجت الأفكار بسرعة عجيبة في رأسه وهدرت آلاف من الوساوس. لم يتحمّل البقاء في الخارج فهبّ داخل الغرفة وعيناه تأتلقان في حين ظلّ قلبه ينبض بشيء ما.
اختطفت نظراته فجأة شيئا عزيزا عليه معلّقا على الحائط، الغدّارة بفوهتين، منذ علّقها لم يمسّها أبدا. منذ أن عاد من حرب الكونغولم تداعب يده ماسورتها فألفى أصابعه ترتجف لفكّ زندها من جديد..
*** * * * * * ***

ظلّت البرودة تشتدّ حتّى تجمّد الماء وطفحت المستنقعات، ضربت رياح قويّة كالطوفان فهتكت الأشجار وأطارت ألواح القرميد، ما انفكّ إعصار الثلوج يعصف بالمدينة حتّى تعجّب الشيوخ وقالوا: ما رأينا شتاء كهذا منذ الحرب الأولى ! لم تصل البلدة إلى هذا المستوى من البرد، لعلّها " قرّة حيّان* " أو" قرّة العنز " كما يحلولهم تسميتها.. كانوا أحيانا يتوجّسون أمورا مبهمة عن غضب الطبيعة وقرب الفناء فيكتفون معلّقين: لقد انكشفت الدنيا وقربت الساعة ! يستذكرون أيّاما قديمة جفّت فيها موارد الحياة ونفذت المؤونة من المخازن فطبخ الناس النخالة والخبّاز وماتت الأبقار من الصقيع والجوع وباتت الذئاب تسرح في وضح النهار بحثا عن الدفء والقوت.

فرك علاّوة يديه ثمّ أشعل سيجارة فنظر إليه الحاجب بوجه كالح طافح بالعداء، كان حادّ الملامح والطبع كأنّه حيوان شوكي، لعلّه في نفس الوقت يضمر ندما على إدخاله وإلاّ لتركه ينتظر في الخارج. خاطبه بصلف وغلظة:

ألا تعلم أنّ التدخين ممنوع هنا؟ احمد مولاك أنّني سمحت لك بالدخول..

نظر إلى الهيكل الطويل عريض الأكتاف يقف أمامه، تلوح من عينيه فظاظة وحشيّة يخفيها بغلالة من الابتسامات الصفراء كلّما دخل واحد من المسؤولين، لم يقل شيئا، كان ذلك دأبه في كلّ أيّام الخميس عندما تمتلئ القاعة بالعاطلين والمزارعين وأصحاب المهن المؤقّتة يطلبون أجورهم أومقابلة أحد المسؤولين عندها يتحوّل هذا الحاجب اللّعين إلى حيوان سامّ بوجه بشريّ..

رآه علاّوة في الصباح فأيقن أنّ النحس يمشي في ركابه لأنّه سيسدّ في وجهه كلّ الأبواب ويختلق له الأعذار.. الحضائر غير شاغرة وثمّة من هوأحوج منه إلى الشغل..

دعس السيجارة بعد أن جذب منها نفسين ثمّ غمسها في منفضة خشبيّة كبيرة ملئت بالرمل تشبه مذود الدواب، كانت القاعة تغصّ بالخلائق التي جاءت من أقاصي القرى النائية تنتظر منذ الصباح، ذقون شائكة كالسمار وعيون متوهّجة. انشغلت الأفواه بالجوّ وموجات البرد القارسة والخنازير التي تنزل ليلا فتكسر شجيرات التفّاح

وتطيع بالعصيّ الصغيرة التي تسند إليها شجيرات الفاصوليا.. يتكلّمون ويثرثرون فيملأ بخار أنفاسهم المكان ويغطّي زجاج النوافذ.
يقف الحاجب فاصلا بينهم وبين الدرج الرخاميّ وقد بدت آثار اللطخ على أكمام زيّه العسكريّ ورتوق صغيرة بالخيط الأبيض على حافّة السروال الأزرق في حين تآكلت القبّعة واسودّت بطانتها وحوافيها بفعل الزمن. كانت البدلة " الميريّة " التي تمنحه مهابة وسلطة تجعلهم يخافونه. الأوغاد يغبطونه على هذه النعمة لذلك يرهقونه كلّ يوم خميس باحتشادهم كالدواب في قاعة الانتظار ولكم يجنّ جنونه عندما يراهم يجلسون
* القرّة: نقل حرفي عن كلمة: la guerre

على البلاط ويتركون الكراسي أويقهقهون بأصوات غليظة عالية. أحيانا يسبّهم ويصفهم بحيوانات الإسطبل لأنّهم لم يتعلّموا بعد كيف يحترمون الأماكن الرسميّة ويحافظون على النظافة والهدوء..
انساب هواء بارد من أسفل الباب قطع عن علاّوة سجومه، فرك عينيه ثمّ انتصب يسأل الحاجب:
هل سيأتي السيد المعتمد هذا الصباح؟
من الصعب أن تقابله هذا اليوم..
تأمّله وهويغلي من الدّاخل، تمنّى لويثب عليه فيعضّه من عنقه الأعجف ويوقف أنفاسه لكنّه آثر الصمت وكأنّه لم يسمع الجواب. دعس السيجارة على مضض وهوينظر إليه باشمئزاز. لا يحتاج إلى عثرات أكثر وما عليه إلاّ أن ينتظر، لن يخسر شيئا ، أيّامه تطرد بعضها هكذا كالطواحين الفارغة وأحلامه تفتر وتتباعد كلّما صادفته وجوه كوجه الحاجب الذي أمامه. بئس الحظّ الذي جعل حياته كمن يجدّف في سراب. هل كان من اللازم أن يفعل ذلك؟ تذكّر فجأة فكرة السفر التي راودته مرّة.. صورة الجواز الأخضر في لون السبانخ وقد أكلت دماغه أيّاما، العالم الآخر، ما وراء الأفق، عالم من الهوس والجنون. قالوا ستغرف المال بالأطنان وتدقّ الحسناوات بابك كلّ ليلة وكأنّك تلج جنان رضوان.. ثمّ استفقت فجأة من الوهم وعرفت أنّك وغد وإذا لم تكفّ عن أوهامك تلك فسينفجر ذلك الرأس الضخم أوتضرب به يوما على الصخر..
عندما أفاق من غفوته من جديد علم أنّه قدم منذ لحظات. يدخل من باب خلفيّ بعد أن يواري سيارته في المستودع. ثلاثة قرويين فقط ينتظرون قبله. البلاط الرخاميّ قد اسودّ لحينه بتراب الأحذية وبصاقات التبغ المتناثرة، قذفات صفراء من المخاط تتدلّى مع الحائط كالشرانق.
أمره الحاجب قائلا:

تعال أنت، لا تنس دقّ الباب قبل الدخول وانتظر حتّى يؤذن لك..
نبض قلبه وهويسمع كلماته ثمّ صعد الدرج حتّى بلغ بابا مغلقا غلّفت حواشيه بالجلد الأسود، أدار الأكرة النحاسيّة ثم دلفت نفحة هواء دافئة من الداخل وقد وجد نفسه في مكتب فسيح بسطت أرضيته بمفارش خضراء ناعمة، مكتبة ودولاب، تمثال أصفر من البرنز يلمع فوق الدولاب.
حدّق في الوجه الوسيم والعينين الكستنائيتين تملّى جيّدا حمرة الوجه ونقاء البشرة. قشرة المترفين المرتوية بماء النعمة والنوم الطويل، ظنّه في عقده الثاني لكنّه وجده شابّا يافعا مهيبا.
طلب منه هويّته ثمّ أضاف:
هل كتبت مطلبا إلى مكتب التشغيل قبل مقابلتي؟
نعم سي فرحات يعرف حالتي، ثمّ المساعدات التي أخذناها منذ العيد نفدت. أنت تعرف سيدي المعتمد أنّ لترين من الزيت وعشرين كيلوغراما من الطحين لا تكفي لكلّ هذه المدّة. وأنا العائل الوحيد لوالدتي وشقيقتي القاصرة..
أوشك أن يواصل كلامه ويفرغ كلّ ما بداخله من آلام لكنّه قاطعه مكتفيا:
أعرف، أعرف..
يده الرقيقة تخطّ أشياء على الورق الأبيض، ظلّ يتابع فقط رأس القلم المذهّب يمشي ويجيء، يرسم ثنايا الأمل المنتظر. هل كان مصيره فعلا متوقّفا على تلك السطور القليلة.
رفع رأسه قائلا:
اطمئن، لكن انتظر قليلا سوف يبدأ مشروع إصلاح الطرقات بعد انقضاء الشتاء.
كان جوابه مختصرا ولكنّه برغم ذلك أشاع في داخله أملا ما ينوس كالفتيلة بداخله، خرج دون أن يبالي بالبرد والبلل وحبّات البرد التي تسارعت تنقر الرؤوس والآذان.. لويظفر بالعمل وتسنح له الفرصة هذه المرّة سيرمّم الكوخ ويبني بيتا جديدا يأوي والدته وأخته الصغيرة، يشتري مذياعا صغيرا يقتل به وهن الليالي ورتابة السهر.. سوف تذهب والدته كلّ أسبوع تتسوّق وتأتي بأكاليل العاج وأساور النحاس لغالية وتملأ قفّتها مثل باقي النساء.. ولم لا يظفر هوبابنة الحلال.. سوف تزيغ إليه النظرات.. لا ينسى خيريّة ابنة عمّه التي شتمته لمجرّد أنّه غازلها ببضع كلمات صادقة.. الموقف الذي أكل قلبه عندما رفضته، تعرف أنّه لا يحمل جيوبا مملوءة ولذلك سخرت منه. خيريّة المسكينة التي تفلّي القمل ولا تعرف من الدنيا غير المطبخ النعجات تشتمه وتسخر من عواطفه ! تقيم الدنيا وتقعدها لمجرّد أنّه كلّمها ! آله ذلك " أنت علاّوة الهامل المتّسخ تكلّمني وتزعم حبّي ! " تمنّى لوصفعها عوض أن يقبل بالمهانة

ويسكت، لكنّه يعرف بينه وبين نفسه أنّه لن يفعل ذلك، طيفها يستبدّ به وبشرتها المصقولة كحجر الوادي ولعس شفتيها الشهيّتين يصدّانه عن ذلك.. كانت زهرة صبّار بريّة، جميلة ناضرة الشباب لكنّها تخز كلّ من يقترب منها فتدمي راحته وتأكل قلبه..
ما لبث الجليد أن كفّ عن السقوط بعد أن أحنى غصون الدردار وسدّ الميازيب وفي لحظة من الصحونفشت الطيور ريشها وانطلقت بحوافّ أجنحتها تتسرّب من تحت القرميد وتسرح في الهواء..

* * * * * * *

وقفت إلى النافذة تنظر في وجوم إلى إبر الجليد المتدلّية من حافات القرميد ولم تلبث الريح أن هبّت فنفضت عن الأشجار أطباق الثلج التي أحنت هاماتها في ذلّ وطواعية لجبروت الطبيعة. أخذت قطرات المطر تتساقط فجأة، تحدث أصواتا رتيبة من الميازيب داخل سطل من الحديد.. نقنقة دجاجة تبحث لتضع بيضة بمكان ما بالحديقة..
نظرت مريم إلى ضيعتها الصغيرة فوجدت أزهار القرنفل وأعواد السلق قد ردمتها الثلوج، منذ قدومها حرصت على رعايتها وسقيها كلّ صباح..
سكنها الحزن والضيق فراحت ترسم صورا وأشياء على بلّور النافذة من بخار أنفاسها.مسحت ثمّ كتبت بإصبعها مرّة أخرى: رائد ! أعادت مرّة ثانية.. ناداها الاسم من وراء الأفق الممتدّ وراءها كسراب، ما وراء السور، كتلة من الضباب الداكن تسرح في اليمّ الأزرق مطمئنّة هادئة. ظلّت غائبة في اللانهاية ثمّ تيقّظت فيها أحلام قديمة، أيام من الحبّ والانطلاق والعفويّة فأحسّت بأعوام الجامعة والعاصمة تناديها.. مدارج الكلية والمبيت وذكريات الثورة والعشق على العشب الأخضر.. كان رائد ذوالبشرة الورديّة والعينين الزرقاوين الكائن الوحيد الذي جعل قلبها ينبض بشكل لم تعرفه في حياتها. أعمى بصيرتها وسلبها لبّها ! أين هوالآن؟! ليته مات حتّى لا تفوز به أنثى أخرى غيرها ! الموت يبقى الترياق الأخير لكلّ حبّ مستحيل.. ربّما سافر بعيدا وهجر البلاد.. أشياء كثيرة تهدر في ذهنها وترسم الماضي غلالة متلاشية. ابتسامة ساخرة ترتسم على شفتيها وهي تستعيد فصول زواجها، زواج راكد يشبه الاستعراض السخيف.. حزّ في نفسها أنّها لم تبك ليلتها حظّا سيّئا خاصّة وأنّ صورة رائد ظلّت تلازم خيالها، تمخر دماغها كأنّها تؤنّبها.. مريم لم تسائل نفسها قطّ إن كانت تحبّ زوجها فعلا ! كيف قبلته ورضيت به في حجرة واحدة؟ كلّ ذلك فرط منها ولا تعلمه ولا تعرف كيف اقتنعت بسهولة بزواج تمّ وكأنّها مخدّرة أونائمة..

كانت مراسم العرس سريعة وكأنّها تستعجل دفن جزء من حياتها خارج الوجود، صوّروه رجلا طموحا من عائلة عريقة كعراقة الخيول الأصيلة، له مركز ومكانة ويضرب بأمثاله في الجدّ والصلاح، لا يدخّن ولا يشرب ويحافظ ى صحّته باستمرار، يمتلك " الفيلّة " الفخمة المطلّة على البحر و" الليموزين " التي تليق به ثمّ مع ذلك يقبل بمواصلة دراستها في الجامعة الحرّة ومتكفّل سنويّا بدفع تكاليف الدراسة..
انجرف قلب مريم في البداية وزيّنت نفسها صورته بشيء من المبالغة ولكنّ الشروخ والصدوع الغائرة ما تلبث أن تتقرّح وتتّسع من حين لآخر.
لم تتفطّن إلى أنّ زواجها صفقة خاسرة لا تنبت الحبّ والسعادة، تأكّد ذلك منذ أن سارت حياتها على وتيرة واحدة، ضاقت بها الآفاق الراكدة وسط المطبخ وبيت يعجّ بالأثاث.
في لحظات من اليأس اكتشفت أنّ ماجد كان حلاّ أعمى عن فشلها في دراستها في شعبة الحقوق وابتعادها عن أجواء الجامعة. لوبقيت مثلا لكان المنعرج مختلفا، وقتها لن تفرّط في رائد مهما كانت الظروف. أمّا الآن فهي منتوفة الأجنحة عاجزة عن تغيير مجرى التيّار الذي سار على عكس ما رسمته.. وممّا يزيدها ألما هوحظّ زميلاتها اللاتي لازلن في الجامعة يواصلن الدراسة وينعمن بأحلى فترات الحياة..
ماتت أحلامها أخيرا وزالت صورة الطالبة الصغيرة متوهّجة البشرة تتوثّب نشاطا ورغبة مضطرمة إلى الحبّ والحياة ! الجسم المصقول وسط سروال " الجينز " يمنحها سحرا أنثويّا يخسف عيون الملكات.. المشرب والعشب الأخضر.. أطياف من الصور تتوارد شفّافة كالليالي القمراء في مواسم الجليد، يعاودها الحنين والشوق مرّة أخرى وتتيقّظ أنوثتها الضامئة إلى دفء الحياة حتّى يخيّل إليها أنّها لا تزال طالبة..
أيّام اكتشفت رائد في الجامعة نبض قلبها واكتسح وهج عينيه كيانها فحملها إلى عوالم " لامرتين " و" بودلير" الشعريّة ثمّ خاضت أوّل قبلة واعنف حبّ قرأته في القصص والرّوايات. ذاقت حلاوة القبل حتّى صارت تترك المحاضرات والدروس وتخرج معه المساءات إلى السينما ، تبقى في حضنه حتّى تشتعل الأضواء فتقطع عنهم النهاية لحظات من الشرود والانتشاء.. في آخر حزيران منعت من إجراء الدورة الولى بسبب غيابها المتكرّر ثمّ فشلت في الدورة الثانية وودّت الكلّية نهائيّا في أيلول بعد أن استنفذت كلّ حظوظ النجاح، عزت فشلها إلى تشدّد الأساتذة وصعوبة الامتحانات ولكنّها نسيت رائد ! نسيته بالفعل لأنّها اعتكفت في قريتها الساحليّة واستحال تنقّلها إلى العاصمة، بدأت الشمعة تخمد بسبب الفراق.. تواردت أيّامها يطرد كلّ منها الآخر في هدوء وسكينة وبدأت تفاصيل الذكريات تتلاشى وتخبو، حلّت محلّها الحسرة

والأسى. كتبت إليه مرّتين ثمّ قابلته آخر مرّة بالعاصمة، كان فاترا ليس كعادته، فعلت فيه الأيّام فعلتها، بدا مرتبكا خاصّة عندما فاتحته بجرأتها المعهودة في مشروع زواجهما، المخرج الوحيد لوقف المأساة، أعلمته أن الابتعاد عن الجامعة وصعوبة الاتّصال به قد يقتلانها في يوم ما.. قد تفكّر يوما في الموت إذا ما استمرّت حياتها تدوربلا جدوى كطاحونة الريّح..

دواليب الواقع ومستوجبات الحياة كانت أعتى من ريح الطواحين.. اكتشفت الشرخ وضاقت سبلها لمّا اختفى إلى الأبد بعد التخرّج، سطع فجأة سي ماجد بحذائه اللامع زوجا للمستقبل، لم تستحضر بالتفصيل كيف عرفته سوى أنّها مازالت تحتفظ باليوم الأوّل للخطوبة، ربطة عنق وهدايا وأطباق من الحلوى وأمّها تقول مهنّئة:

مريم شابّة ومثقّفة وسي ماجد ابن عائلة محترمة يستحقّ كلّ خير..

سارت الأمور بنفس التخطيط خاصّة لمّا زيّنته أختها الصغرى كرجل طموح، وسيم ويمكن أن يعوّضها كل ما فات، سيظفر بعد شهور بمركز معتمد أوّل وستغوص مريم في الذهب إلى العنق. لعلّها في نفس الوقت تدرك في قرارة نفسها أنّها وقعت في هذا الحبّ بدافع الأسى وثأرا من الماضي. تمّ الزفاف على عجل بأحد النزل الساحليّة الفخمة، وليمة تليق بمركزه تراقصت فيها أضواء المشاعل والأنوار الخافتة وفرقعت زجاجات الشمبانيا والشماريخ الملوّنة، رقصت مريم على التانغومع فتيات دون العشرين يرشفن الويسكي بقفّازات بيضاء ويدخنّ المارلبوروبنهم. رحلت مع الأنغام بعد أن غلبها التيار ثمّ نظرت في الوجوه المهنّئة وقد اعتراها الخفر من هول الاحتفال. لم تنزح الحزن الجاثم في بريق العينين النديّتين فاعتراها نوع من السقم والقرف كالذي يصيب كلّ عروس.

لمّا ودّعت عائلتها في المطار بكت بكاء مرّا واحتضنت سيرين بعنف وكأنّها ستفارق الحياة.. كان يوما غائما حزينا لم تستفق منه إلاّ وهي تحلّق فوق جزر كرسيكا وسردينيا فتلاشت شيئا فشيئا تلك الكآبة الموحشة وحلّت الذكريات العذبة محلّ الأطياف الأليمة.. عاشت أيّاما جميلة في باريس فاكتشفت بلاد الجنّ وزارت المتاحف والمسارح وملأت عيونها بمظاهر الترف والبذخ الذي لم تتكن تتصوّره في حياتها. ظنّت أنها بلغت ذروة السعادة حتّى بدأت تراجع ثغرات عديدة في أوهامها القديمة، لكنّ الشروخ الدفينة لا تزال حارقة كالنار تحت الرماد.. تسائل نفسها في كلّ لحظة عن عبارات النشوة والحبّ والعواطف، يساورها القلق والاضطراب وأحيانا الخوف من المستقبل

وجدت مريم في الأيام الأولى لذّة وهي تصول وتجول في " الفيلّة " الواسعة المطلّة على البحر، كانت تعدّ النوارس كلّ يوم وتقف محدّقة إلى النقاط السوداء الغائمة تمرّ

وتغيب، تعاودها الأوجاع القديمة ولهفة السفر إلى الآفاق البعيدة لكنّها حين ترتدّ بخيالها فجأة تصفعها الحقيقة ثقيلة باردة ثمّ تلبسها الكآبة.. تذكّرت " مدام بوفاري " التي ماتت ضحيّة أحلامها لكنّها في نفس الوقت أرعبتها المقارنة ربّما فقط لأنّها أحبّت مرّة واحدة ولم ترغب في الفرار من واقعها إلاّ عندما فقدت الحبّ أمّا " إيما " فهي مغامرة تغرق نفسها في طوفان من الملذّات وتلعب بالرجال وتغيّرهم كما تغيّر قطع الشطرنج.. ظلّت مسكونة بهذه المقارنة المخيفة منذ اعتكفت في المنزل تصنّف المأكولات لسي ماجد وتغسل جواربه وتبابينه.. بكت كثيرا عن أيّامها الضائعة وأحلامها المتلاشية كرغوة البحر وسعت إلى استرحام نفسها بأن جرّبت الرسم والمطالعة وشراء التحف القديمة.. شغفت أيّاما بالتطريز فصنعت مفارش صغيرة مورّدة زينت بها الوسائد وقاعة الجلوس ثمّ غيّرت نظام البيت فأعادت ترتيبه بعد أن علّقت التحف ودوارق كبيرة عتيقة حوّل البيت إلى مسرح من الأشكال والزخارف التركيّة والإيطاليّة.. كانت في كلّ مرّة تبحث عن شيء جديد. تستجدي الأيّام أن تمرّ بسرعة حتّى لا تشعر بالملل وثقل الوقت.. اعتبرت حياتها رحلة حزن وأسى لا توشك تنتهي حتّى تبدأ من جديد. أحيانا يلهمها الشوق إلى الماضي فتفتح كتبا قديمة وفي أبعادها تسافر مع رائد والجامعة وأيّام مضت.. فترى عيونه تتألّق على صفحات " تشيكوف " السّاخرة تناديها وتمدّ لها نورا شفّافا يتلقّفها ويسرح بها بعيدا عن سجنها في "الفيلّة" والمطبخ وثرثرة وزجها التافهة.. أحيانا تخال نفسها قطعة من الأثاث أوالتحف الرخيصة التي زينت بها الحائط.. فهي تشبه الأرغن الذي يتباهى به الأثرياء للزّينة فيضعونه في قاعة الجلوس أخرس على مدى الدهر.

هكذا اكتشفت مريم أنّ السعادة وهم، يساورها القلق والاضطراب وبدأت تضيق بحياتها حتّى بدأت تكنّ له كراهيّة ونقمة، يزداد حنقها أكثر حين يبالغ في الثناء علي طريقتها في الطبخ ويقارنها بوالدته، بدأ السوس يحفر في النفوس وكأنّها تستفيق من غفوة. الغفوة التي كشفت لها طباعا سمجة منفّرة فإضافة إلى ثقافته السطحيّة كان يصرف همّه إلى افتكاك مقعد في البرلمان أوالظفر بمسؤوليّة حزبيّة تخوّل له الشهرة والمال.. لمحت الجشع والوصوليّة وكثيرا ما تصغي إليه يحدّثها بمبالغة كاذبة عن أعدائه الذين يتآمرون عليه ويصفهم بالهملة والرعاع. تحت غلالة المرح الكاذب والحرص على الواجب تقبع غلظة وحشيّة وخسّة مخيفتان..

بعد سنة من زواجها ودّعت الساحل بحكم وظيفته الجديدة وارتقائه إلى منصب معتمد أوّل، سعدت للنقلة المفاجئة في حياتها. إلاّ أنّ ظلال البسمة ما فتئت ترتسم حتّى عادت طواحين الشقاء تعصف من جديد ولعلّها هذه المرّة أعتى من الأوّل، فراحت الخيبة تهزّها من جديد حين علمت بنتائج التحاليل الطبيّة من الدكتور البلغاري ! كان قد

اتّصل بها في البيت هاتفيّا وهي تعدّ حقائبها قبل لحظات من سفرها، عندها تيقّنت أنّ البؤس لا يزال يلاحقها ويضفي بظلاله على مستقبل مجهول..

*** * * * * * * ***

أدارت مريم المزلاج ثمّ جذبته بقوّة حتّى اصطفق مصراعا النافذة في وجهها يحملان هواء باردا منعشا، سرت النسمات الثلجيّة تملأ الغرفة وكأنّها توقظها من الكوابيس.. مسحت ندف الثلج العالقة بالعتبة الصغيرة ثمّ شدّتن المصراعين إلى صاري الحديد حتّى لا تغلقهما الرياح..
على امتداد البحر العميق وشائج من ضباب داكن كثيف تنحدر على رؤوس الصنوبر وأشجار البندق المذبّبة ، فيتهاوى الليل ساكنا كسيفا بلا قمر.

أنا أتساءل كيف استطبت العيش كلّ هذه السنوات يا سي عاشور بين هذه الجبال؟ !
لا شكّ وأنّك قد تعبت في الأيّام الأولى !
سكت سي ماجد ثمّ أردف المنّاعي ساخرا وهويسكب زجاجة الويسكي على مهل:
لا شكّ أنّه قد مدّ عروقا كثيرة في هذه البلدة، ولولم يجد فيها مأربه لما رضي أن يبقى فيها ليلة واحدة !
ضحكا خوفا من أن ينزع كلامه منزع الجدّ والاتّهام فرجل كسي عاشور عليه أن يزن كلامه سبع مرّات قبل أن يتحدّث إليه ولوعلى سبيل المزاح.. والمناعي يعرف الكثير من المتهوّرين الذين أودى بهم صاحبه لمجرّد كلمة عابرة أوفذلكة رخيصة.
تناول سكينا طويلا وراح يقطع فخذ خنزير صغير بريّ حمّر وزيّن بشتّى أنواع البهارات والخيميات. لا شكّ أنّ الوليمة قد أعدّت خصّيصا احتفاء بسي ماجد الذي حلّ لأوّل مرّة بنزله المتواضع. أمسك الفرشاة وطفق يوزّع شرائح اللحم إلى صحون البورسلان البيضاء اللامعة عندها ردّ سي عاشور بعد لحظة من الصمت:
- أنا لا أرى فرقا بين عملي هنا أوفي المدينة، المهم أن يمون المرء مالكا بزمام الأمور ناجحا في مهنته، بل لعلّي قد تعوّدت على المناطق النائية والصعبة أكثر من غيرها فأنا لا أواجه المشاكل الخطيرة مثل التي تحدث في المدن الكبيرة والعاصمة، ولوأنّ هذه الأيّام بدأت بعض الأعناق تمتدّ وتثير القلق والاضطراب عندنا !
ثمّ أشار إلى المناعي مازحا:

أنت مثلا كنت ستوقعنا في كارثة وقلاقل عديدة لولا ستر الله وتدخّلي لصالحك ! أنت تعرف جيّدا أنّ موت ذلك التعيس ليس بالأمر الهيّن والسهل.وكان بإمكاني فتح محضر تحقيق واستدعائك طرفا في الحادثة لكن حرصي عليك من الفضائح يا منّاعي هوالذي منعني. أنا قد أمضغك أحيانا ولكن لا يهون عليّ بلعك دفعة واحدة لأنّك عسير الهضم !

ضحك سي ماجد عاليا للصّورة التي أنهى بها عاشور حديثه محملقا في غريمه يعيون حمراء كالكلب المحموم ثمّ بادر يحسم النقاش قائلا:

المهم سي المناعي أن تعرف كيف تتحكّم في عمّالك وتمتصّ غضبهم بذكاء، أنت تعرف ماذا أقصد. كما بإمكانك التعاون مع سي عاشور في حصر الشرذمة التي تحرّكهم وتحرّضهم على الفوضى. لا تتهاون بذلك فنحن لا نريد مشاكل، يكفي ما نحن فيه !

قال رئيس المركز بنبرة من الصرامة والثقة الواضحتين:

لا تخش شيئا أنا على اتّصال دائم بالكاتب العام للنقابة سي عبد الكريم، بحيث لا تغيب عن عيني كبيرة ولا صغيرة. هذا الصباح فقط أعطاني قائمة في بعض الأسماء التي تثير الشغب، ذكر لي أسماءهم وأحاطني بتفاصيل آخر اجتماع لهم.. فائز اللافي من الرؤوس المدبّرة لفكرة الإضراب.

وضع سي ماجد قطعا من الثلج في كأس من الويسكي ثم رفع الملقط بين يديه مشيرا إلى مخاطبه:

وماذا تنتظر لإيقافه؟ أنت لديك المعلومات الكافية !

اعترض سي عاشور بلباقته وخبثه المعروف:

لا أريد التسرع، فقط أريد أن أغضّ الطرف أيّاما حتّى يبلع الطعم فأجمع ما يلزمني لإدانته وعندها تكون الضربة القاضية لا يستفيق منها إلاّ بعد خمس أوستّ سنوات على الأقلّ..

كان بإمكاني أن أخرجه من بيته في ثياب النوم ولكن ذلك لا يجدي الآن فحادثة الانتحار لا تزال طريّة والعمال يشتعلون غضبا.

بدت المهابة على وجهه النحاسيّ وقد وقفت شواربه نافرة كالشوك تحمل ما علق بها من قطرات الويسكي فهوبحكم تجربته الطويلة في السجون والمراكز تشكّلت من عينيه الحمراوين صورة رجل مروّع وخبير بمهنته.

نفذت زجاجة الويسكي فطلب المناعي ثانية بعد أن عاد من المرحاض يغلق فتحة سرواله ويغمغم بكلمات غير مفهومة.

كانت المدينة ترقد من وراء الستار هادئة كالمقبرة.. أضواء الشبابيك الناعسة على واجهة الشارع اليتيم تنوس خافتة وتنعكس على الجليد. ظلّ سي عاشور يحدّق في المناعي وهويدعس السيجارة في المنفضة ثم سأله في خبث ودهاء:
هل يشتغل النزل جيّدا هذه الأيّام يا منّاعي؟ لا شكّ وأنّ الألمان يدفعون الإقامة والأكل" بالدوفيز" !
امتعض من سؤاله وأوشك أن يقول له كلمات نابية تلزمه حدوده إلاّ أنّه تمالك نفسه واكتفي يشكوويتذمّر لسي ماجد:
والله من يراني هكذا يحسدني على هذا النزل التعيس ويظنّني أكدّس الأرباح بلا حساب وأنا في الحقيقة لا أقدر على تعويض تكاليف الفواتير وأجرة العملة كلّ شهر، بدون أن أذكر لكم الضرائب وأشياء أخرى. أنت يا سي عاشور واحد من الذين يعلمون ذلك ويعرفون جيّدا مداخيل النزل وكساد السياحة خاصّة في فصل الشتاء.
ثم أردف مستدركا:
أنا في هذا الفصل أعوّل فقط على مداخيل الصيد أوتصدير بعض الفطريات ولولا ذلك لأغلقت النزل وبعدها يأتي الأوغاد ويطالبوني بزيادة أجورهم. يكفي أنّني أجدّد لهم العقود في الشتاء ثمّ يتحدّثون عن حقوق وسرقات والله أعلم لا أدري عن أيّة حقوق لهم عندي ! الكلاب لا يعرفون أنّي الذي دلّلتهم والتقطتهم من المزابل والمقاهي، جاءوا كالأذيال فصاروا رؤوسا بمجرّد ما شبعوا !
كان الزبد يتطاير من فمه من فرط الغضب وعلامات السكر لا سيما وقد شرب كأسين من الويسكي بدون ماء رمى بهما في حلقه جرعة واحدة. امسكه سي ماجد من ذراعه مهدّئا من روعه، ظنّ أنّ ثورته هذه لا تتعدّى خلافا بسيطا مع سي عاشور بل ربّما من تأثير الشرب فقال له:
لا تشغل نفسك كثيرا بمشكلة العملة يا سي المناعي فهي لا تستحقّ كلّ هذا الانفعال، أمّا النزل فأنت تعرف مردود السياحة في الشتاء في كامل البلاد، الوضع متشابه تقلّ نسبة الفرنسيين والإيطاليين مقارنة بالألمان والوكالات محدودة الإمكانيات، نحن لا نوفّر الموارد السياحيّة الكافية مثل بقيّة البلدان وحتّى نزلنا متواضعة مازالت تشكوالكثير من المرافق والتجهيزات.
راح المناعي يحرّك رأسه الأصلع موافقا ويتخيّل الصروح الضخمة التي رسمها سي ماجد عن العالم الآخر ويقارنها بنزله البسيط الذي يشبه الخان أو" الوكالة " التي تأوي الغرباء. كان يتذكّر أيّام الكساد عندما يقلّ عدد الحرفاء والمقيمين فيجلب لهم الأكل والشاي من المطاعم الرخيصة المجاورة حتّى لا يكلّف نفسه خسائر زائدة.

وتابع سي ماجد بلكنته البارزة عرض مشاكل السياحة وعوائقها، ثمّ ذكر آفاقها بشيء من التفاؤل والنخوة السياسيّة. بدا أحيانا ساذجا بريئا دخيلا على أشياء كثيرة يجهلها ولا يعر ف أسرارها. لواحتدّ النقاش قليلا بين المناعي ورئيس المركز لانفضحت الأمور وفاعت الحقيقة كالقيح ، عندها سيقيء عاشور ويخرج كلّ ما في وطابه من فضائح تضمن لصاحبه مؤبّدا في كلّ الحالات. لوزاد معه في الكلام لذكّره بالقحاب اللاّتي يقدّمهن لحرفائه الألمان وسجائر " الزطلة " التي يهرّبها من الحدود بمؤازرة أزلامه من الجمارك. كانت الشكوك قد حامت حوله أيّاما عديدة وتناقلتها الألسن وهمست بها الأفواه في كلّ الأماكن إلاّ أنّها سرعان ما اندثرت وطواها كتمان النسيان. هويعلم ذلك جيّدا ويتوجّس الخوف دائما من غريمه الذي أحاط بكلّ حيله وسرقاته وبإمكانه أن يقطع إليته في كلّ وقت، لذلك يحاول باستمرار كلّما جلس إليه أن يتجنّب الاستفزاز ويتكلّف الهدوء وبرودة الأعصاب.

قال له مرّة على انفراد وقد فاض صبره:

لم أر نذلا مثلك ! أنت تتعامل معي بخسّة وانتهازيّة، تشرب وتأكل مجانا في النزل ومع ذلك تهدّدني في كلّ مرّة بكلماتك السمجة وتتعمّد استغلال موقفي أمام الناس..

فردّ عيه عاشور ضاحكا وقد فوجئ بردّ فعله:

صرت تتكلّم يا ابن الزانية ! وهل تعتقد أنّ ذلك يكفي لسكوتي والتستّر عليك كلّ هذه السنوات؟! أنا أستطيع في كلّ لحظة أن أقطع عضوك وأبقيك في السجن متى أشاء لذلك أحذرك للمرّة والأخيرة أن لا تثير أعصابي. أنت تعرف ماذا يمكن أن أفعل.

الأمطار تتساقط في الخارج عبر أدراج الظلام وقد أقفرت المدينة من العابرين والمارّة وظلّت بضعة فوانيس يتيمة تصفع بنورها الخجل بياض الجليد. من حين لآخر تنتفض القطط مذعورة من حاويات المزابل ثمّ سرعان ما ترتدّ ثانية تغمس رؤوسها في بقايا السمك وقشور البطيّخ. نظر سي عاشور إلى ساعته وقد تثاقل وارتخى إلى مقعده يحدّق في نصف كأس أخيرة، فراح يعبث بأصابعه على حافة الكأس حتّى انقلبت وسالت على فخذيه، لم يبال بالحركة سوى أنّه اكتفى يمسح بيده الغليظة المشعّرة قطرات الويسكي التي لطّخت ثيابه. اعتذر وقد فطن إليهما يحدجانه بنظرات ساخرة فبرّر ذلك قائلا:

والله لقد أرهقنا الكبر وأنستنا المشاكل صوابنا ، لم يعد في مقدور المرء أن يطيق السهر والشرب كما كان سابقا. كانت تبدووراء نظراته القاسية ووجهه الأحمر تعاسة من نوع خاصّ. تعاسة تمتزج بالكراهيّة والشفقة تلوحان من ذلك العبوس والانقباض اللذين يمسحان أخاديد جبهته العريضة.

كان رغم اعتزازه بمهنته وافتخاره بنشوة التسلط والتفوق التي خوّلتها له طبيعة العمل، يشعر أحيانا بنفور ومقت دفين يأكلانه من الداخل. لم يكن يحسب يوما أنّه سينجح في ميدانه ويصير ضابط أولا وهوالذي حلم طول حياته بالدخول إلى كليّة الطبّ بعد اجتياز البكالوريا، لكنّ رأسه المفلطح لم يستوعب تعقيدات الحساب والعلوم ولم يقوعلى التركيز والإجهاد. ربّما لأنّه خلق لأشياء أخرى غير ذلك.. يتذكّر صوت والده يزمجر: " أنت تأكل وتروّث كالبهيمة، لا تصلح لأيّ شيء ! والله ما ينفعك إلاّ حمّالا وحتّى هذه لا تليق بها !

بعد سقوطه في الامتحان النهائي بقي أسبوعين لا يدخل البيت وأظلمت الدنيا أمامه وانسدّت السبل ولكنّه خرج بحقده الدفين على الشهادة التي باتت حلما مستحيلا.

* * * * * * * *

صفعته أنسام الجليد الباردة فظلّ واقفا يعبّئ أنفاسا أنعشت جسمه وخففت عنه غثيان القلس. لقد شرب الليلة كثيرا ودارت أمعاؤه من تأثير الويسكي ولحم الخنزير المحشوّ بالفطر. سأله سي ماجد:

أنت عصبيّ هذه الليلة أكثر من اللازم ! لا شكّ أنّ ذلك من فرط الإرهاق.

تجشّأ ثم قال:

بالعكس أنا لولا الشرب لما استطعت مقاومة الإرهاق، أحيانا أظلّ في المكتب طوال اليوم فأستنفذ زجاجة كاملة. لقد تعوّدت هكذا منذ زمن ومعدتي ألفت ذلك.

ضحك المناعي مستغلاّ الموقف وقد أثقل لسانه السكر فأردف بخبث واضح:

خاصّة عندما تجد ذلك مجانا !

حسب أنّه سينفعل لكلامه إلاّ أنّه اكتفى بالردّ عليه بدهاء مجرّب:

لا تعتقد يا منّاعي أنّك تقدّم لي صدقة، أنت تعرف فضائلي عليك لا تعادها زجاجة ويسكي أوغيرها. يكفي أنّي أتركك تفعل ما تريد وأغضّ عنك الطرف في أشياء كثيرة أنت عارف بها..

تراجع المناعي لمّا شعر بضعف موقفه أمام هجوماته التي قد تقلب عليه كلّ ما بناه أمام ضيفه العزيز. قال له مهدّئا:

أنا لا أنس ذلك، ولم أقل أنّي أتصدّق عليك..

خمدت الأنفاس وساد الصمت إلاّ من شقشقة الكؤوس، ظلّت العيون وحدها تحدّق في بعضها البعض. ضغط سي عاشور على بطنه وقد انحلّت ربطة العنق وزاغت عيناه فجأة فمال عن كرسيّه ثمّ جثم وراح يتقيّأ.

* * * * * * * *

لم يمض شهران على استلام علاّوة حراسة المخزن، كان يذهب عند الظهر ولا يعود إلاّ صباحا، أحيانا يكلّفه سي ماجد بتنظيف السيارة أوسقي الحديقة وبعض الورود التي زينت بها واجهة المبنى. في أيّام الآحاد يتسوّق علاّوة مع سيّده يشتري الحليب البقري والخضر ويبقى كامل الصباح في" الفيلّة " إلى أن يأذن له بالانصراف. لقد سعد بهذه الثقة خاصّة لمّا صار يدخل إليه بدون استشارة الحاجب أوالانتظار خلف الأبواب. وما لبثت شيئا فشيئا ترمقه بنظرات الفضول والحسد، ولكنّ ذلك لم يزده إلاّ ثقة.

كانت أيّامه الأولى عسيرة ومرهقة لأنّه لم يتعوّد السهر والنوم بعيدا عن فراشه، فالمخزن مكان جديد عليه يقضي الليل يحرس أكياسا وصناديق وفي الصبح ينصرف بعد أن يطمئنّ على سلامة ذخائره التي ملأت المستودع إلى السقف. فهي في جملتها أكياس من القمح والذرة رصفت فوق بعضها البعض ورسمت عليها بالأزرق يدان تتصافحان وكتابة بلغات مختلفة. أمّا باقي الصناديق فمعلّبات من اللحم البقريّ المستورد والأجبان الهولنديّة وأكياس صغيرة من الحساء المجفّف. وبرغم البرودة فإنّ المخزن يتضوّع بروائح حادّة تنبعث من أشياء همدت وتعفّنت لكنّ علاّوة يشعر في ذلك الخليط من العفونة بالدفء والأمان وسط البناء المستطيل الذي يشبه الصندوق. يرتاع في الأوّل كلّما سمع خشخشة الجرذان تقضم الأسمال وتتسلّل بين الأكياس لكنّه بمرور الوقت تعوّد حركاتها وسكن قلبه إليها.

في الليالي الباردة يعتكف في الدّاخل يدخّن ويسلّي نفسه بالذباب والفراشات التي تحوم على ضوء المصباح أويغمس ذهنه في الخواطر والخيالات على وسادة قذرة محشوّة بالألبسة والأسمال. أمّا في حالات الصحوعندما يطلّ القمر خجلا، يزيح سكّة

البوّابة إلى النصف ثمّ يجلس في العتبة يتطلّع إلى النجوم ويحذف القطط والكلاب السائبة.
ظلّت الأيّام الأولى جديدة عليه لم يحسّ إلاّ بمزيد من النشاط والسعادة الغامضة، لكنّه في بعض الليالي يسكنه التشاؤم والسويداء لا سيما حين اكتشف أنّ أحلامه التي علّقها على العمل والأجر الشهري باتت بعيدة المنال. بدأ ذلك الأمل يخبوشيئا فشيئا كما الفتيلة التي تقضم من حواشيها. لم يعد يفكّر في شيء آخر غير إطعام أخته ووالدته العاجزة، أوما سيدفعه من ديون آخر الشهر، لم يعد للأحلام مكان ولم يبق لها في دماغه من مذاق. أحيانا يتمنّى لوبقي عاطلا يغذّي خيالاته كما يشاء ولقد بات من الواضح في النهاية أنّ العوز والشّقاء يتبعانه حتّى وهوفي طريقه إلى القبر !
لحظة من الزمن وتتوقف تلك الآلة اللعينة ويرتاح من حياة عاهرة ! إنّها ليست أكثر من حياة حشرة أوقملة تافهة فلماذا خلقت؟! هل لتأكل خبز الذرة اليابس وتستدفء بروث البقر والبنوك تكاد تنفجر ممّا فيها من مال؟!
أسئلة حارقة تلسعه، تصعد تنهيدة من قعر الصدر ثمّ يترك رأسه يهوي ثقيلا على وسادة قذرة. تختلط الهواجس بالكوابيس والأحلام المخيفة فتعود فجأة الصور القديمة غائمة لكنّ بعض التفاصيل تطفوعلى السطح، الكوابيس التي تلاحقه من سنين ولم يجد لها تفسيرا وكم مرّة حاول أن يطردها من ذهنه حتّى لا يعاودها الحلم ! في المرّة الأخيرة رأى نفس المشهد، طفلا مراهقا لا يتخطّى السابعة عشر لم يدرك جيّدا تفاصيل المكان الذي يحلّق فيه ولا سبب وجوده هناك، يتذكّر فقط أعراش العليّق التي يختفي بداخلها وأمامه آكام من شجر الدفلى والقصب. ينقطع الشريط فجأة وتتوقف الصور برغم عنه ثمّ سرعان ما تعود وتقوده إلى حيث بدأ، نفس المكان، الوادي وأصوات أنثويّة ثمّ حركات ومداعبات.. في الأوّل تتراءى له كما الأشباح الغائمة ثمّ تصير هياكل آدميّة، لحظة فقط وتنكس المشاهد كالمرآة، يراهنّ في عنفوان الشباب يغتسلن عاريات كما خلقن.. لم يميّز عددهنّ وإنّما استطاع أن يقتنص بعض التفاصيل، نهود بيضاء كالشمع تنتفض وحلمات مورّدة كمناقير الحجل ثمّ الخال الأسود على وجنة إحداهنّ، لا يستحضر أين رآها! لعلّها هادية بنت عمّه ! فيها ما يشبهها حتّى الصوت.. إلاّ أنّه لم يفهم شيئا ممّا سمع سوى قهقهات وغمغمات وهنّ يشقشقن الماء بسيقانهنّ المصقولة كالرخام. ثمّ يصيخ فجأة إلى ما يشبه الغناء والمواويل القديمة تأتي خافتة وكأنّها من غور بئر سحيق. يستمرّ لحظات وهويملأ عينيه، يسبح في ملكوت الحوريّات والجنّيات، لكنّه سرعان ما يغدووحشا هائجا فتتيقّظ غرائزه ويزيح القصب ثمّ يقفز ويرمي بنفسه في الماء بكامل ثيابه. الغور عميق ليس له قرار.. يبحث عن التي رآها فيختنق ويبتلعه اليمّ.. لا يقوى على الارتفاع ويظلّ

يغوص ويذوب في الهوّة العميقة..يحاول أخيرا أن يصرخ..ثمّ.. ثمّ يستيقظ وهويتقاطر عرقا ورجفة خفيفة تهزّ جسمه..
الحمد لله أنّه حلم، تنتابه لذّة غامضة حينما يتفطّن أنّه نجا من الغرق والموت لكنّ اللغز يخيفه، اللغز الذي يكتنف هذه الصور التي لازمته طويلا..
*** * * * * * * ***
ضباب البكور ما يزال يحجب المدينة فلا ترى إلاّ الأشباح والحوانيت المغلقة وبعض المخابز.. كنّاسون يذرعون الأرصفة والشوارع، كلاب هزيلة ترفع أرجلها وتبول على العجلات..
انحدر في الشارع الملتوي يحمل سلّة البيض وسطل الحليب وقد سكنته سعادة غامضة كسحر الفجر. لفحته نسمات الصبح الثلجيّة فزادته تيقّظا ونشاطا، عرّج على بائع إلى اليمين باتجاه بائع الفطائر.. "لا شكّ أنّ سيّدتي تحبّها محلاّة بالعسل " وضع القطع النقديّة في كفّ الصانع تتقاطر زيتا ثمّ خرج. كان ضوء النهار مايزال يغازل حجب الأفق الداكنة وفي ساعة كهذه يقضي علاّوة صباحاته مبكّرا ليقضي حوائج سيّده فيقطع الخشب ويغيّر قوارير الغاز الفارغة ولكنّه لمّ يحسّ برغبة جامحة في ذلك كمثل هذا الصباح ! لعلّ النفس توجّست فالا وخيرا منتظرا ! من يدري؟!
يقولون إنّ التبكير يوقظ السعد ! اللعنة على السعد ! كم من مرّة يكتشف أنّه يعلّق فكرة كهذه في رأسه كالتمائم التي تزيّن بها صدور البله والمسكونين !
ها هي تعاوده مرّة ثانية نفس الأفكار ! يتذكّر قرن الثور والحروز التي يتبع بها العوانس والأرامل.. تتراءى له صورته شبحا مظلما مخيفا.. آه لويسمعه فائز اللافي ذلك اللعين ! لانفجر ضحكا وسخط عليه وشتمه بأبشع النعوت، الشقيّ كان لا يتراجع أبدا فيما يقول، تنزل كلماته كالسهام وتخرج من فمه مرصوفة بقوّة غريبة.. لا ينسى أبدا يوم قال له في شبه إهانة: " تعرف يا علاوة، الفقر والعوز ليس نقيصة في الإنسان وإنّما النقيصة الحقيقيّة هي الجهل والخرافة اللذان يعشّشان في أذهان الكثير من الناس.."
ثمّ قال كلاما كثيرا لم يفهمه ولكنّه وعى من خلال ذلك أنّه المقصود، المستهدف في كلّ ما يعنيه حتّى وإن كان يكنّ له ودّا خاصّا ومحبّة حقيقيّة..
تماوجت في رأسه الخواطر وهوينحدر إلى الشارع الضيّق وكأنّه يغوص في الأرض.انعطف نحواليسار ثمّ صعد درجات رخاميّة زيّنت بالفسيفساء الملوّنة ثمّ دفع الباب الخارجي. كانت قطرات الندى ما تزال عالقة بأشواك الحديد المذبّبة التي تحمي السياج. لفت انتباهه جمال " الفيلة " والنقوش التي حفرت على الأفاريز في الواجهة.. أزهار متنوّعة وبضع شجيرات آكاسيا وسروشذبت بعناية فائقة وذوق

رفيع.. أمام الباب الرئيسي وضعت مزهريتان كبيرتان من العاج غرست فيهما شجرتان من الصبّار البريّ ونباتات أخرى نادرة..
بدا له المكان وادعا مهيبا حتّى أنّه أوشك على العودة أدراجه، لعلّ سي ماجد لم يستيقظ بعد وربّما يكون التبكير في هذه الساعة مثيرا للإحراج ! في لحظة من التردّد تذكّرأنّ الفطائر بردت في يده فأدار مفصلات الباب الضخم ثمّ دلف إلى الدّاخل، سار طويلا في الرواق ناحية المطبخ كعادته. كان البلاط مفروشا فلم تسمع دقّات الحذاء ولا حتّى كيف فتح الدولاب والثلاجة. وضع السلة على طاولة مستديرة ثمّ همّ بالخروج وكأنّ دفء الحجرة يخنقه لكنّ صوتا أنثويّا لم يكن لينتظره قطع الصمت، جاءه من الداخل ناعما دافئا. قالت له في أناة وغنج:
صباح الخير، أنت الذي كلّمني في شأنك سي ماجد؟ هل وضعت الأغراض في الثلاّجة؟
رفع بصره وهي ماتزال تقفل أزرار "الروب دي شامبر" على صدرها العاجيّ كانت رائحة العطر تفوح من أعطافها وسحرها يخسف النظر برغم غلس النوم وانتفاش شعرها قليلا. بدا كالأبله ساجما، لأوّل مرّة يرى أمامه للّه مريم زوجة سيّده ! كانت الحجرة مظلمة، مايزال نور الفجر الفاتر يتسلّل عبر النوافذ والأبواب ولكنّه دقّق النظر فلمح فجأة ذلك الندى يلمع في العينين الكستنائيّتين ...
* * * * * * *
فرك يده طويلا وهويمشي ويجيء في الحجرة الضيّقة، همز المدفأة يدفع أعواد الخشب إلى الوسط لتأكلها النيران. كانت الساعة العاشرة. لعلّه يتّصل به هذا الصباح ! لا شكّ وأنّ الأخبار وصلته ! سيسأله ماذا فعل؟ وأين كان طول هذه المدّة والماء يجري تحت ساقيه؟
لوتدخّل أكثر من اللازم سيغلق السماعة في وجهه، لن يترك له الفرصة كي يعلمّه تسيير المنطقة وحلّ المشاكل.. كلّ شيء يسمح به إلاّ أن يدسّ أيّ كان أنفه في شغله وعالمه الخاص.
عاد من جديد يذرع الغرفة جيئة وذهابا وقد حلّ ربطة العنق وأزاح حمّالتي السروال عن كتفيه. توقّف فجأة وقد خطرت له فكرة. سيكلّمه بنفسه ولن ينتظر منه الأوامر والتعليمات ! ولن يركع إليه حتّى وإن فصل عن عمله أوترك البلاد.
خطا نحوالمكتب وسرعان ما رفع السماعة وركّب الأرقام لكنّه تراجع وكأنّ شيئا قد صدّه فجأة. عادت إليه تلك العادة الذميمة في التفوّق والاقتناع بدهائه وذكائه الخارق. بدأت تساوره الشكوك والتخمينات ربّما لوهتفت له أنا الأوّل لظنّ أنّي لست قادرا على حلّ الأمور بدونه. سأثبت له عجزي من خلال حاجتي إليه. لا عليّ أن أحترز من ذلك، سيفهمها بسرعة ولوكلّمته أكون غبيّا بالفعل كمن وضع الطعم لنفسه أوكاليمامة التي

تخنق نفسها بأظافرها عندما تكون في ورطة. سأنتظره حتّى يسألني هوالأوّل. في حالات كهذه تكون الأمور محسوبة وحتّى الشكليات تغدومهمّة حتّى في مجرّد ردّ التحيّة فغالبا ما يبدأ تفوّق الإنسان من أشياء بسيطة كترك الآخرين يبادرونك بالتحيّة أوالتغاضي بالنظر عنهم حتّى يحسّوا بتفاهتهم وبالتالي يركعون إليك صاغرين.
أحيانا تنقلب الأمور ولا تكون دليلا على الأفضل.
كان الغضب يلتمع في عينيه كالبرق وهويخيط الغرفة يمينا وشمالا ومع ذلك يستمرّ في المشي، راحته وشفاؤه كما نصحه الأطبّاء هكذا للتخفيف من آلام البواسير لذلك نادرا ما يرى جالسا إلى مكتبه.
دخل أحد الأعوان بصمت يضع رزما من الملفّات على الطاولة ثمّ انسحب دون أن يكلّمه ولكن بمجرّد أن اصطفق الباب حتّى رنّ الجرس مرّتين متتاليتين وكأنّه يستعجل صاحبه. انتظر قليلا ليغلق المزلاج من الداخل ثمّ رفع السماعة ببطء وكأنّه ظفر بما كان يأمله:
آلو! تفضّل ! أهلا سي ماجد، كنت أترقّب منك ذلك، كيف الحال؟ لاشكّ أنّك استمتعت بالسهرة يوالخميس الفائت؟
غيّر سي ماجد لهجته وكأنّه لم يسمعه:
كنت أنتظر منك مكالمة ولكن ليس مهما، ها أنا دائما أطمئنّ على أحوالك، لقد تركتك تلك الليلة تتألّم، لا شكّ أنّك أكثرت من الشراب !
قالها في شبه سخرية فأردف سي عاشور معتذرا:
والله أنا آسف على ما صدر في السهرة خاصّة مع المناعي، كان بلا وعي منّي ثمّ إنّك تعرف تورّطه في المشكلة وهذا أمر لا يحتمل برودة الأعصاب.
قاطعه بسرعة:
أنا لا أحاسبك على ما تفعل في شؤونك الخاصّة، عفوا إن كنت فهمتني خطأ ولكن خوفي من أن يعيق ذلك شغلك وينسيك أشياء كثيرة تفلت من يدك.
بدا وكأنّه يخترق منطقة محظورة وهوفي الوقت ذاته يهيئ نفسه للهجوم والانهيال عليه بمعاتبات سخيفة. كان في الأثناء سي عاشور يشتعل من الداخل إلاّ أنّه كبت غيضه وتظاهر بالهدوء وأنّه لا يفهم جيّدا فسكت قليلا يستجمع أفكاره ويرتّب كلماته استعدادا لوابل من الأسئلة. أضاف أخيرا سي ماجد مستنكرا:
أنا لم أقصد التدخّل في حياتك ولا أشكّ في إخلاصك وتفانيك ولكن لا تنسى أشياء كثيرة أحيانا صارت تفوتك. أظنّ أنّك تفهم ما أعني لا أستطيع أن أضيف أكثر.
حاول الهروب بشكل مفضوح من السؤال لكنّه آثر أن يفاجئه قائلا:

لعلّك تقصد جريمة القتل.. آه فعلا نسيت أن أخبرك ولوأنّه أمر لا يثير القلق، السرجان والد القتيلة عندي في المركز والغدّارة القديمة محجوزة ونوشك أن ننتهي من التحقيق.
أراد أن يضيف معلومات أخرى ويسترسل في عرض القضيّة التي لم تكن تشغل بال سي ماجد فقاطعه الأخير ببرود واضح:
أنا لا أفهم ما تقول، يبدوأنّنا لسنا في نفس الموجة من التخاطب أوقد تكون فهمتني خطأ من الأوّل.
بدأ يستخدم دهاءه هوالآخر عندما أحسّ بالمراوغة والهروب فسكت وتنحنح ينتظر منه أن يهتدي بنفسه إلى ما يقصد كالفراشة التي تطير من تلقاء نفسها إلى الضوء الحارق:
كان يعني بالتحديد مشكلة الإضراب الحاصل في نفس الصباح وتململ قطاعات كثيرة تساند أعداء المنّاعي، ذلك هوبيت القصيد لا غير فلا يحاول عاشور إذن أن يهرب من الإجابة وأن يعترف بالتقصير.
تواصل الصمت بينهما لحظة ما لبث خلالها عاشور إلاّ أن اعترف بامتعاض:
أنا لم أقصّر يوما في عملي ولا أظنّني أحتاج من ينبّهني إلى واجبي، أنت تعرف سيدي المعتمد كم لي من سنة في هذا البلد، ضحّيت بأشياء كثيرة أنا وأطفالي في هذه المدينة البائسة ولا أظنّ أنّي أستحقّ كلّ هذا اللوم والاتّهام !
سكت قليلا ثمّ أضاف مبرّرا:
على كلّ لقد أرسلت اثنين من أعواني لإيقاف اللافي وأنصاره.
فأردف سي ماجد أخيرا:
هل تعلم أنّهم هدّدوا بحرق النزل؟
نعم وأخطرني المنّاعي بأنّ الأوغاد اعتصموا منذ الفجر في الساحة وذكر لي شعارات خطيرة. أوقفوا العمل ومنعوا الدخول وأنت تعرف من مدبّر ذلك كما حدّثتك تلك الليلة. لكنّك تصرّفت متأخّرا على ما يبدو، وهذا أعطاهم فرصة تنظيم صفوفهم لإثارة الفوضى، آسف سي عاشور إذا قلت لك أنّ ذكاءك المفرط ربّما منحهم الوقت الكافي لتدبير الإضراب ثمّ الأخطر من ذلك ما كتب ليلا على الواجهات والحيطان، لا شكّ أنّ أعوانك ينامون باكرا !
كانت كلّ كلمة تخرج بنبرة حادّة وكأنّها لسعة أوطعنة توغر صدره فيقبض على السماعة بشدّة وتعتريه ارتعاشات غريبة حبست في فمه الكلمات ولم يعد يدر ي ما يقول. يعرف أنّ العصبيّة تفقد الذكاء وسداد الرأي فالعقل يصيبه الكسوف والسطحيّة عندما يسيطر الانفعال، ولهذا آثر بحكم خبرته وقوّة شخصيته أن يتكلّف الهدوء والرصانة الواضحتين فأجاب قائلا:

لعلّك تعرف سيّدي المعتمد أنّه ليست لديّ معلومات كافية في الأوّل لإيقاف اللافي وأصحابه وحتّى ذلك الغبيّ عبد الكريم الذي عوّلنا عليه لم يتفطّن إلى موعد الإضراب. ومع كلّ ذلك لا أتصوّر زمرة في حجم حفنة اليد أن تثير القلق والخوف. والأمور لم تنته بعد على كلّ حال وربّما سنحت الظروف أكثر لاستئصال هذه الأمراض من الجذور وقطع دابر الفوضى.

قاطعه في صرامة:

نحن لا نقبل بذلك إطلاقا خاصّة في مثل هذه الظروف، الإضراب من أساسه لا يجب أن يحصل. أنت تصرّفت بعقليّة المفتّشين وهذا خطأ أنت أوّلا وقبل كلّ شيء رئيس مركز، عليك أن تستأصل الجريمة من المهد لا أن تنتظر وقوعها.

تصاعدت اللهجة وكان في كلّ مرّة يزداد حنقا وسخطا يتخيّله أمامه ولكنّه يحمد مولاه أنّه يخاطبه بالهاتف وإلاّ لحصل ما لم يضمن فيه تحكّم الأعصاب.. اللعين بدأ يمدّ لسانه أكثر من اللازم، كان في الأيّام الأولى بمجرّد أن قدم يذبل عينيه كالمومس ثمّ نمت له قرونا شيئا فشيئا.. من يظنّ نفسه؟ ! ومن وكّله على شغلي؟! سوف يأتيك يومك وتعرف من أنا ! والآن لست غبيّا حتّى ألعب كلّ أوراقي نعك بهذه السهولة. سأمهلك طويلا لأتأكّد جيّدا، الذي يهين عاشور لم يولد بعد !

ظلّ يهمهم بكلمات محفوفة بالتوعّد والانتقام من الجميع، بدأ يفقد التركيز فقال كالمستسلم:

آسف يا سي ماجد، والله لم أكن أنتظر منك ذلك، وحتّى وإن اعتبرت نفسي مقصّرا، فهذا برغم عنّي. لست شمسا لأشرق على كلّ زاوية مظلمة في هذه المدينة اللعينة ! نحن نعتمد على عدد محدود من المخبرين ولا نستطيع أن نقتحم أدمغة الناس لنعرف ما يخطّطون؟ !

عفوا ! أنت تطلب منّي أشياء مستحيلة، أنا مثلك لم أتصوّر أمورا تحصل في قرية بسيطة ! العباد بدأت تمدّ أعناقها هذه الأيّام بعد أن كانوا نعاجا في الماضي ...والله ربّما لا تصدّقني إذا قلت لك أنّي أعرف أحيانا حتّى ما يدور في بيوتهم..

توقّف قليلا يستجمع أفكاره ثمّ قال:

حقّا لقد تغيّرت الأشياء من وراء ظهورنا ! ربّما لأنّ المنطقة كبرت وخرّبها النزوح والهوام التي تسرّبت من الوسط والجنوب..

كاد يواصل كلامه لولا أن قطع عليه المعتمد الحديث وقد خفّ بينهما التوتّر تدريجيّا: كلّ ما تقوله صحيح يا سي عاشور، ولكنّه لا يبرّر ما حصل. أنا لم أشأ معاتبتك- كما تسميّه - إلاّ لصالح عملك وخوفا عليك. ثمّ ألا تعلم أنّ العرائض المكتوبة تتّهمنا

بالتواطؤ مع المناعي، إذا أنت نفسك مستهدف وهذا كما قلت لا يستحقّ الانتظار والبحث كما تقول عن الأدلّة الكافية، كان من اللازم أن تدقّ الحديد ساخنا..
ارتاع سي عاشور فجأة للتفاصيل التي سمعها، وقفت سوالفه وتجعّدت أخاديد جبهته جعلت سحنته تتغيّر. غدا حيوانا مسموما تلوح من عينيه الغائرتين عوالم مظلمة من دروس الانتقام، وبخاطرة من الشرّ الذي سكنه فجأة، بدأ يتخيّل نفسه يقبض بيديه المشعّرتين على عنق اللافي ، ثمّ يعلّقه من ساقيه كالدجاجة المصليّة.. أراد أن يسترسل في تصوّر المشهد لكنّه تراجع.. لا هذا لا يكفي، لا يشفي غليله ولا يخمد ناره ! التعليق والصلب والطرق القديمة لم تعد تنفع مع هؤلاء المنحرفين الجدد، هم يعرفون ذلك.. سيبول عليهم ويجلسهم على الخازوق واحدا واحدا ! اللافي ابن الزانية يتحدّاه ويحرّك بلدا بأسره ! يتعمّد ذلك ولا يخشاه!كم ركع الكثير أمام قدميه وقبّلوا حذاءه خوفا ! وهذا الأكوع يتطاول على الجميع ولا يربأ بشيء ! اللعين، لا أدري من أين يستمدّ هذا التأثير على الناس وهذه الشجاعة التافهة؟! ستحين ساعتك وسأحلق شواربك الزعراء على اللهب وترى من منّا الفائز؟
قال له وقد تملّكه الجنون والسخط:
تبّا لأولئك الأوغاد ! المنّاعي يحشرنا في المشاكل ونحن نتولّى حلّها !
ثمّ استدرك وكأنّه يعدّل من لهجته عندما تفطّن أنّه يخاطب المعتمد وليس شخصا آخر:
يبدوأنّ أشياء غريبة تحصل كلّ يوم في هذه المدينة المحفوفة بالألغاز، ولم نعد نعرف ماذا يخبّئه المستقبل !
وبزلّة لسان منه أردف بسرعة:
حتّى الحمّامات العموميّة لم تسلم هي الأخرى من الفساد والمشاكل ! آه عفوا ! صرت أهذي وأحكي لك عن تفاهات لا شأن لها.. والله أحيانا يفقد الإنسان صوابه ولكن اطمئن يا سي ماجد، سوف تصلك أخبار سارّة بمجرّد أن يقع اللافي بين يديّ وعندها سأتصرّف بطريقتي في إيقاف حمّى الفوضى المهم تمهلني قليلا حتّى أضبط بالتحديد أعضاء النقابة الذين حضروا الاجتماع وخطّطوا للإضراب.
أنهى كلامه بسرعة فائقة وكأنّه انتبه إلى الخطأ الفادح الذي ارتكبه، ما دخل الحمامات في موضوع الإضراب؟! ولماذا ذكر هذا الآن؟! الظاهر أنّه بدأ يلغوويقول أشياء خارجة عن الموضوع.. فعلا لقد كبرت يا عاشور وصرت تفقد أعصابك بسرعة !
فلماذا لا تمهل الأمور إلى أن تحين ساعتها؟ ثمّ من قال لك ذلك؟ ومن أين لك الحجّة؟ فهل تصدّق الفرجاني بتلك السهولة؟ ! ألم يقل لك أنّه سمع عن غيره؟ ومن أدراك أنّه لفّقها لسيّده لنوايا مغرضة وأسباب تجهلها؟

حقّا لقد زلّ لسانك وخانك الذكاء هذه المرّة، وهذه علامات الكبر والاندحار.. كم مرّة ترى عجوزا يتصرّف بسذاجة الأطفال ! وها أنت تقترب من ذلك الطور التعيس، ذلك مصيرك.. لكن احمد الله الآن أنّ المكالمة انتهت دون أن يسألك عمّا يجري في الحمامات، وبصفة خاصّة في حمّام سيدي الهاني، ماذا كنت ستقول وقتها؟! وكيف ستبرّر موقفك؟ مع كلّ الأحوال ستحاول ذكر إشاعات مجهولة وتهرب من الإجابة ولكن لن تنجومن وابل الأسئلة التي قد تخطر بباله. وعندها ستفتح على نفسك واجهة جديدة لست في حجمها الآن. أوّلها سيسألك عن مصدر الإشاعات ويتتبّع الخيط إلى أن تذكر له اسم الفرجاني وعندها يندلع الحريق، إمّا أن تفوز برأسك أوأن تدوس بنفسك على اللغم الذي زرعته..

حذار يا عاشور أن تلعب بالنار ! صرت تضرب عشوائيا ومرّة سوف تهوي على قدميك بنفسك و إثرها لن تجد أحد، لن يساندك أحد، ستلفي ظهرك والحائط..

بقي ساجما يفكّر ويزن الأمور، لم يصدّق ما خرج من لسانه، أحيانا يرى أنّه أصاب وأخرى يحسّ بأنّه اندفاع، رمى الطعم في غير أوانه لكن مازال أمامه متّسع من الوقت كي يعيد الخيط إلى مكانه..

أحيانا أخرى تنتابه الكبرياء ويرى أنّه لم يخطئ، بل ربّما أحسن قولا و إلى الجحيم به ومن معه ! إن فهم أولم يفهم ليس مهمّا.. ستفعل تلك الكلمة في دماغه فعلها وسيعرف من خلالها أنّ بيته من زجاج هوالآخر وعليه أن يحكم لسانه في المستقبل عندما يخاطب واحدا كعاشور، لكن ليتركه الآن يفهم الأمور على طريقته ويعاني آلام الهضم.. سيتكلّف أمامه الحماقات ويطمئنه إلى أنّ ما تفوّه به كان خارج الموضوع ولا يستحقّ الاهتمام. وهكذا يتركه يأكل بعضه من الداخل ويعذّبه كما عذّب المناعي حتّى يأتيه جاثما ويمدّ عنقه للذّبح وحده.. وفي الحالات القصوى سيهرب من الموضوع، وقد ينكر ما قاله ويعتبر ذلك هذيانا منه.. ألم يقل أنّه مريض؟ ثمّ لنفترض أنّه سيسأله من جديد عمّا قاله في الهاتف، ألا يكون ذلك دليلا على الشكّ فيه؟ يعني أنّ الموضوع شغله ولم ينس منه شيئا.. وهذا وحده كاف على أنّ موضوع الحمامات يعنيه.. وله فيها ضلع ولا يستطيع وقتها أن يفلت من الشرك الذي يلتفّ حوله.. هكذا إذن تبدوالأمور واضحة وضوح الشمس وسيعرف بطول الوقت إن تركت تلك الكلمة في نفسه تأثيرا أم لا؟ لكن لينس الآن ما حصل ويتكلّف الحماقة، يخفي قواه في الوقت الحاضر حتّى يستأنس إليه ويتلهّى بالإضراب وأشياء أخرى وبعدها سيأتيه مطواعا ذليلا وقد ابتلع الخيط كلّه.

يا لك من داهية يا عاشور ! وكيف خطرت ببالك هذه الحيل؟! فعلا أصاب صعاليك البلدة عندما لقّبوك "رمبو" أوالثعلب أحيانا ! أنت لا ينقصك شيء عن الآخرين وقد

تكون فرصتك لتصبح ملازما أعلى مرتبة مما أنت فيه، أوينقلوك إلى العاصمة لتشتغل في ظروف أحسن، لا سوف ترتقي رئيس منطقة عندما يتأكّدون من كفاءتك في العمل وحسن إخلاصك..

*** * * * * * ***

بقي غارقا في خيالاته حتّى دخل عليه عون صغير السنّ أنمش الوجه، حيّاه بأدب ثمّ قال:
آسف سيدي، منذ الصبح لم نستطع كيف نفعل مع ذلك الرجل !
ردّ عليه باقتضاب:
من تقصد؟
السرجان بشير، لقد أطبق الدنيا وأقعدها في غرفة الحجز، ظلّ يضرب الباب ويصرخ، لوتركناه سيحطّم الباب ويقلب علينا المركز.
هل نزعتم له الحزام وخيوط الحذاء؟
نعم ولكنّه سيّدي منذ ساعة سمعناه يصرخ ويضرب رأسه على الحائط، أحيانا يقول كلاما غير مفهوم
اتركه يفعل ما يريد، ويحسن فعلا لويحطّم رأسه.
اندهش العون فأردف قائلا:
ولكنّه سيقتل نفسه سيّدي !
أحسن ما يفعل، ماذا يهمّنا نحن من ذلك؟ بالعكس، سيعفينا متاعب التحقيق ووجع الرأس.
بقي الشرطيّ حائرا وقد اندهش لما سمع، إلاّ أنّه لم يستغرب فيما بعد هذه القساوة والتطرّف في حلّ الأمور. حيّاه من جديد ثمّ خرج مسرعا، بينما ظلّ عاشور واقفا كعادته ينظر إلى النافذة ويتطلّع إلى البعيد..
لحظات ثمّ أخرج من جيبه مجموعة من الصور الفوتوغرافيّة، كانت المشاهد معادة ومتنوّعة في نفس الوقت كأنّها التقطت من زوايا مختلفة ولكن نفس المنظر. ظلّ يتفحّصها ويمرّرها ببطء بين يديه، كرّر العمليّة مرّات ومرّات ولكم اندهش فجأة حين دقّق صورة السيارة السوداء الراسية أمام حمام سيدي الهاني ، فهي تشبه في نوعها وحجمها سيارة يعرفها. رآها في مكان ما، الرقم الخلفي غير واضح وحتّى التكبير لم يوضّحه، فقط بعض الأرقام الغائمة لكن ثمّة العلامة التي تثبت أنّها سيّارة إداريّة. وهذا وحده كاف لتنفتح أمامه السبل.
*** * * * * * * ***

عزيزتي مريم:
.. لم أشعر قطّ بالانفعال العذب يتملّكني كمثل هذه اللحظة، لحظة الكتابة إليك.
أحيانا أعجز أن أسرّ للورق والكلمات معاني الحبّ، فتبقى الحروف دائما جوفاء لا تقوى على حمل المعاني السامية أواختراق المناطق الحسّاسة في الإنسان. عزيزتي مريم إنّي أكتب إليك وكلّ ما حولي يتنفّس اللذّة، يستحضر كلّ ذرّة من أنفاسك العذبة، يتخيّل طيفك وكلّ لحظة عابرة منذ لقائنا..أقسم أنّي أحبّك على الدوام وعزائي أنّي لوافتقدتك يوما أكون على مشارف الجنون أوالموت.
هكذا عزيزتي نفذ الصبر إلاّ أن كتبت إليك بعد أن ظفرت بالعنوان من نوال ولعلّي بذلك أكون قد خفّفت قليلا من العواصف التي جرفت كيان القلب

رائد إلى الأبد..

ألقت الرسالة إلى النار ثمّ حرّكت المدفأة وراحت تنظر إلى عساليج اللهب يتغيّر لونها وهي تتراقص في مهل. أحسّت وكأنّها تنتقم من ثأر قديم، لكن الشرخ لا يزال غائرا، ليس بتلك السهولة تدفن جزءا من حياتها أوتتناسى الذي جعل قلبها ينبض أوّل مرّة.. لماذا أحبّت رائد؟! ما الذي ساقها إليه؟ ثم لماذا خلق الحبّ من أساسه لتتعذّب هكذا؟ ! صحيح أنّها عاشت مع ماجد أحلى فترات حياتها ولكن في كلّ مرّة تسأل نفسها: هل أحبّت فعلا أم خدعت نفسها بالحبّ؟ !

تحاول أن تبحث عمّا يمكن أن يجعله مستحبّا لديها، لكنّها كلّما تأمّلته ازدادت نفورا واشمئزاز. في آخر مرّة قال لها كلاما جارحا ومهينا لمّا عاتبته على سهراته المتأخّرة، فخاطبها بغلظة:

ذقت النعيم الذي لم تحلمي به والآن صرت تتدخّلين في شؤوني، ثمّ من لي في البيت حتّى أخاف عليه وأعود باكرا؟

كان جادّا فيما يقول ولا يتورّع عن استفزازها كلّ ما سنحت الفرصة لذلك، يذكّرها بما فعله من أجلها ويقارن حالها بما هوقبل الزواج حتّى اكتشفت وانّه يتعمّد ذلك أحيانا. قالت له يوما وقد فاض صبرها:

أنت تذكّرني دائما بما أنفقته عليّ وعلى والدتي وكأنّي أتأكّد فعلا أنّك كنت تعتمد على ضائقتنا الماديّة !

غضب وصرخ في وجهها وهمّ بصفعها، شأنه كلّما تشاجرت معه، يعاملها بوحشيّة غريبة وينعتها بأنبى الألفاظ وما يلبث يذكّرها بعقارتها ويلعن حظّه التعيس على ذلك.

في آخر مرّة أعلمته بطلب من الطبيب أن يقدّم نفسه للكشف لأنّ التحاليل لم تؤكّد شيئا واضحا ونفى الدكتور احتمال أن يكون العقم طبيعيّا.

عندما أخبرته بالأمر، ثارت ثائرته وقلب عليها الطاولة وهي تنزع دبابيس شعرها حتّى ظنّت أنّه ثمل أومصاب بالجنون. قال لها والزبد يتطاير من فمه:

هل تسخرين منّي أنت ودكتورك الفاشل؟ اللعنة عليكما ! والله فكرة رائعة ! ثمّ من سمح لك بزيارته؟ ومن شاورت قبل الخروج؟

أمسكها من شعرها بقوّة وظلّ يجرّها ثمّ هوى بها على " الكنبة " حتّى أدمى حاجبها وهويصيح كالثور الهائج:

اسمعي، لا خروج بعد اليوم ووالله العظيم لويتكرّر ذلك في غيابي لأشرب من دمك ولسوف تعودين إلى أمّك عارية كما دخلت هذا البيت ! لقد دلّلتك كثيرا حتّى صرت تدنّسين سمعتي مع الأطبّاء وتنقلين أسرارنا إلى الناس !

تظلّ تبكي وتنشج وهي ترتعش خائفة ثمّ تتهاوى على فراشها تخنقها الغصّة والشهقات بينما يخرج هوغاضبا ليقضي ليلته خارج المنزل ولا يعود إلاّ فجرا.
هكذا ظلّت تنظر إلى حياتها كسرداب مظلم منذ أن اكتشفت خدعة الزواج والسعادة التي أوهمت بها نفسها وشيئا فشيئا بدأت تنتابها حالات من الوجوم والكآبة ، أغرقت في حمّى الأدوية المنبّهة وشرب القهوة والتدخين المفرط ثمّ ماتت فيها شهيّة المطالعة والرسم فأحرقت لوحاتها ورمت بالبعض في المستودع أمّا القصص فما تلبث تقرأ الصفحات الأولى حتّى ترمي بالكتاب وكأنّها تنظر بعداوة إلى كلّ من حولها.
يساورها الشكّ في كلّ شيء، ولعلّها أيقنت أنّ هؤلاء الكتّاب الذين يحوكون قصص الغرام هم أشدّ الناس كذبا وخداعا، فلماذا نكلّف أنفسنا عناء قراءة هذه الأباطيل؟! ثمّ من وكّلهم على عواطفنا؟ ومن سمح لهم بتعليمنا دروس الحبّ والعاطفة والوفاء وغيرها من الترّهات؟
ربما اكتشفت أخيرا كلّ الرجال وجوها مختلفة لعملة واحدة، بما في ذلك رائد ! لا يختلف عنهم في شيء ! لوكان صادقا في حبّه لظهر عندما خرجت من الجامعة أوحاول الاتّصال بها، ولكنّه تناساها وهذا أكبر شرخ في كرامتها. تلهّى بها سنوات من فترة الدراسة ثمّ لفظها ورماها كما يتخلّص من النواة. يا لهم من أوغاد ! اللعنة على هذا الشرق البائس ! فمهما أظهر الشرقيّ من العواطف والنبوءات فإنّ فكرة الجواري تبقى كامنة في جيناته بالغريزة. يدير ظهره متى يشاء. تظلّ مريم تبحث عن إجابات وأسباب لكنّها لا تمسك بطرف الخيط حتّى تتفطّن إلى أنّها تدور في حلقة مفرغة. يكفي أنّها واحدة من الضحايا . أليست تتعذّب الآن ولا أحد يبالي بهذا العذاب؟ ألا تمثّل " الفيلة " سجنا يطبق عليها من كلّ النواحي؟ ولكم تزداد اشمئزازا وقرفا حينما يبدولماجد أنّها سعيدة وأنّه قد حقّق لها الجنّة الموعودة ! الجنّة التي اقتضت أن تحرم من عملها وتحبس في البيت ! الله يسامحك يا سيرين أختي !
ظللت تهمسين في أذني وتثنين عليه وتنفخينه بطلا حتّى دمّرت حياتي ومنت الضحيّة وحدي ! جعلته أسدا وهويخاف من ظلّه ثمّ رحت تعجبين بدماثة أخلاقه وتربيته العالية التي تخفي وراءها أنيابا كأنياب الوحوش. فعلا لكلّ رجل أنياب لا يخرجها إلاّ عند الضرورة، فأيّ عزاء وأيّة تسرية تنفعني الآن لوعلمت بما يجري؟
لوعلمت أنّه يجرّني من شعري ويركلني شاتما والدي وأمّي ويعتبر عائلتنا قد لوّثته !
تنحدر دمعات حارّة مدرارة وهي تستعيد فصلا من حياتها وتفتح ألبوما صغيرا فترى نفسها طفلة بضفيرتين بين أمّها ووالدها، سيرين قبالتها وهي تصغرها بعامين.
الصورة حزينة وغائمة كالحلم ولكنّها تبعث فيها مشاعر الاطمئنان وتذكّرها بفترات متقطّعة متلاشية من طفولتها. المنديل المدرسي الواسع، وردتان من الورق تشدّان

الضّفيرتين ثمّ سوار من العقيق والمرجان الأسود.. ذكّرتها بأيّام جميلة، أيّام تخرج مع زميلاتها لجمع المرجان الرخيص من المقبرة الفرنسيّة ثمّ يتفطّن لهما الحارس فتهربن منه.. أطياف تتوارد كنشوة عابرة وأشياء أخرى..
حافظ عبد الهادي، والدها الذي حرص على تعليمها والإنفاق عليها بسعة وتفان. ربّما لكونه من المعلّمين القدامى الذين خوّلت لهم ثقافتهم المتواضعة دراية بشؤون التربية والتعليم. كانت التضحية الأولى أن عزم على إدخالها " الكونسرفاتوار " لتعلّم البيانووكان يدفع ذلك على حساب أشياء كثيرة رغم ضائقته الماديّة. وهكذا نمت لديها مكانة خاصّة للرجل الذي منحها بدون مقابل، كتلة من المشاعر تربّت عليها وتدفّقت فيها في مراحل النضج والبلوغ. لم تكن تخفي عنه شيئا من حياتها حتّى أسرارها الصغيرة. كان صديقها الأوّل قبل دخول غمرة الحياة ومرافقها الأمين وسط دروب متشابكة وآفاق غائمة في مستقبلها.
تتذكّر يوم أعلنت النتائج ونالت شهادة البكالوريا بامتياز كيف بكى فرحا وهويحتضنها ويعتصرها بين ذراعيه، لقد كبرت بسرعة ونما عودها. يتحسّس الجسم الطريّ الفارع وقد غلبته دموع الفرح. لم يصدّق أنّها ستحقق أحلامه وتتفوّق في دراستها وهي التي تمنّاها ولدا ذات يوم فأبت إلاّ أن تكون أنثى. لذلك أحبّها كما لم يحبّ قطّ وبذل عليها من حياته الكثير في الزمن العسير.
هكذا نشأت في جوّ من العطف والرعاية الخاصّة وتفتّحت شهيّتها للفنّ والأدب منذ أن انجذبت عيناها وهي صغيرة إلى تلك الأكوام الهائلة من الكتب والمجلّدات التي امتلأت بها مكتبة والدها. ولكم أغرتها يوما أن تفتح تلك الكتب في الرفوف العالية إلاّ أنّ صغر سنّها وقصر قامتها لم يخوّلا لها ذلك.

* * * * * * *

أغلقت مريم الألبوم على إثر سماع السيارة تدخل المستودع. لحظات ثمّ توقّف صوت المحرّك. مسحت دموعها بسرعة وقد بدا وجهها أمام " الكوافيز " شاحبا ولاحظت ضمور خدّيها وشعيرات كالزغب في المفرق يملن إلى البياض. شعرت بانقباض وسويداء وهي ترى فعل الزمن على جسمها الذي ما لبثت تعتني به طويلا وخسفت به عيون الرجال.
ما كادت تنتهي من تصفيف شعرها على المرآة حتّى سمعت وقع حذاء على المدرج الرخاميّ يقترب من الباب الخارجي. ثمّ ينفتح ويلوح سي ماجد بكسوته السوداء يحمل حقيبة ديبلوماسيّة ويمسك رزمة من الملفّات. بدت عليه سيماء الغضب والإرهاق فطفق يفتح ربطة عنقه ويزمجر بكلمات:

الكلاب يريدون تحطيمي ! كانوا يسرحون بالخنازير والآن صاروا يفهمون في السياسة وشؤون البلاد.
كان يكلّم نفسه حتّى أنّ مريم خشيت أن تسأله في الموضوع، فراحت تضع الصحون على الطاولة وتتسمّع بخوف لتتحاشى انفعالاته. لا شكّ أنّه سيقلب غضبه عليها لوفاتحته بالكلام لذلك بدت كاللاّمبالية. وبعد كلّ هذا، ما يهمّها من شغله؟ وإلى الجحيم هووأصحابه ! ألم يكن هوالذي اختار مصيره أوبالأحرى هذا المنصب؟! من يدسّ رأسه في السياسة ويبغي من ورائها الشهرة والمصلحة لا بدّ أن يتعثّر يوما ويكابد.
سحبت طبقا ساخنا من الدجاج المصلي من الفرن، بينما برز زوجها من الحمام يتقاطر ماء وقد آثر أن يبقى في " الكاب " كعادته. يشعر بارتياح كلّما تخلّص من ثيابه الرسميّة.. جلس إلى الطاولة وشرع يأكل في صمت في حين ظلّت ترمقه مشمئزّة وقلبها يتوجّس شيئا جديدا سيحدث لا سيما في مثل هذه الحالات حالات تظلّ فيها العيون وحدها تتأجّج بالشرّ والضّغينة، حتّى إذا ما حانت اللحظة المناسبة انفجرت القلوب بما فيها.
بادرها بالسؤال دون أن ينظر إليها:
هل قابلت الدكتور هذا الصباح؟
ردّت عليه باقتضاب:
مازال الموعد
ظلّ الصمت وحده قائما بينهما تقطعه دقّات الساعة الحائطيّة بشكل ساخر مملّ.
أحسّت مريم بانقباض شديد وهي تجلس إلى جانبه كالخادمة، تنتظر لتجمع الصحون. لم تتصوّر يوما حياتها بهذا الجفاف والمهانة وليس ثمّة ما يخفّف من آلامها، حتّى أنّ الأفكار السوداء بدأت تجتاح دماغها. كانت في الأوّل تسلّي نفسها بالتهام الكتب والمجلاّت وهاهي اليوم تجرّب " المورفين " ليلا كي تقاوم تلك الأفكار وتتغلّب على الانفعال. لكنّ عبير الخوف مازال يتسلّل إلى داخلها، يتوجّس لها مستقبلا مرعبا في طعم النظرات الباردة القاسية التي يحدجها بها.
الأهمّ أن تنتهي الرحلة وينفقع الدمل الذي سدّ أنفاسها. ما عاد لها أن تؤمن بالحبّ والعاطفة أوأن تقنع نفسها بالسعادة الواهية..
في حالات الصحوفكّرت مريم في الانفصال وأشياء أخرى..
الريح هاته المرّة ستكون طوفانا، ستجتثّ العروق وتلعب بالصفصاف والسروالعنيدين كما تشاء. لن يقف أمامها شيء حتّى الطواحين هي الأخرى ستكلّ من الدوران،

سترحي الفراغ وتهوي دواليبها. أحيانا ستمتدّ بعيدا، تخترق كلّ شيء، تحدث صدوعا حتّى في الحيطان والقلوب..
*** * * * * * ***

الأعاصير تشتدّ بلا رحمة والبلدة تشتعل، تأكلها نار الفتنة والغضب، وما يلبث الغضب يخمد يوما حتّى يعود من جديد، يعود ماثلا في الوجوه والنظرات وبخار الأنفاس وتنافر العروق.. كلّ ما هناك متخم بالحقد والضغينة. في آفاق أخرى ترتجف الأعماق، تنتظر إشارة ما، عابرة ليكتسح وهجها المكان. هكذا فجأة فعل الزمان فعلته، ارتدّ إلى الناس. لم تعد الرؤوس منشغلة بالبرد، صارت بالعكس تتضوّع عطر الجليد ولفحات الصقيع بعد أن كانت تهرع للاحتماء من أوّل رعدة.
يتكلّمون ويشربون كثيرا، الأعناق تلتفت لكلّ إشارة شاردة. الأفواه تهمس في سرّ وحذر لكنّها مكتومة بأشباح مثل الغسق.. قالوا عن أشياء توزّع ليلا تحت الأبواب.. كلام في السياسة يحمل أصحابه إلى غياهب الأنفاق والسجون.. لا يعرفون لماذا وكيف ومن وراء ذلك !

تظلّ الألسن تغزل الأساطير والحكايات وتصنع الروائح كما تشاء. لكن رائحة الخطر تنتشر وتمتدّ كثيفة مع كثافة دوريات الأمن وسيارات خضراء قاتمة.. وجوه جديدة.. خوذات وأحذية غليظة ومحلاّت تغرق في غير أوانها. بدت المدينة شبه خالية إلاّ من بعض القطط والكلاب لذلك في الأيّام الأخيرة ولمزيد استقرار الأمن أصدرت البلديّة قرارا بقتل الكلاب السائبة..

رغم كلّ هذا، ورغم الأشباح فإنّ الحياة في النهار لا تزال عاديّة وساذجة. المقاهي تكتظّ والناس يشترون ويساومون والمزارعون ينشرون محاصيلهم على الأرصفة.. كلّ شيء يبدوساكنا بسيطا.

قال عمّار الروج مخاطبا الشيخ نايف:

الدنيا تغيّرت يا شيخ ولم نعد نعرف ما يخبّئه لنا الغد؟ ! ألم تلاحظ قساوة هذا العام؟ والله ما رأيت شتاء نحسا كهذا !

تأمّله الشيخ وقد استراح لكلامه كالمنتشي:

لعلّها نقمة الله سبحانه على عباده، وهذا أوّل الحساب. الناس لا تبالي بما تفعل. بالله عليك هل كنت تتصوّر السرجان بشير يقتل يوما؟!

قال عمار في حسرة:

كان رجلا شهما، لم يقبل المهانة ولا العار ولكنه المسكين خسر عمره وخسرناه

لم يتمالك الفرجاني الصمت، كان يعبث بشواربه حتّى لسعته الكلمة، فالموضوع يهمّه والمقصود به صديقه وكاد يكون صهره لولا ما حصل. ومع ذلك تأسّف عليه كالمستسلم:

أجله هكذا وحظّي أنا أيضا يا شيخ ! الله يعلم وحده معزّة السرجان بشير في قلبي.

فكّرت في مصاهرته في الحلال لكنّ القدر ظالم.

واساه الشيخ نايف عن خيبته وراح يمنّيه بالزواج من ابنة الحلال بينما راح عمّار ينظر إليه في كراهيّة واشمئزاز. انفلت لسانه كالعادة:

هذا من أفعالك يا فرجاني ! أنت تخرّب بيوت الناس وها قد جاء دورك ! ستظلّ هكذا ولن تجد من تأويك حتّى من الأرامل والعجائز. العين بالعين وهذا جزاؤك ! ألا تتذكّر العائلات التي يتّمت أطفالها بعد أن وشيت بها إلى أسيادك؟

بدت موجة الانفعال تسكنه وقد زال خشوعه وأساه الظاهران فحذّره قائلا:

اسمع يا عمّار، املك لسانك فيما تقول ! أنا ما جئت هنا لأسمع منك الإهانات. أقسم بهذه " الشاذليّة " لولم تغلق فمك لأدّبتك أمام الناس !

أعرف ذلك، لم تأت إلاّ لنقل الأخبار لأسيادك، وإلاّ فلم تجلس معنا كلّ هذا الوقت؟ !هل هذا بحكم العشرة والصداقة؟ لا أظنّ ذلك. الأحسن لك يا فرجاني أن تختار طريقا آخر غير هذا.

ابتلع ريقه بامتعاض وغمغم:
أنت وغد وناكر للعشرة، ووالله العظيم لولم تحاسب على لسانك لكنت متسبّبا في أذاك.
أنت عارف ماذا يمكن أن أفعل !
لم يكترث عمار بالتهديد، ازداد هياجا وكأنّه وجد الفرصة السانحة ليفرغ حنقه مرّة واحدة، قال له في شبه سخرية:
وعارف أيضا يافرجاني، عارفك مخبرا حركيّا، ورثتها منذ كنت تغسل جوارب " موسيودالار " والفرنسيس. وأراك لازلت محتفظا بوفاء بنفس الصنعة. لا أظن ذيل الكلب يعتدل يوما، اللهمّ إلاّ إذا عثرت وعندها ستكون عاقبتك وخيمة !
رماه بنظرة قاسية، وقد أحسّ أنّ الكلام لا يجدي معه. تجعّدت جبهته وانقضّ عليه ممسكا بخناقه، ثمّ سرعان ما انتصب الاثنان والطاولة بينهما تئنّ مفاصلها. بدا شديدا فارع الطول أمام قصر عمار ففاجأه برأسين على أنفه حتّى قفز الدم خاثرا قانيا.
اشتبكا من جديد أمام الخلق الذي احتشد للفرجة. حاول الشيخ نايف أن يدخل بينهما ليفكّ عمّار الذي راحت دماؤه تتقاطر، لكنّه لم يفلح. ظلّ بين ذراعيه كالجرادة ومع ذلك لم يكف لسانه عن التوعّد والشتم.
يا ابن الزانية ! هذا أصلك نتن ! وهذه حقيقتك ! أنت النحس الذي دفعت السرجان إلى الحبس. والله العظيم لأعرّيك وأفضحك أمام الخلق يا راعي الخنازير !
هرعوا يفضّون المعركة ويمسكون الفرجاني الذي هاج وفقد صوابه. بصعوبة استطاع كهل أن يطوّقه بين ذراعيه ويدفعه مع الحائط إلى خارج المقهى. لوبقي لحصلت الكارثة وهشّم رأس عمّار بإحدى القوارير الفارغة.
خفّت العاصفة قليلا وهبّ النادل يجمع الكؤوس والأوراق المتناثرة:
صلّوا على النبيّ يا جماعة ! الله سيفنيكم من فوق وأنتم تأكلون بعضكم بعضا.
والله ما كان عليك أن تستفزّه يا عمّار، أنت تعرف مزاجه ثمّ احذره ولا تطرق أبوابا لا دخل لك فيها
غمغم وقد اشتعلت عيناه كالجمرة المتّقدة:
إنّه نذل، الحقيقة هي التي فضحته، يبيع أمّه من أجل مصلحته
ظلّ الشيخ نايف صامتا متفكّرا ثمّ لمّا سمع كلام عمّار حوقل وأسبل جفنيه متحسّرا:
والله والده كان رجلا طيّبا رغم أنّه عمل حركيّا. كان قوّادا للفرنسيس ولكنّه لم يؤذ أحدا. أنصحك يا عمّار أن تبتعد عن هذه البلايا.. من يدري ما يمكن أن يفعله ابن الحرام هذا؟
هدأت ريح العاصفة هذه المرّة إلاّ من قرقرة النارجيلة وغمغمات مبهمة ودوائر الدخان تلعق المكان..

ظلّ الخلاء يلتهم الأشياء، عمّار تغلي هواجسه. نال اللكمات ولم يردّ الثأر، لم يجد الفرصة، صدّوه ربّما خانته قواه أيضا. فعلا من أين له السواعد الحجريّة وهوالذي أكلته الأمراض وشقاوة الحضائر ؟ !
ما أشدّ المهانة على الرجال !
بقي يرتعش كالمحموم، مسح عرقه بكمّ المعطف ثمّ دفن غضبه في مرارة التبغ وهسيس الصمت..

*** * * * * * * ***

ينساب الليل كأنفاس المحتضر، يغزوبهدوئه أسرار القلوب وهيام الأحلام. في ساعة كهذه، يرقد علاّوة في المخزن حالما بالعيون، تنفذ فيه إلى النخاع فتضطرم أهواؤه جيّاشة كالفيض..
هادية جميلة، غامقة السمرة ، باسمة الوجه لكنّها لا تحمل نعومة مريم وزرقة عينيها، اللعنة على العيون الزرقاء ! لأوّل مرّة يرى عيونا بهذا السحر ! صحيح أنّ في مثل هذه العيون تسكن الذخائر لذلك يخطف الغجر ذوي العيون الزرقاء..
اجتاحته رغبة جامحة كالعشق، لم يستطع طرد طيفها من ذهنه فظلّ دماغه يعمل اكثر من اللازم. ولأوّل مرّة تتردّد في داخله أنفاس الحياة وتتبدّى الدنيا ورديّة على غير العادة..
إنّها ساحرة الجمال تلوي أعناق الرجال كعبّاد الشمس..
ضحك كالساخر من نفسه، ما أجمل الأحلام متلفّعة بأنوار النجوم الساهرة ! تعجّب كيف خطرت بباله خواطر كهذه ! ستقتلك الأحلام يا علاّوة وينفجر رأسك يوما داخل المخزن.. صرت تنظر إلى الأعالي ولا تبالي بقدميك التي قد تعثر فجأة..
رنا بإجلال إلى مهرجان النجوم الساهرة فوقه. هبّت نسمة رقيقة كنشوة الفجر. رأى السماء تطالعه بسيل من الأنوار الهائمة، أعجبه ترامي أبعادها وامتدادها الأزليّ.

جاءته الأشباح من جديد وعادت إليه العيون والأطياف. اخترقت قلبه بلا استئذان..
أنت مسكين يا علاّوة، توهم نفسك بالسراب وتثمل بنشوته، ولكنّك مقطوع الجناح، تعيس، تافه كالبعوضة. إن يأتي عليك التيّار يوما سيدعسك. كثيرون مثلك سحقتهم الكوابيس وجرفهم التيّار..
ارتجّت فرائصه وخيّلت إليه أصوات تناديه من الدّاخل، تتجاوب كالصدى، تستغيث وتنتحب. علت نبضات قلبه وقد ارتفعت الصرخات من كلّ ناحية. لعلّها قادمة من الخارج. اندفع يستطلع الأمر فلم تجاوبه إلاّ صراصير الليل وعويل الذئاب في التلال. مازال الليل مخضلاّ بأنفاسه والسماء ترقص بأنوارها المتلألئة.
تجلّى في عينيه الخوف. إنّه على وشك أن يرى أشباحا. دلف ثانية إلى المخزن وقد أخذته رعشة باردة،جال ببصره في المكان.. ماذا لويقفل المخزن ويقضي الليلة في البيت؟ لا شكّ أنّه مسكون ! الأرواح تحلّ في هذه الصناديق الضخمة والأكياس. الله أعلم ما بداخلها وكيف جاءت إلى هنا !
ظلّ في حيرة بين الذهاب والبقاء إلى أن جاءه الصوت واضحا، قريبا حتّى وجم قلبه. يقف في العتبة ولا يظهر منه سوى هيكل أسود.
انتصب علاّوة ممسكا بالهراوة لينقضّ عليه.. لا شكّ أنّه لصّ ينوي سرقة المخزن. هذه الأيّام كثر ا لسطو وشاعت ظاهرة خطف الدجاج والأرانب. بينما كان يتقدّم نحوه ليعاجله بضربة قاتلة حتّى تراجع فجأة. جاءه الصوت من جديد. صوت يعرفه وتعوّد سماعه منذ مدّة، بل يكاد يميّزه من بين آلاف الأصوات. قال له:
لا تخف يا علاّوة، لن آكلك ، جئت فقط أطمئنّ عليك. أنت من أحبابي.
مدّ إليه يد رخوة ناعمة فرجف علاّوة، غير مصدّق ما يرى وما يسمع، كان في ثياب النوم. قال مستغربا:
غير معقول ! أنت تأتيني إلى هنا..
وقبل أن يتمّ جملته بادره قائلا:
نعم أنا هويا علاّوة ! هل ترفض زيارتي؟ لا أظنّ.. أنت شابّ مهذّب مال إليك قلبي وقلت في نفسي: أنت الذي آنس إليه.. صبور وقويّ وفحل..
ضغط على يديه بعنف، لم يطلقها بل ظلّ يعبث بإصبعه كاللامبالي، حركة جنونيّة أحدثت ارتعاشة لذيذة غامضة في جسم علاّوة، ولكنّه فجأة لم يطق صبرا فسحبها بعنف وتراجع إلى الوراء. بقي ينظر مستغربا لا يدري هل هوحلم أم يقظة؟! هل الذي يقف أمامه إنس أم جان؟!
قال له غير آبه:
إنّي أحبّك يا علاّوة، أنت الوحيد الذي يستطيع مساعدتي..

همّ به فجأة وعلاّوة منتصب كالتمثال لا يعي ولا يتحرّك، ظلّت الأنفاس وحدها تعلووتهبط، يلهث يشهق وقد احتقن وجهه ثمّ ارتخى. صاح مسكونا بلذّة فظيعة خجلى في حين استشاط الشبح هيجانا وزادت عضلاته صلابة وقوّة. تمزّق الخيط أخيرا واختلّ نظام الأشياء.. انخرم العقد ونسي ما حوله، لم يعد له قيمة، نسي العالم والشرائع والقانون..
كان لذيذا بشعا مقرفا. غمغم وهوثمل بنشوة مقزّزة، مسح فمه. الكلب ينظر إليه بدون خجل ما أفظعه !
مدّ إليه لفافة من الأوراق النقديّة وخرج بصمت.
لم ينم علاّوة ليلته تلك، نزلت عليه حرارة غريبة وداهمه العرق، أحسّ بجسمه يفور ويغلي من الدّاخل. حاول أن يتقيّأ إلاّ أنّه قذف لعابا أصفر هلامياّ. بدأ يحسّ بألم كالحرق في الحشفة. السافل سيقتله. ما أبشع ذلك ! بكى علاّوة من الندم، ما كان يتصوّر تلك الفظاعة والحقارة..

* * * * * *

بانت الشمس فجأة من وراء الغيوم.لكنّ الرذاذ مازال يسفع الوجوه الناعسة. فرح الناس بالصحووخرجوا ينشرون جلودهم للدفء فدبّت الحركة في العيون. كانت لحظات من الهدنة مع الطبيعة وقسوتها وعربدتها الهوجاء. وشيئا فشيئا تشرّب الجوّ بزرقة صافية تنشد في سمائه مهرجان الضياء.
أيقظته أصوات رهيبة، شهقات ونواحات ما كان قد سمع مثلها. جلس فوق السرير يصيخ بسمعه للمجهول، يستجمع أفكاره ويستعيدها. الآلام لم تتوقّف. أحسّ بامتلاء في المثانة وأشياء تخزه في البطن. انتصب بثقل وراح يحدّق في وجهه في المرآة. رأى فيها صورا فضيعة مقزّزة، تخيّل المشهد بارتعاشات غريبة. لا يمكن أن يحدث ذلك، ولا يمكن أن يكون قد حدث. أوشك أن يدخل في المرآة برأسه، أن يبصق في الوجه ويلعن نفسه. لكنّه تراجع بمرارة واشمئزاز، كانت أطياف الحلم ما تزال مخيفة. البارحة رأى نفسه مكبّلا بالحبال وعملاق أسود يهوي عليه بسوط من عصب الثور، ثمّ لمّا أدمى جسمه وتعب، تناول سكّينا حادّا وجزّ عضوه.
الحلم كان بشعا حتّى أنّه نهض يتلمّس جسمه ويتحسّسه من أسفل وهويرتجف.
سكب على رأسه سطلا من الماء ثمّ ارتدى ثيابه بسرعة وخرج دون أن تفطن إليه والدته.

لمّا عبر الجسر، غمرته الحرارة ودفء الحياة، ودّ لويذوب في الأشعّة الراقصة أويستقرّ في تلك الجوهرة الحمراء إلى الأبد. ترامى إليه القصر القديم في الأعلى، لا يزال يشرف على المدينة، تطلّع إلى قرميده الناصع ومدخنته المذبّبة.
مشى ثمّ انعطف يمينا إلى سوق المحطّة، تذكّر اللفّة في جيبه فاكتنفه شعور بالمهانة والاشمئزاز. عدّها: خمسة عشرة، عشرين.. تكفيه شهرا كاملا لسدّ ديونه..أوشك في الأوّل أن يعيدها لصاحبها ولكنّه لم يعد يحتمل حتّى مجرّد رؤيته.. لم يكن يتصوّر تلك الفظاعة..
مرّ على السوق يخترق الزحام، لفت انتباهه حشد من السوّاح الألمان والفرنسيين تحلّقوا في انبهار مفرط حول شرائط من التحف الخشبيّة المعلّقة كالقدّيد. أشكال صنعت يدويّا، جذوع من الخشب مصقولة تحاول محاكاة بعض الحيوانات التي عرفت بها المنطقة كالخنزير والثعبان والغراب، بدت باهتة غريبة الأشكال والأحجام..
رأى علاّوة طفلا يمسك بتلابيب عجوز ألمانيّة ويستجديها الشراء " بدينار آخر ثمن يا مادام " ويشير بأصابعه العشرة مفسّرا المبلغ. أخذت منه مزهريّتين من الفلّين تحمل غصنا من السرخس واللّبلاب. قال شابّ يخاطب الطفل: " الألمان أكرم من الفرنسيس ، لا يساومون ويدفعون بسخاء، أمّا أولاد العكري فبخلاء الخراء من أستهم لا يعطونه للكلاب "
راح يغازل مؤخّرة السائحة الألمانيّة ويتبعها بأعين هائجة..
اجتاز علاّوة الزحمة ثمّ انعطف شمالا، قابله مطعم صغير قذر كتب على واجهته باللون الزرق القبيح " مطعم الرحمة ". تردّد في البداية لكنّة تذكّر أنّه من البارحة لم يذق شيئا، ظلّ يتقيّأ المرارة ولا يجرؤ على الكل. جلس في الأخير إلى طاولة ترتعد قوائمها ثمّ طلب صحنا من المرق ونصف خبزة. كانت الأفواه تجترّ من حوله في صمت، تمتلئ الأحناك وتفرغ بحركة آليّة تدفعها دندنة الموسيقى تنبعث من الجهاز:
سالم اخّي
آه يحرق بالنّار
آه قالوا حزّار
يا حليلي واي
مسح رجل صحنه بلبابة الخبز حتّى تركه أبيض ناصعا ثمّ شرب وتجشّأ قائلا:
"الحمد لله، الحمد لك يا ربّ"
لمّا خرج علاّوة، أحسّ بحيويّته تعود وزال عنه القرف وتلاشت فجأة الأشباح عن دماغه. مال نحومقهى الوردي لكنّه ما كاد يعتب إلى الدّاخل حتّى أمسكه مقداد بقوة من

الخلف. رجف وهويسلّم عليه بحرارة لم يقابله منذ مدّة، منذ اكتشف فائز اللافي صدفة. قال له مازحا:
نسيتنا يا علاّوة بعد أن ذقت النعيم. قالوا أنّ المعتمد الجديد يدلّلك أكثر من الآخرين ، حتّى الفرجاني نفسه.
ابتسم في امتعاض:
ليس صحيحا كما تقول، الوضع هونفسه، لم أجن من الدلال كما تقول سوى الشقاء وسهر الليالي.
غمغم ليقول كلاما آخر، غير أنّه قاطعه كالمعتذر، قدّم له شاباّ طويلا ضامرا يرافقه، عبد الهادي قيّم داخلي بالمعهد. عرف علاّوة من خلال لحيته الشائكة أنّه من المصلّين ، ربّما أيضا النبرة الخاصّة التي صافحه بها " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " ممدّدة ومشدّدة.
جلس الثلاثة، طلب علاّوة قهوة سوداء قويّة ومقداد خيّر شايا أمّا عبد الهادي فطلب كأسا من الحليب الساخن. علّل ذلك بإمكانيّة وجود موادّ مخدّرة في القهوة والشاي وبعض المشروبات المستوردة..
سأله مقداد في فضول:
هل صحيح يا سي عبد الهادي ما تقول؟ يعني أنّ جزاء هؤلاء مثل جزاء شاربي الخمرة !
تنحنح نخوة، ثملا بالمكانة التي بوّأته مرجعا للمعرفة واليقين ثمّ ردّ عليه:
نعم ما قلت، وأبعد من ذلك يا أخي أنّ شيخنا أبا فاضل محمّد الزهاوي - رحمه الله - أفتى حتّى في منع الموز والباذنجان والخيار لأنّ هذه الأشياء وإن كانت غير محرّمة فهي مكروهات تلتبس بما هوقبيح في عورة الإنسان.
سكت ثمّ أضاف:
المؤمن الحقّ يا أخواني هومن يحبس نفسه عن كلّ مغريات الدنيا وخاصّة تلك التي ترد إلينا من الغرب الكافر.
تعجّب علاّوة من طريقة عبد الهادي في تناول الأمور، ودّ لويسأله إلاّ أنّ مقداد آثر مواصلة النقاش فسأله في استنكار واضح:
وكيف لنا أن نستغني عنهم يا سي عبد الهادي. لولاهم لأكلنا القمل والأوساخ. ثمّ إنّ الله أعطاهم الثروة والقوّة ونحن في حاجة إلى ذلك.
امتعض عبد الهادي ثمّ نظر إليه بإشفاق. راح يتحدّث عن العهود الزاهرة للإسلام وأطنان الذهب التي سرقها الغرب عندما ضاع الإسلام ثمّ تنهّد وقال:
يا حسرة على عهد صلاح الدين وخالد بن الوليد وغيرهم..

كان علاّوة يصيخ بسمعه لعبد الهادي وقد طافت بذاكرته حكاية قديمة كانت ترويها له جدّته، تقول أنّ الغراب خان الوصيّة، رمى كمشة المال على النصارى وكمشة القمل على المسلمين عوض أن يفعل العكس.
ثمّ تستخلص الحكاية من ذلك قائلة:
هكذا يا ابني، أعطى الله لهم المال وأعطانا نحن القمل.
بدت المشابهة طريفة بين الحكايتين. نظر علاّوة بصمت لعبد الهادي بينما راح الآخر يعدّد مآثر الإسلام ويعيد على مسامع الحاضرين واقعة خيبر وذات السلاسل وحلول المعجزة دائما في خاتمة الحديث. تحوّلت الجلسة إلى خطبة يصول فيها عبد الهادي ويستعرض على الحاضرين حكاية السيد علي - كرّم الله وجهه - الذي سينزل من الغيب ويخلّص الكون من الشرّ والفساد.. أحيانا يعلّق بعض الشيوخ الحاضرين:
صدق الله العظيم..
قال شابّ يجلس في طرف المقهى:
هل يعني من كلامك يا سي عبد الهادي أنّنا منتصرون بحول الله على اليهود؟
تمتم الآخر ثمّ علّق مضيفا:
بحول الله بقوّة الإيمان
تحمّس الشابّ للنقاش ثمّ سأله في استنكار ساذج:
ولكنّنا لا نملك صواريخ ولا طائرات ولا عدّة عسكريّة مثلهم. لوأرادوا لسحقونا كالضفادع..
نهره عبد الهادي قائلا:
اسمع يا فتى، صلّي على النبيّ، لا تحشر نفسك فيما يعرفه الله خير منّا، استغفر مولاك وقل: " لن يصيبنا إلاّ ما كتب لنا "
غمغم كلّ من في المقهى بخشوع: صدق الله العظيم. بينما راح يلملم جبّته وهويستعيذ ويستغفر ثمّ دفع الحساب وخرج.
قال مقداد:
السافل يحسب نفسه عمر بن الخطّاب في زمانه. من يراه يظنّه على درجة من التقوى والعفّة. في السنة الماضية وجدوه يضع تلميذا صغيرا في حجره داخل المبيت ولولا تسامح المدير لكان الآن يقبع في السجن.
ضحك علاّوة وهويصغي للحكاية ثمّ أردف:
تعرف يا مقداد، الفساد والشذوذ عمّ هذه المدينة، وصلت العدوى إلى كل الفئات وخاصّة " المحترمين " منهم. لكلّ واحد شذوذه الخاصّ فلا تستغرب شيئا في هذا الزمن ولا من عبد الهادي نفسه.

قال مقداد مضيفا:
تصوّر أنّه عرض عليّ يوما كتابا في نكاح الصبيان ثمّ طفق يشرح لي جمال الذكورة وحسناتها. منذ تلك اللحظة عرفت أنّه إنسان مريض.
استغرب علاّوة وقد تملّكه شعور غريب، شبيه بما أحسّه البارحة. ما يفتأ يطرد عن ذهنه تلك الأشباح حتّى تعود ثانية. ها هومقداد يحكي له قصّة مماثلة، نسخة جديدة من نتونة وبشاعة هذا العالم. كان يشتم ويلعن في داخله، ما أنتنه وما أوسخه من عالم ! عالم تحكمه القحاب والمخنّثون، تراهم في النهار في ثياب أنيقة وربطات عنق جديدة أمّا بالليل تلفاهم يلهثون في إحدى الزوايا وراء نزوات رخيصة..
سأله مقداد وقد لاحظ شروده:
أراك تسرح في المجهول يا علاّوة، ليس من عادتك الصمت ! ألم تكن عاشقا مثلا؟ أن أخوك وصديقك وأعرفك لا تخفي عليّ شيئا ما بقلبك ! والله كنت واثقا وقلت في نفسي علاّوة سيختار بنت الحلال التي تعوّضه أيّام الشقاء والعذاب..
لم يتحمّل مزاحه وقد لاح القلق في عينيه فقاطعه:
أرجوك يا مقداد اغلق هذا الموضوع. قلبي الآن صار كمنفضة الرماد، ثمّ من أنا حتّى أفكّر في مثل هذه الأشياء؟ الحياة والموت صارا عندي يستويان..
تجلّت على ملامحه معالم الكآبة والسواد، انتبه مقداد إلى ذلك بسرعة فغيّر الحديث. بعرفه منذ أيّام الطفولة غريب المزاج، سوداويّا وها هي تعود إلى عينيه تلك الغلالة المتلفّعة بالغموض.
عزّ عليه أن يتركه منطويا في حزنه وأساه فراح يحدّثه عن مشاريعه وعلاقاته الجديدة، مغامرة ربّما تكون خاتمتها جدّ، هذه المرّة فرهودة بنت الحاج رمضان، لم لا تكون هي ابنة الحلال التي ستعمّر البيت. كان يعلم في قرارة نفسه أنّ علاّوة لا يصدّقه فيما يقول ولكنّه يفعل ذلك إيثارا للمزاح والخروج من جوّ الكآبة التي رآها على صديقه. قال له بنبرة جادّة:
وما الذي يمنعك من أن تتقدّم إليها؟
البنت ذات أخلاق وجمال ولكنّ أمّها الثعلب هي التي تضع العراقيل، اشترطت ثلاّجة وتلفزيون بالألوان أقسمت " والله ما يأخذها إلاّ بشروط " أمّا والدها فنعم ما سمعت منه قال لي: " خذها كما هي في ثيابها، لا أطلب غير أن أتخلّص منها وأرتاح ! "
افترّت شفتاه عن ابتسامة عابرة وهويصغي إلى الحديث ن ربّما قرأ في كلامه بعض الجدّ فجأة فبادره قائلا:
اسمع الطريق أمامك واضح، وما عليك إلاّ أن تقرّر الخطوبة. أنت تعرف العواقب..

أسبل جفنيه متفكّرا وقد أيقظته الكلمات، حفرت فيه ندوبا لا تلتئم، ثمّ سرعان ما تسلّلت إلى داخله ذكريات مترامية الأبعاد. هكذا فجأة هبّت رياح أيقظت البركان. أحيانا يغزوه الحنين فيتمنّى لويزور قبر صبيحة ويبكي ويطلب الغفران والسماح، ولكنّ الحنين يتحوّل خوفا مبهما يوشك أن يشتعل. إن يتمزّق الخيط يوما تصير الكارثة، ماذا لويتكلّم السرجان في الإيقاف أوتظهر بعض القرائن تثبت تورّطه في الحادثة ! لا شكّ أنّهم ينبشون ويبحثون في كلّ من له علاقة بصبيحة.. الفرجاني يضع عليه عيونا ويحدجه بنظرات قاسية. في كلّ الأحوال لا شيء يدينه الآن، وحتّى السرجان نفسه لا يستطيع أن يثبت عليه شيئا..

همس إلى صديقه:

إنّي أتوجّس شرّا ينتظرني، لومرّت قضيّة السرجان بسلام أكون قد اجتزت الخطر.وعندها أفكّر فيما بعد بجديّة. صدّقني يا علاّوة، أحيانا تخوّل لي نفسي الذهاب إلى عاشور والاعتراف بما حصل حتّى تنطفئ النار التي بداخلي. أنا لا أخاف السجن ولكن أخشى أن يقتلني العذاب الذي بداخلي، ينخر فيّ كالدمل. أعترف أنّي كنت سافلا ونذلا ولكن مهما كان الأمر سوغ أجد السبيل الذي يريحني ويريح ويوقف المعاناة..

صمت علاّوة وقد لاحظ اختلاج عينيه ندما وحسرة ممتزجتين بالخوف. ظلّ يتابع كلامه وهويلقي رماد سيجارته بدون شفقة على البلاط. كانت في عينيه هذه المرّة تلوح معالم خرساء من الشرّ والانتقام..

* * * * * * *

جلست زهيرة على المقعد الخشبي، تنسدل خصلات شعرها على كتفيها. ارتدت فستانا أحمر من" الدنتيلا" عاري الصدر وجلت رأسها بشال من القماش الشفاف الرخيص. بدت كثيرة المساحيق مفرطة السمانة وقد انتفخت منها الرقبة والخدّان. نهرها العون بغلظة أن تكفّ عن المضغ:

يكفي من المضغ يا بنت..... وإلاّ أدخلت فيك هذه العصا !

ارتجفت وانكمشت في مكانها، قرأت في عينيه شبح القساوة فظلّت تحدجه بنظرات باردة مستسلمة. في ركن آخر انشغل العون الثاني بتسجيل إرشادات لشابّ يقف أمامه كالعمود. يجيب على أسئلته في همس واقتضاب بينما ظلّت دقّات الآلة الراقنة وحدها تتكلّم في صمت مخيف، تجثم على صدر زهيرة حتّى كأنّها تنقر قلبها وتهدّ أوصالها.تعرف بغريزتها الكلبيّة أنّ المرور إلى الآلة الراقنة واستجوابها يعني أمرا خطيرا، يعني المحاكم والفضائح، يعني علامة في فخذها الأيمن تثبت انتسابها

إلى عالم المنحرفات..كلّ شيء متعلّق بما وراء الباب المغلق. متى ينفتح هذا الباب سيقف قلبها ! سمعت عن كثيرين دخلوا من هذا الباب ثمّ خرجوا يحبون ويبعبعون كالنعاج. صعدت إلى جسمها حرارة غريبة حتّى سال الماكياج على وجهها، سكنها الخوف والتفكير في السجن والمذلّة، شماتة الكافّة وفضولهم. المذلّة تهون أمام السجن..

نظرت إلى الساعة الحائطيّة، العقارب هي الأخرى تدور ببطء، تخزها من الداخل، لكم حلمت طويلا بنفسها تصلب على رؤوس مذبّبة كتلك العقارب. حدّقت في اللوحة العريضة كتب عليها بالخطّ الأسود الغليظ قانون العقوبات الخاصّ بالصيد البريّ.

ارتاعت لمّا سمعت دقر الباب وصوت ينادي:

قل لتلك الحجّامة تدخل..

تثلّجت أطرافها واشتمّت رائحة مقزّزة كالخشب، رأت وجها أصهب قسماته وافية التقطيع وعينين حمراوين سامّتين. طفقت تتوسّل إليه منذ دخولها وتطلب السماح، ودّت لوتقبّل يده لكنّه صدّها بغلظة:

لا تتكلّمي قبل أن آذن لك وإلاّ علّقتك كالدجاجة. في الليل تفتحين ساقيك وفي النهار تصيرين ملائكة.

نزلت دموع حارّة مدرارة ، ظلّت تنشج في صمت. فكّرت لعلّق يرقّ لحالها ويعفوعنها لكنّ الأسئلة جاءتها حارقة لا تنتظر شيئا:

من كان معك ليلة الجمعة؟ أظنّ الأعوان ضبطوا معك أشخاصا؟

بكت وهي ترتجف ثمّ ردّت:

إنّي في عرضك يا سيّدي، والله مظلومة، استقبلتهم تحت الضغط والتهديد، سامحني أرجوك هذه المرّة.

زعق فيها بشدّة ثمّ انتصب متوعّدا:

اسمعي تصرّفات المواخير هذه أعرفها ولا داعي للاستعطاف. أنا أطلب منك أسماءهم وإذا رفضت سأجعلك تنطقين من تحت لا من فمك.

ظلّت تتردّد وتغمغم في شبه همس، حتّى هوى عليها بوابل من الصفعات ثمّ لسعها بالسّوط فطارت حبّات العقيق من صدر فستانها وانتفش شعرها، جثمت على الأرض تحتضن ساقيه وتتوسّل إليه لكنّه ركلها وانهال عليها من جديد، عندها صرخت:

كانوا من الجمارك وأعوان البريد، البقيّة لا أعرفهم، صدّقني هذا كلّ ما أعرف..

سألها بمكر:

وفائز اللافي؟

أجابت بدون تردّد:

لم أسمع بهذا الاسم، لا اعرفه..
امسكها من شعرها بقبضة يده ثمّ دنا منها بوجه سامّ وهمس:
ستذكرينه في التحقيق وأمام النيابة وإلاّ ما خرجت من القضيّة سالمة. إذا أردت أن تتجنّبي الفضائح عليك أن تنفّذي ما أقول، انظري جيّدا إلى الصورة وسوف تتعرّفين عليه أكثر.
اندهشت ولم تصدّق ما تسمع، لم تفهم أنّ الأمر متوقّف على شهادة كاذبة، لا شكّ أنّ له مصلحة في ذلك، في عرف عاشور كلّ شيء مباح وممكن. ظلّت تتوجّس شرّا يأتلق من عينيه فسألته مستغربة:
ولكنّي لا أعرفه سيّدي، لم أقابله ولم أره، كيف لي أن أذكر شخصا أجهل حتّى اسمه وملامحه؟ !
خاطبها برقّة وخبث بعد أن تأكّد من ابتلاعها الطعم الذي نصبه:
- تقولين أنّه يتردّد عليك، يشرب عندك ويفعل أشياء أخرى.. ستحتفظين بهذا الكيس الصغير، عثرت عليه لمّا زارك آخر مرّة في البيت. سأجعلك شاهدة فقط وهكذا تخرجين من التهمة كالشعرة من العجين.
شمّت رائحة مثيرة للخطر وأشياء أخرى لا تعرف عواقبها، رأت أنّها تطرق أبوابا لا تعرف أغوارها وفي لحظة من الصمت دسّ لها الكيس بين نهديها ثمّ أدار أكرة الباب سامحا لها بالخروج.

*** * * * * * ***

تشرّب الجوّ بظلال رماديّة وراحت الريح تغازل الطواحين، تسفع الوجوه والقفيّ بضراوة وحشيّة، تحفر بأمواجها أديم الأرض وتطيح بالهامات. لم تستسلم الأخرى، ظلّت ترقص طربا، تدور أجنحتها كالهازئة. قالت وهي تركض مجنونة:
سأمطر التراب وأقتلع الدواليب. الأعالي والقمم تستهويني، أمقت من يعيش في حفرة متوارية.
قالت الطواحين كالمتحدّية:
سأنتظر حرارة نيسان وأرقص في شعاعه الأبديّ. سأنادي إشراقة النجوم في الليالي الحالكة وستكفّين عربدتك الهوجاء.
لم تبالي بغضبها فخاطبتها في ثقة وكبرياء:
الدماء الحمراء تثيرني، الخراب ووسوسة الموت في النفوس هما ترياقي. أنصبّ عليكم طوفانا يقتلع جذوركم ويذكّي العيون الحالمة ويسافر بالأحرار في أطياف

الأبديّة. قفي إن شئت في طريقي، سأكون إعصارا يجرف النتونة والفسولة وينتشل الجواهر واللآلئ فتنكشف الحجب وتصفو.
تطلّعت إليها كالحالمة، رأت السماء لامعة لازورديّة، أشياء حمراء تأتلق في الأفق. نادت بصوت مستغيث:
آه يا حلما ! يا حمرة الغسق المتلفّعة بالدّجى !

*** * * * * * ***

ترتفع الفأس ثمّ تهوي، ضربة واحدة وينشطر نصفين. شعر بانتشاء غريب، رغبة جامحة تدفعه إلى أن يكرّر العمليّة. لم يحسّ بالكلل بقدر ما اخترقته ارتعاشات غريبة وهوينزل على العمود الخشبي بذكرة الفأس فيتطاير نصفين.
بدا فائض الحيويّة وبان من العرض منبسطا كعمالقة الرومان. كان يوما مشمسا جادت به الطبيعة في فجر شتويّ فظلّت الأشعّة تطلّ حينا من سماء صافية وحينا تتلاشى وراء الغيوم.
وقفت مريم على الشرفة تتطلّع إلى الأفق البعيد، نظرت إلى السّاعدين الحجريين يرتفعان وينزلان بلا رحمة على السندان الخشبيّ فتهتزّ الأرض من تحتها. ظلّت تراقب المشهد بنوع من الجاذبيّة، عضلات مترعة بماء الحياة، سمرة غامقة ورأس ضخم يذكّرها بجدّها العملاق، كان يسعل فيرتجّ كلّ ما في البيت. لعلّها ترى صورة أخرى من عظمة جدّها في الخشونة والملامح الغليظة الجذّابة. تذكّرت أيضا يوم وقفت أمام " المفكّر " في باريس وراته من جديد في تلك الهالة من القوّة والتحفّز. لم يستهوها " رودان " بقدر ما استهواها جدّها العملاق الذي عاد من جديد. اكتشفت فيه تلك الكتلة الملتهبة من الرغبة والاندماج. ليس مهمّا الأسماء ولا من يكون " رودان " أو" باب الجحيم " بل الأساس أن تكون القوّة سيّدة مصير الإنسان. ماجد يثير فيها الشفقة

والتقزّز كلّما لمحت جسمه المتهدّل وبطنه المنتفخة، لم يبق من حلمها القديم شيئا ولا من حياتها مذاقا..
كالمستفيقة من غفوة الصبح، أخذت بفمها نتفا من أوراق الريحان ثمّ نفثتها إلى الأسفل نحوه، كرّرت ذلك مرّات فتتطاير الأوراق من أعلى الشرفة ثمّ تعلق بقفاه. لم يحسّ شيئا بل ظلّ منشغلا بنشوة عجيبة بقطع الخشب اليابس وترصيفه كالمتاريس أمام" الفيلّة ". لمّا تأكّدت من انشغاله تنحنحت بنعومة متعمّدة وسرعان ما مال نحومنعطفها، رفع عينيه، رأى مسربا يفصل النهدين ورقبة أرجوانيّة ملساء. افترّت شفتاه عن ابتسامة ثمّ حيّاها كالمعتذر:
صباح الخير سيّدتي ! العفولم أكن أعلم أنّك هنا ! لعلّ صوت الفأس قد أقلق راحتك وحرم عنك النوم؟
قطعت كلامه بلباقة:
لا داعي للأسف. دائما أستفيق قبل هذا الوقت.
مخدومك علاّوة، استقدمني سي ماجد هنا ولحراسة المخزن ليلا.
قالها وقد اختلجت عيناه وتضرّج وجهه لمّا توارت قليلا خلف الشرفة لترفع حصّارة نهديها.لأوّل مرّة يرى ذلك البياض الأملس كالشمع. تنغرز فيه الأظافر كما تنغرز السكّين في الجبن.أسبل جفنيه الغليظتين لمّا شعر أنّه يخترقها بنظراته فخاطبته في أناة:
أنت أصيل المنطقة بلا شكّ يا علاّوة؟
بدا ثملا وهويسمع اسمه على لسانها. ألفاه لأوّل مرّة ذا مذاق جديد وهويخرج من بين شفتيها. هوالذي اعتبر نفسه يمشي في ركاب النحس منذ نزوله من رحم شلبيّة وسمّوه علاّوة فبات العوز يزحف في أركان البيت بلا هوادة.
قال لها ثملا:
نعم، من عائلة بني خروص، أوّل قبيلة حلّت بهذه الجبال
سألته:
لا شكّ أنّك تعرف الصيد، يقولون أنّ أهالي المنطقة لهم خبرة في الصيد. هل عندك بندقيّة يا علاّوة؟
خاف أن يكذب ويتصنّع البطولة أمامها وهوالذي لم يخرج إلى الجبال إلاّ " نشّاشا " مع الألمان والفرنسيين فمن أين له أن يتعلّم مسك البنادق؟ نادرا ما يجودون عليه برصاصتين فيطلقهما عشوائيّا. بدا عليه الاضطراب فجأة. ماذا لويقول لها أنّه صوّاب ورام ماهر، يسقط الخنزير بطلقة واحدة والحجل طائرا ويشتمّ رائحة الأرنب شمّا.
استدرك وهويخاطبها معتذرا:

تركت الصيد سيّدتي منذ سنوات، لكن، لا أخالني نسيت ذلك. فأنا منذ أشهر قريبة خرجت مع بعض السوّاح أدلّهم على بعض المسالك والمناطق التي يوجد بها الخنزير.
ابتسمت ثمّ قالت وكأنّها غنمت شيئا ما:
كنت متأكّدة من ذلك. أنت فعلا من سيساعدنا، ستخرج معي أنا والفرجاني يوما تقودنا إلى الآكام الآهلة بالوحش والخنزير. الفرجاني أعلمني أنّك تعرف جيّدا المسالك الجبليّة وتحسن التصويب.
توقّفت قليلا ثمّ أردفت:
لن أنسى لك مساعدتك يا علاّوة !
فرح للفكرة وشعر بسعادة غامرة، لا يدري لماذا؟ ربّما لا يصدّق الآن ما توحي به إليه نفسه ! تبدّت الدنيا ورديّة واجتاحته قوّة غريبة أوحت له بأنّه ساع إلى النهاية، لا يدري هل لأنّه يقدّم مجرّد مساعدة أم لأنّه احتلّ منزلة خاصّة في العيون والقلوب؟ إنّه يهذي وليس أحلى من الهذيان عندما تستغلق حصون القلوب.. مهما كان الأمر، أنت تقدّم مساعدة يا علاّوة، ستكون لها خير دليل ومعلّم، لعلّك الأيل الوحشي الذي سيضحّي برأسه لأجل عيونها. تعلّق رأسك في غرفة نومها، لا شكّ أنّ رياحا باردة ستهبّ يوما وتحرّك مفصلات قلبها ثمّ تلين وتقبّل جبينك وتداعب رأسك الجامد المعلّق في الجدار. قال لها بلهجة شاكرة:
إنّي مدين لكما أنت وسي ماجد بأشياء كثيرة.
ضحكت فجأة، فبانت شفتان أيونتان وفم منمنم ممتلئ ثمّ قالت له:
ولكنّك تقدّم لي مساعدة وليس لسي ماجد ! ومن حقّك أن ترفض؟
كيف خطر ببالها هذا الأمر، أحسّ أنّه يواجه امرأة حادّة الذّكاء. تذكّر فجأة هادية التي تسبل جفنيها عندما يخاطبها أوخيريّة الباهته. ها هويكتشف طبعا غريبا من المهابة والصرامة تنبئان عن جمال وروعة عريقتين تحت تلك الشفافيّة من السحر تكمن قوّة ما لا يعرف سرّها. لا شكّ أنّها من نفس معدن وروح اللافي فعيناها تأتلقان مثله.وكلامها ينفذ بسرعة في النخاع. قطعت صمته لمّا خاطبته:
سأعطيك يا علاّوة ضعف ما تتقاضاه في عملك اليومي في المخزن. أنت تتعب كثيرا وتستحقّ ذلك وسوف أخبر ماجد بالأمر.
طفق يقسم لها أنّه ما فكّر في الأجر أوأيّ شيء آخر. قال لها:
يكفيني شرف خدمتك ولوفكّرت في الأجر لكنت ناكرا للجميل والنعمة.
ضحكت مندهشة:
لا بدّ وأنّ قناعتك لها حدود وإلاّ كنت توهم نفسك بسعادة ما. أرجوك لا تغضب من طلبي، ستكون لنا خير أنيس.

ابتسمت له قبل أن تتوارى خلف الشرفة. رنا إليها بإجلال فبدت باسمة الوجه لكنّ خلجات روحها مغلقة لا يعرف كنهها.
ما أجمل الكلام ولكن ما الذي تخبّئه النفوس؟!
هوى على الجذع بقوّة فطار في الهواء نصفين وطار معه رأس الفأس.

*** * * * * * ***

ظلّت البلدة كابوسا مرعبا، ترتجف في أعماقها الألغاز والألغام، تتحفّزان للانفجار واكتساح كلّ شيء. لم يكن في وسع الناس أن يفهموا بوعيهم البهيمي البسيط سرّ التكاثف الغريب لدوريات الأمن والسيارات الخضراء القاتمة. منع التجمهر والتجوّل ليلا، صارت الحانات تغلق عصرا، طلقات مجهولة تمزّق سكون المدينة الأحمق..يذرع الناس في الصبح يتحدّثون عن أشباح اخترقت الحدود، هربت دون أن يفطن إليها أحد..شخصيات سياسيّة مهمّة فرّت بميزانيّة الحكومة في أكياس وحقائب وتسلّلت إلى الخارج..لصوص وقعوا فجأة على مغازة الجربوع، المغازة اليتيمة الوحيدة في البلدة يملكها هذا اليهوديّ البخيل. لم يتمكّنوا من السرقة لأنّ الجربوع يبيت في المغازة وينام فيها سائر الأيّام..بعدها شاعت ظاهرة خطف الدجاج وتحويل وجهة البقر والسيارات.. حامت الشكوك حول عصابات مجهولة تنزل المدينة ليلا ثمّ ترابط نهارا بالجبال.
وهكذا باتت الألسن تغزل الأساطير والحكايات بطرافة وخيال غريبين. يقسم بعضهم أنّه رآه بأمّ عينيه ينزل السوق ويشتري حاجياته ثمّ يعود إلى مغارته في الجبل، يحلف أنّه رأى نابه الذّهبيّ وأصابعة الستّ التي تميّزه عن سائر البشر. في المناطق الجبليّة الصعبة يتفنّن الناس في ذكر حكايات العشق مع الجان والصبايا اللاّتي يحبلن من الرهبان. كان أبطالها من غير البشر، يرتدون البياض وينزلون مع الغسق يطلبون الغذاء والمتعة ثمّ يسرون مه الفجر كالسراب. هكذا ظلّت المدينة تدفن نفسها في

غيبوبة عميقة، تسرح في يمّ من الكوابيس والأحلام المخيفتين مؤكّدة ذلك بصلواتها وتعزيماتها..

* * * * * *

اختفى فائز اللافي فعوّضه أبوالشوارب، لم يكن من السهل عليه أن يشدّ العمّال وينفذ إلى أدمغتهم بتلك السّهولة والحماس، ولكنّه مع ذلك نجح في المهمّة، بقي يترأّس الاجتماعات السريّة والخطابات، يكتب اللوائح ويحضر المجالس التأديبيّة للدفاع عن رفاقه. قال لهم آخر مرّة: إنّنا نواجه مرحلة صعبة، الإضراب لن نتراجع فيه سيكون مفتوحا هذه المرّة حتّى يفلس المنّاعي ويرضخ تحت أقدامنا. لقد أطرد إلى حدّ الآن نصف العملة تقريبا ولم يقبل الجلوس معنا للتفاوض ولم يعترف حتّى بالنقابة. لذلك كما قلت لكم فإنّ المهمّة تبدوأصعب لا سيما وأنّ عدد المطرودين يزداد كلّ يوم. في كلّ الأحوال فإننا لسن وحيدين، عملة الخفّاف معنا، الحضائر والاسمنت والتبغ وقطاعات كثيرة عبّرت عن مساندتنا..

بدا سريع الانفعال ولاحت الكراهيّة بداخله، كانت كراهية متمرّدة خرساء لكنّها نابعة من شعور بالضيم والاضطهاد. أبوالشوارب كثيرا ما ينتابه شعور لممارسة ذاك العنف الداخلي كما يسميّه.شارف الأربعين ولم يتزوّج لا لشيء إلاّ لكونه يرى نفسه بلا قلب ولا عواطف، تكلّست مشاعره بمجرّد خروجه للحياة لم يعد في قلبه شغور أمام مشاكل الحياة ومتاهاتها. رغم ذلك كلّه فلقد مكّنته التجربة من مهمّته كقائد مسيطر على الجميع. قال عامل قديم يجلس في الخلف:

إنّنا نؤجّل الإضراب بما فيه الكفاية والمنّاعي يتمادى في الطرد التعسّفي والغطرسة !

تكلّم عامل آخر ظهر عليه أنّه من المطرودين الجدد:

لم يعد لنا ما نخاف عليه.. يجب أن نعمل فقط على تنفيذ أقوالنا وإلاّ نبقى في بيوتنا كالحريم..

امتعض أبوالشوارب وهوينظر إليهم واحدا واحدا كمن يجسّ نبضهم، وجوه كمداء، بالغة السمرة وعيون غائرة ترى من بريقها أنّك أمام نوع من الرّجال العصيّين المنهكين جوعا وانتظارا. لم يشأ أن يخالفهم القول أوأن يكبت غضبهم سوى أنّه أمرهم بالتمهّل وعدم التسرّع والحذر من تسرّب الخونة والمندسّين بينهم. أخبرهم عن الكاتب العام للنقابة، عبد الكريم الذي ينقل كلّ ما يدور في الاجتماعات إلى عاشور والمناعي. يسهر معهم ويخبرهم بكلّ التفاصيل.

قال لهم بلهجة صارمة:

إنّنا إذا لا نواجه المنّاعي وحده بل أعداء من الدّاخل من فئة عبد الكريم وطائفة من المخبرين. أمّا الإضراب فسنحدّد موعده لاحقا، يكفي فقط أن نختار الظروف المناسبة

لذلك. كلّ هذا يتوقّف على الفترات التي يحتاج فيها المنّاعي إلينا ومزيد من الساعات الإضافيّة ، عندها سيركع وينفّذ مطالبنا. لا أنسى في الوقت نفسه أن أذكّركم بما أشار إليه الأخ اللافي حول مسألة زميلكم ساسي، آمل أن لا تكون القضيّة مجرّد مساندة عاطفيّة، فتدفعنا إلى ارتكاب أخطاء. مبدؤنا هوتحقيق المطالب التي تعرفونها بما في ذلك إرجاع المطرودين والحدّ من الانتهاكات التي تمارس عليكم.
ظلّ يتحدّث بأناة وكأنّه يجدّف ضدّ تيّار أعمى، لم يكن من عادته أن يؤجّل الأمور ولا أن يحسبها بهذه الدقّة المفرطة وهذا الحذر. هوالذي كان في خلاف دائم مع اللافي حول طريقة عمله وكيفيّة رؤيته للواقع. كان يراه اندفاعيّا مغامريّا تنقصه التجربة والحنكة النقابيّة اللازمة، بينما ينعته هوبالمسالمة المفرطة والانتظاريّة وأحيانا يشتبك معه في جدال حادّ فيرفض الإمضاء على اللوائح أوتوزيع العرائض التي لا تتفق مع قناعاته.
ها هواليوم يتجشّم نفس المهمّة بنفس اللهجة والأسلوب ! لم يفقد شيئا ولكن كلّ ما في الأمر أنّ المقاييس والأحكام تغيّرت، صار داخل الحلبة بمجرّد أن شرع يدوس على النّار بنفسه. كلّ كلمة منه يمكن أن تجرّ العمّال إلى الأمام أوأن تتراجع بهم إلى الخلف ؛ لذلك تململت في أعماقه مشاعر الحسرة والندم وهويكتشف في كلّ مرّة أنّه قد ظلم اللاّفي بنوع من المزايدة الشكليّة. لم يكن ذلك مجديا والحال أنّه يتعلّم من الدروس.
قال له يوما:
تعرف يا أبا الشوارب، أنّنا نتعلّم النضال من الحياة وليس من الكتب. ما قيمة الكتب والنظريات بدون الرجال؟! بدون أن تغوص معهم في الوحل إلى العنق؟ !
تذكّر بيتا لشاعر تركيّ حدّثه عنه اللاّفي ، نسي الاسم لكنّه يستحضر الصورة التي رسمها البيت في ما معناه، أنّ الكلام يتعفّن في الهواء إذا لم يكن غائصا في الأرض مادّا جذوره في التراب.
أعجبته الصورة وقد أحسّ بثقوب تحدث فجأة في دماغه الصلب، يسكب نوعا من الترياق في كلّ ما آمن به سابقا. علّمه فجأة أنّ الوجوه الحاقدة الغاضبة لا تكفي وحدها، ولا الأصوات المرتفعة تستطيع أن تخمد الظلم والفساد. قال له عليك أن تؤمّن المكان قبل إشعال الفتيل حتّى يحترق النصف ويستمرّ النصف الآخر. بدا هذا اللافي مخيفا أحيانا، تلوح من عينيه عوالم أثيريّة مجهولة. أبوالشوارب لم يكن يفهم شيئا من ذلك سوى أنّه يتأكّد في كلّ مرّة أنّ زميله رجل عميق الأغوار بعيد النظر. في الاجتماعات النقابيّة كان غالبا ما يختلي به ويهمس:
لا تعوّل كثيرا يا أبا الشوارب على هؤلاء، فوعيهم يتوقّف عند حدود بطونهم.
سيرتدّون عنك حالما تمتلئ بطونهم لأنّهم لا يفهمون العمل النقابي والخرافة مازالت تعشّش في أذهانهم. انظر إلى وجوههم الكمداء وعيونهم الغامضة، إنّهم

عسيروالانقياد يمكن أن ينقلبوا علينا في كلّ لحظة. ليس بصياح الغراب يجيء المطر يا أبا الشوارب.
عاد يجوس الذكريات، آخر مرّة قابله بدا منطويا متوجّسا. ثمّة شيء ما يختلج في داخله. عرض عليه أن يزوره في البيت ليشرب معه. لا يزال يتذكّر عبير الليالي التي قضّاها معه ولكنّ الليلة الأخيرة كانت حاسمة عرف بحدسه أنّه يودّع اللافي لآخر مرّة.لم يتصوّر أنّه يشرب الأنخاب الأخيرة على موسيقى " الدانوب الأزرق ". كانت ريح الشتاء تعصف في الخارج كالنّواح وفي لحظات من الصفاء العميق كاشفه بالحقيقة وحدّثه عن المكيدة التي يدبّرها عاشور وأعوانه ضدّه. قال له بنبرة هادئة:
أنت من أصدقائي المخلصين يا أبا الشوارب ! ستأخذ الأمور بنفسك منذ الغد ؛ لأنّك المؤهّل أكثر من غيرك لكسب ثقة الجميع. إضافة أنّك أصيل المنطقة.. الخيل أدرى بفرسانها كما يقال. أنا وجودي صار يشكّل خطرا وعليّ أن أختفي قبل أن نخسر ما بنيناه جميعا.
ارتجف وهويمسك الكأس بين الصحوة والسكر. لعلّه خاف من ثقل المهمّة وجسامة المسؤوليّة الملقاة على عاتقه. ليس من السهل أن يكتسب لباقته وشجاعته ولا أن يكلّم العمّال بذلك الهدوء والحنكة الكبيرتين لكنّه في الوقت نفسه ثمل مغتبطا بالمكانة التي حظي بها، بثقته فيه واختياره من دون سبعة أعضاء.
سأله بدهاء واضح:
هل يعني أنّي المؤهّل أكثر من غيري لذلك؟!
شزره بنظرة ثاقبة ثمّ ردّ:
أنت تعرف أنّي لا أعوّل إلاّ عليك. الطاهر كثير الكلام، يعمل كثيرا ولكنّه عند الأمور يتراجع، سعيد صغير السنّ، تنقصه الخبرة والتجربة الكافيتين ومنذ زواجه صار قليل الحضور، أمّا العمّ رابح فبرغم شجاعته وإخلاصه الكبير للعمل النقابي فهولا يعرف الكتابة والقراءة. أنت قبل غيرك يا أبا الشوارب من لا يرمي سهما يعسر عليه ردّه. ثمّ تأكّد أنّك ستزيد من تكافلهم وتكتّلهم، يكفي أن تعرف كيف تقيس حرارة حماسهم..
كان يتحدّث وهوينفث الدخان من فمه وقد شقشق الضوء من وراء النافذة وبانت السماء رماديّة. نفذت زجاجة الويسكي الأولى ففتح الثانية. لم يشرب بهذه الكميّة وكأنّ مهرجان الليلة الأخيرة قد أذهب عنه السكر. النفس الجيّاشة بالانفعال لا تسكر والندوب الغائرة لا تلئمها الكحول.نفث الدخان وهويوصيه:
سأأتمنك على هذه الكتب البسيطة يا أبا الشوارب لأنّي مراقب، لا أستطيع أن احمل شيئا معي. احتفظ بها عندك، هي كما ترى ولكن يمكن أن يستخدموها أدلّة ضدّي ولوبالباطل.

وهويحتضنه، نزلت دمعتان حارقتان ثمّ همس:
ستترك فراغا كبيرا بيننا. إنّنا لن ننساك أبدا !

أذّن لصلاة الفجر، لحظات ثمّ بانت الشمس من وراء الأفق ريّا كوردة هائلة.

*** * * * * * * ***

صعدت "الآندروفر" تتسلّق طريقا ملتوية، ظلّت تعلووتهبط بصعوبة فوق الحفر والحجر الناتئ. يضغط الفرجاني على الفرامل فتهتزّ العجلات ثمّ تنزل. لمّا وصلت إلى الأعلى بانت البلدة من أعلى الجبل ولاحت فجأة صفائح القرميد ورؤوس المداخن يتوسّطها المسجد واقفا بعنفوان..
" هذه المشاهد تأتينا في العمر مرّة واحدة " قالت مريم وهي تتطلّع من نافذة السيارة إلى البعيد. لأوّل مرّة ترى منظرا بهذه الروعة والسحر. قال الفرجاني بنبرة متحسّرة: الشتاء طال عندنا هذا العام، لقد تبدّلت الطبيعة ولم نعد ننعم بدفء الشمس إلاّ مرّات قليلة.
كان يتحدّث وهويصارع المقود يمينا وشمالا ثمّ دخل غابة من الفلّين والزان فاحتجب النور عن الأعين ولم يعد يرى أمامه إلاّ آكاما منتشرة من الريحان وأعراش العلّيق البريّ. سارت "الأندروفر " أمتارا في الطريق المظلم حتّى أمر علاّوة الفرجاني أن يتوقّف. قال له بلهجة الواثق من نفسه:
لا أظنّ نستطيع مواصلة السير أكثر من هذا، فالطريق صعبة كما ترى وسوف ندخل ثنايا منعزلة مجهولة لا تسع السيّارة.
ترجّل الثلاثة وقد فتح الفرجاني غطاء المحرّك لتبرد السيّارة ثمّ راح يتفقّد العجلات. كانت مريم تحمل بندقيّة " سانت إيتيان " بجعبتين وتضع حزاما من الخراطيش، فبدت لحيمة ممتلئة الصدر والردفين بلباس الصيد. ساروا في غابة كثيفة متشابكة حتّى بلغوا آكاما مهيبة من العشب البريّ يانع الخضرة، وفي جذوع الأشجار بانت

بعض الفطريات والألياف الغريبة من السرخس واللعاع. كان المكان ساكنا مروّعا مخيفا. تنتفض بعض الطيور من أعشاشها مرسلة صرخات رفيعة وهي تشقّ الأغصان المتشابكة بحوافّ أجنحتها، وفي كلّ مرّة تقفز مريم كالمذعورة وهي تمسك بذراع علاّوة لتستند عليه وتستردّ أنفاسها.رأى تضرّج وجهها من قشعريرة الخوف لكنّه في الوقت ذاته اكتشف ذلك البريق الممتزج بلون ورق الزّان وتطلّع إلى شعرها فوجده متهدّلا ناعما كالأعراش. كانت الساحرة الجنيّة التي اكتشفها فجأة بلباسها الأخضر وسط الأشجار. وفي كلّ مرّة تلمسه وتمسك به يرتجف وتتسارع نبضات قلبه. ملمسها يثيره لدرجة الاختبال ويزداد ارتجافا عندما يلمحها تنظر إليه بعينين رقيقتين مستغيثتين. نشوة لم يسبق له أن أحسّ بها وهويمسكها من ذراعها ليعينها على السير وسط أعواد السرخس الطويلة التي غطّتهم وانتصبت تقف أمامهم كالديدبان. شدّد من ضمّ ذراعيها إليه وهوينتشي بالذبذبات التي تسري في كامل جسمه. قالت بصوت هامس:

الغابة هنا مخيفة، لا أحد يجرؤ على الدخول هنا وحده حتّى ولوكان مسلّحا.

ضحك علاّوة وقد ومضت عيناه ثمّ قال:

الغابة آمنة أكثر هذه الأيّام لأنّ موسم الطّراد بالنسبة للذئاب قد فات ولم يعد هناك ما يخيف.

كان يتحدّث وهويشير في نفس الوقت إلى اقترابهم من مراقد الخنزير. رأى نقوشا على أديم الأرض بحوافر تبدوجديدة ثمّ أعوادا مكسّرة من نبات السرخس والريحان. أمرهما بأن يبقيا في المناطق المكشوفة ويلتزما الحذر. قال:

الخنزير ينطلق بسرعة خاصّة إذا ما جرح لذلك علينا أن نترصّده من الجوانب لا من الواجهة، أحيانا يباغتك قبل أن تضغط على الزناد.

وقف الثلاثة في صفّ واحد أمام مرج واسع فيه نبت كثيف من شجر الدفلى والعلّيق ثمّ أمر الفرجاني بالتصويب. أخذ المكحلة من يد مريم، فصلها نصفين ودسّ فيها رصاصتين من عيار ثقيل ثمّ أعادها إليها. بدأ يوزّع أوامره وكأنّه يثبت جدارته وتفوّقه في ميدان يبدوجديدا عليهما. اليوم عليه أن يؤكّد خبرته وهيبته حتّى لا تخونه غابته البريّة التي تربّى في أحضانها وأنس مسالكها وخبر دروبها وثناياها المخيفة.

سيقول للزّمن قف سيرك ! وللفصول قفي دورتك كي تنقضي سعادتنا القصيرة !

سيقول لمريم أنّ علاوة التافه، الهوام لجدير بأن يكون صلبا فحلا أقوى من مخنّثي المدن وأشباه رجالها، وللشدائد تذخر الرجال كما يقال ! جاءت تعليماته مسترسلة واثقة كأنّه يخاطب طفلا صغيرا.. "ضعي المسند ما بين الكتف والعاتق اقطعي الأنفاس عند التصويب ثم لا تنسي بأن تضعي الهدف ما بين الفرضة والشعيرة، فكّي مسمار

الأمان قبل قدح الزناد.. لا تطلقي إلاّ إذا رأيته يخرج أمامك فهولا يسقط إلاّ إذا أصبت الصدغ أوالعنق، دعي الطلقة الثانية للأخير، لا تفعلي ذلك إلاّ عند الضرورة لأنّه قد يصاب فيتّجه نحوك مباشرة وعندها لا تجدي الوقت الكافي لإعادة الحشو.."
كان يتكلّم وهويثبّت في نفس اللحظة المسند على زنديها الطريّين، يطوّقها بذراعه من الخلف ليريها كيف تحافظ على البندقيّة مستقيمة فيخيّل إليه أنّ شيئا عجيبا يحدث في داخله، موجة من الأثير امتدّت إلى أحشائه. اشتمّ عبير أعطافها وهويحرّكها كالعجينة بين يديه ويحاول كلّ مرّة أن يجعلها تصوّب في اتّجاه الأكمة. كانت المكحلة ثقيلة وليس من السهل على مريم أن تثبّتها بزنديها الصغيرين كما يلزم. يكفي أن تتفادى الطلق في الأماكن القريبة والمكشوفة.
بدأ يصفّر وينشنش ثمّ أخذ السلاح من يد الفرجاني وأطلق مرّتين في الهواء عسى أن تخرج الخنازير من مراقدها ولكنّه في كلّ مرّة يصيخ السمع وسط الأكمة فلا يأتيه شيء. قال إنّها الآن في فترة توالد ومن الصعب أن تخرج لأوّل وهلة. كان يتذكّر الألمان الذين ينتظرون الساعات الطويلة بالليل يحاصرونها بالكشّافات والأضواء حتّى تخرج وحدها ذليلة مادّة أعناقها للنّار. الصيد بالليل أسها لأنّ الخنازير تثبت أمام الأضواء ولكن ذلك يتطلّب مهارة وسرعة فائقة في التصويب.
أعاد التصفير والنشنشة حتّى أوشك أن يدخل بنفسه إلى الأكمة، ولكنّ الغابة ظلّت ساكنة ساجمة وكأنّها تنظر إليه بعين باردة شامتة. يرهف السمع فلا يدرك غير حفيف أغصان الزان أوتحريشات متنائية لبعض التدارج والحجل البريّ. وكأنّ هاتفا من أعماقه يقول له: " لقد خنت العهد أيّتها الابنة العاقّة، إنّ نظرة وحيدة منك يمكن أن تغيّر قلبا وتوقظ نفسا معتّمة. لقد كنت قبلا مهزوما بضآلتي فإيّاك اليوم أن تهدّي كبريائي وحلمي الأوّل ! "
اقترح عليه الفرجاني أن يغيّر المكان، لكنّه أبى إلاّ أن ينتظر فهويعرف أنّها تألف المروج والغابات الموحلة، وما آثار حوافرها السوداء إلاّ دليلا على أنّها قريبة منهم. وقف مركّزا نظره إلى الأمام ثمّ أخذ يطلق خلف الأكمة ذاتها. كرّر الطلقات وهوفي كلّ مرّة يتوقّف علّه يسمع حركة أوخشخشة في الدغل.لكنّه ما كاد يغيّر الحشوحتّى سمع وقع حوافر تحفّ على الأغصان الميّتة السّاقطة من أشجار البلّوط. كانت تقترب منه بسرعة متزايدة ثمّ قفز أمامهم خنزير صغير أشهب كالقذيفة يحرث العشب بأنيابه. أطلقوا عليه لكنّه توارى بسرعة في الدّغل. لم يكن من السهل إصابته لأنّ العشب يحجبه عن الأعين. قال علاّوة:
سوف ننتظر، ستلحق به البقيّة بدون شكّ، يجب أن لا نطلق جميعا في نفس الوقت لأنّه قد يهاجمنا إذا ما جرح. أنت يا فرجاني، لا تطلق إلاّ في الأخير.

كانت مريم ترتجف وهي تقبض على المسند، أطلقت في الفراغ مرّتين لكنّها شعرت بنشوة لم يسبق لها أن وجدتها وهي تضغط على الزناد فيرتجّ كامل جسمها. رعشة لذيذة يصحبها إحساس غامض وهي تنصت لفرقعة الرصاص يخترق الأجواء.حتّى رائحة البارود المحترق توقظ فيها خيالا غريبا. في اللمحة القصيرة وهي تداعب الزناد لتوقظ النار وتفكّ مسمار الأمان، اكتشفت روحا تسكرها من غفوتها، لحظة من الغياب سرعان ما تتوارى ولكنّها تعود في الطلقة الثانية والثالثة.. لطالما حلمت بلحظات كهذه، ترتوي فيها نوازع الذات الضامئة إلى المغامرة والانطلاق، توّاقة لأن تشهد آفاقا جديدة. تذكّرت والدها فجأة وهي تخرج معه صغيرة لصيد " القرنيط " *، كان يقول لها " ستظلّين دائما أعظم إنجازاتي يا حبيبتي، ستثبتين أنّك الأقوى والأفضل ولن تتزوّجي إلاّ من يكون في براعتك وذكاءك " كان ردّها الذي يتكرّر دائما: " لن أتزوّج إلاّ من يضاهيك روعة وحبّا يا أبي، ولوأنّي لا أعتقد أنّه ثمّة من يفوقك روعة في هذه الدنيا "
يضحك وهويمسّد على شعرها ويضمّها إليه. ها هي اليوم يعاودها نفس الإحساس القديم. ترى علاّوة بهيكله المتمادي في العملقة وكفّه الصلبة، يعاودها الماضي. ذكريات عابرة مرّت كالأطياف.. فيه شيء ما ينبئ عن مهابة وقوّة فقدتهما منذ سنين. تنظر إليه وكأنّها تزنه، نعجب من طوله الفارع، تعجب كيف

* القرنيط: تسمية عاميّة لأخطبوط البحر

يحمل المكحلة الثقيلة بيد واحدة. لعلّها اكتشفت تحت مظهره البسيط شيئا ما دون أيّ رجل رأته.
ظلّت لحظات شاردة في أحلامها عندما فطنت إليه يومئ ويشير من بعيد. فهمت أنّه يأمرها بالتراجع أكثر والتزام الحذر. تسمّع إلى وقع الحوافر الآتي من الأكمة. كانت أعواد الدفلى والسرخس تتحرّك ثمّ شخير يقترب منهم. أمرهما بسرعة:
لا تطلقا إلاّ عندما يظهر ويقترب أكثر. صوّبا جيّدا في العنق أوالصدغ.
أحسّ لذعا ورعشة تحزّ في نفسه، تسارعت دقّات قلبه وهويصغي إلى الهدير الضخم القادم من الدغل وقد عرف بحدسه أنّه قطيع من الخنازير. إن أصيب واحد منهم ستهجم الأمّ عليهم. ودّ لويأخذ بنفسه البندقيّة لكنّه آثر أن يبقى بعيدا ثمّ لا شيء يضمن أن تغضب مريم وتعتبر الأمر إهانة واستنقاصا. إن تصيب واحدا ستكون سعادتها فائقة، سيحدث في داخلها شيء عجيب وترتمي في أحضانه منتصرة.
سمع عن كثيرات
أحببن رجالا تافهين لكنّ ذلك لا يحدث إلاّ نادرا. ثمّ من قال له أنّ ما تخمّنه النفس

صحيحا؟ لا شيء إذا يؤكّد ذلك ! ما هوإلاّ فريسة أخرى لا تختلف في شيء عن الخنازير البريّة التي نستمتع ونحن نطاردها بالنار من كلّ جانب. أنت خنزير يا علاّوة ! دورك أن تمدّ عنقك وتعرض صدرك للرّصاص ! كلّ هلوساتك ما هي إلاّ نزوات غافية ! ماذا عندك؟ ! ومن أنت حتّى تعجب بك امرأة جميلة مثلها؟ ! لقد زارت العالم وعرفت رجالا كثيرين وخبرت الحياة أكثر من أيّ رجل، فكيف لها أن تعجب بدويبة سوداء أوحياة قملة مثلك؟ ! أنت هوام يا علاّوة أتفه من الخنزير الذي تترصّده.
في تلك اللحظات القلقة وكمن يصحومن غفوة عابرة، سمع شيئا يتحرّك هائجا وسط غابة من العلّيق. ما كاد يتوارى إلى الخلف حتّى لاحت الكتلة السوداء المشعّرة تنطلق كالسهم في اتّجاهه، كانت أنثى يسير وراءها قطيع من الخنانيص الصغيرة.
ارتبك علاّوة وهويباغت بالحيوان الضخم يركض نحوه، أطلقت مريم والفرجاني طلقات عشوائيّة. المسافة بعيدة والخنزير كان أسرع منهما. صاح مستغيثا لمّا رآه يقترب منه، رأى الموت يلوح أمامه، توارى إلى الخلف بسرعة ليهرب لكنّه ما كاد يدوس على الحجارة الناتئة حتّى انزلق على بطنه. أمسك بقبضة من العشب لينتصب من جديد لكنّ الإصابة كانت عاجلة..

* * * * * * * *

‘‘يوم السبت من شبّاط.. نهر "السين"، الحيّ اللاتيني وحدائق "اللوكسومبورج ".
أعبر جسر" السين" مع ظلمة الفجر العاشقة، شعرت بنفسي طليقا على تلك المساحة الشاسعة من الماء. يومها انتظرت كلارا طويلا لكّنها لم تأتي. ظللت أتابع المارّة في مقهى السوربون يخرجون من النفق ثمّ يتوارون بسرعة. كان ذلك آخر عهدي بتلك الليالي، روحان اجتمعا فجأة على ضفاف الغربة.. ’’
باريس
* * * * * * *
‘‘ أمامي جبران، قالوا قديما في روسّو:" هل كانت الأشجار والأعشاب توجد قبل روسّو؟ !.. يعتقد الإنسان أنّها لم تكن. " نحن نقول: " هل كانت الطبيعة بأسرها موجودة قبل جبران؟ لا نظن.. " سطّرت على جملة عابرة: " وأمّا نيسان فسيعود.. لكن من يطلب نيسان من غير كفّ الشتاء فلن يجده.. " لا أدري لماذا استهوتني العواصف هذه الليلة؟! لماذا تطرق الأرواح المتمرّدة باب غرفتي؟! رحل جبران بعد أن أعطى للحرّية والفضيلة ثمنا باهضا. ليته يستعيد أجنحته المتكسّرة ويأتي محلّقا يطرق باب غرفتي ! ’’

* * * * * *

‘‘ قوت دوليّة متعدّدة الجنسيات في بيروت.. سمفونيّة جديدة تعزف بأصابع عربيّة. بودّي لوأكتب ضدّ كلّ ما ينغّصني من جعجعات مذياعيّة رخيصة ولكنّي أوثر قضاء ليلتي مع " الدانوب الأزرق ".. خليل حاوي ينهار تحت وطأة الفاجعة ويختار طريقه. ساعتها كانت باريس تغلي، طلاّب الجامعات يوزّعون المناشير ويهتفون في الأبواق. المظاهرات تخرج من ساحة تروكاديروالشهيرة ثمّ تكتسح الشوارع. في إحدى الأماسي الجميلة عرفت كلارا ، طالبة الحقوق الأرمنيّة الشقراء، كانت ذات نعومة خلاّبة خاصّة لمّا تتهجّى الفرنسيّة بصعوبة وتحدّثني عن جدّها الذي زار الشرق وعاد منبهرا بعظمته. ’’

* * * * * *

‘‘ ما أجملها في عيني ! كانت ساحرة تخسف العيون.. أول مرّة تبادلنا النظرات في قاعة الأساتذة بدا لي أنّني أعشق جنّية صغيرة. لكنّي لم أقدر على شيء. ثمّة شيء يجعلني مشلولا.. تذكّرت فلوبير العاشق الخجول.
عندما عدت إلى البيت شربت كأسين فعادت صورة كلارا من جديد ’’

* * * * * *

‘‘ لا أحد يجرؤ على دفع السيل إلى الأعلى أوالتجديف ضدّ التيّار. قال لهم: " لا تيأسوا أيّها الرفاق ! لا تخشوا شيئا ! نحن مستعدّون للنّضال والدّفاع عنكم بكلّ الوسائل "
كان يتكلّم وحده. ظللت أنظر إلى الوجوه الصفراء اليابسة. كنت عضوا جديد وعليّ أن أعتاد الوجوه.فكّرت في الأمر طويلا.. ’’

* * * * * *

‘‘ لا أزال أذكر يوم 14حزيران، جاءتني رسالة من كلارا في ليلة مكتضّة بالتوجّس. قالت لي أنّها ترحل. لم تكن رسالة مطوّلة لكنّها أيقظت فيّ ندوبا لا يلئمها الكلام. قالت لي: " عزيزي فائز، ما أبعد ميعادنا ! وما أفقر قلبينا إلى ليال تلاشت كالأطياف. أنت في أرضك الهاربة وأنا أبحث عن أجدادي الضائعين. دائما أفتقدك كلّما جلست في مقهى السوربون ، ولكن يا للأسف، فالحياة لا تجود مرّتين ! ".. ’’
حبيبتك كلارا المجنونة

* * * * * *

ظلّ أبوالشوارب يتصفّح المذكّرة. كانت مكتوبة بخطّ رقيق تحمل كلّها توقيعات اللافي منذ أن كان طالبا في باريس. أمّا التواريخ فهي غير مكتوبة ولكنّه فهم من خلال ترتيبها أنّ المذكّرات الأخيرة ربّما تتصّل بالخمس سنوات الأخيرة التي عملها بالجهة.

فتح أبوالشوارب الدرج مرّة أخرى وراح يجمع الدفاتر والكتب العديدة.. النفوس المائتة ، لمن تقرع الأجراس، نقد العقل الخالص.. وكتب أخرى منها ما هوبالفرنسيّة ومنها ما هوبلغات أخرى. جمعها كلّها في حقيبة من الجلد ثمّ فتح المذكّرة مرّة ثانية وكأنّه يبحث عن شيء ما. ترى لماذا تركها اللافي؟ ! شغلته الأوراق الممزّقة في آخرها. قلب الصفحات إلى الوراء ثمّ قرأ من جديد:

" اليوم تضيق بي غرفتي، في كهفي العميق تسرح سحابات كثيفة وسوداء. حبّات البرد تضرب النوافذ وتطلّ عليّ من المدفأة ثمّ تقفز حتّى مكتبي. يدويّ الرعد فترتجّ الغرفة وينقطع التيّار ويعود.. الظلمة تسطوعلى النّور. نظرت إلى الخارج فبانت لي أشجار جرداء عارية والثلج يكتسح المدينة البائسة.. الناس يمشون سراعا تحت دفعات من البرد اللاذعة.

كأنه ثمّة طرق على الباب. في الأوّل خلت ذلك من جرّاء الرعد، لكنّ الضرب زاد حدّة. أزحت اللحاف ورحت أتلمّس حذائي على البلاط البارد لأفتح الباب. كانت الغرفة قاتمة والنور ينوس خافتا.. ما كدت أزيح المزلاج حتّى اندفعت إلى الدّاخل تقطر ماء، التصقت ثيابها من البلل وهي ترتجف وتمسح الماء عن وجهها. لم أصدّق ذلك ! خلت نفسي أحلم لكن لمّا سألتها من هي؟ ولماذا تأتي في ساعة كهذه؟ ابتسمت وهي تؤكّد أنّها لم تخطئ العنوان. قالت لي فعلا أنت هوكما رأيتك في الصورة.. اندهشت وأنا أقف أمامها كالمعتوه، قالت أنّها رأتني في الصورة.. عن أيّة صورة تتحدّث؟ لمّا رأتني متردّدا طلبت منّي بكلّ لباقة:

هل تقدّم لي شيئا أنشّف به البلل أم ستبقى تنظر إليّ هكذا؟

صدعتني بسؤالها لمّا قالت: أنت فائز اللافي ؟ نعم أنا هو..

تعرف كلّ شيء عنّي وهذا محيّر. كنت أفكّر في مؤامرة دنيئة تأتي من جانب ما لولا أن صعقتني بجواب واضح صاف فقالت بنبرة واثقة:

عليك أن تهرب في أقرب فرصة ممكنة، لهذا جئت إليك..

قلت لها مستوضحا:

لا أفهم، ثمّ من أنت أوّلا؟

أردفت وكأنّها تستغرب الجواب:

لا يهمّ من أنا،المهمّ أني عرفتك في الوقت المناسب، منذ أسبوع وأنا أبحث عنك لأخلّصك من عاشور فهويدبّر مكيدة لا أعرف مصلحته فيها.

سكتت لحظة تستجمع أفكارها ثمّ قالت:

نعم، لقد كلّفني أن أشهد ضدّك، صدّقني أنا لا أعرفك وأجهل من تكون ولكنّي خمّنت الأمر كثيرا وعرفت أنّك قد تكون ضحيّة مؤامرة ما. قد لا تهمّني كثيرا من تكون ولكن لا أريد فقط أن أشهد بالباطل حتّى لوقدّمت رقبتي..
كانت تتكلّم وقطرات الماء تنزل على وجهها، لم تبال بشيء سوى برسالة تودّ أن تنهيها بسرعة. لم أصدّق ما سمعت، كنت بين اليقظة والحلم ، جاشت نفسي ولم أقدر على الكلام..ظلّت فقط ريح الشتاء تعصف في الخارج كالنواح.. ''
*** * * * * ***

ضحك سالم طريدة ضحكة عالية فأفرزت أسنانه عن ناب ذهبيّ قبيح. كان يرتدي طربوشا قرمزيّا ويداعب ذقنه بمنشّة صغيرة تشبه ذيل الحصان. صبّ كأسا من الويسكي المثلّج ثمّ التفت إلى عاشور مخاطبا:
والله، البلدة لا تأمن بدونك يا سي عاشور، نحن نسمع كثيرا عن حرصك الشّديد على توفير الأمن والاستقرار ن لذلك لا نبخل أبدا على أن نكون عند الخدمة متى شئتم.
سكت لحظة ثمّ طلب من النادل زجاجة أخرى على حسابه. لم يتحمّل عاشور ثناءه المفرط ولا ضحكته الصفراء الماجنة التي تنبئ عن خبث ومداهنة. كان يعرفه لوطيّا قديما لا يؤتمن حتّى على البهائم والدجاج وإلاّ فكيف استطاع أن يصادق صاحبه ويكسب ثقته ثمّ يجلس معه على طاولة الشراب؟ !
شزره بنظرة جافّة ثمّ قال له كمن يرفع عن نفسه تهمة:
على كلّ، أنا أقوم بواجبي ولا أستحقّ كلّ هذا الثناء. ثمّ إنّي في مهنتي لا أعوّل على أحد لأنّه قد تأتيك الضربة مباغتة من حيث لا تعلم. الثقب الذي تأتي منه الرياح قد يصبح طوفانا إذا لم يسدّ.
ضحك سالم طريدة منتشيا بالمثال الذي ضربه عاشور ثمّ مال على ماجد، همس له في أذنه وانفجر من جديد مقهقها. لم يتحمّل عاشور ذلك ن احمرّت عيناه وبانت عليه ملامح الشرّ لكنّه بخبرة مجرّب حكم أعصابه واختار مشاركتهم في الشراب بهدوء

ماكر. اكتفى المناعي بالشرب والتدخين في حين ظلّ سالم طريدة وحده يثرثر على الطاولة ويحكي لماجد فضل الحمامات الساخنة الطبيعيّة في إزالة برد المفاصل والروماتيزم. فجأة حامت في ذهن عاشور الصورة والسيارة السوداء والعلامة الغائمة وأشياء كثيرة.. صار ينظر إليه ويصيخ بسمعه على غير العادة. لا أحد يشكّ في كونه قد صار من أثرياء البلدة القليلين، عمل حركيّا ثمّ استطاع بعد خروج المعمّرين أن يفوز بثروة هائلة ويكسب نصف المحلاّت التي تركت بما في ذلك الحمّام العمومي اليتيم. عرفه الناس بتجارة القماش وحبّ الشرب والمداعبات الماجنة وشاعت حوله نزوات غلاميّة لذلك لقّب بسالم طريدة لكثرة ملاحقته الصبيان.

ظلّ عاشور يصغي بحذر بالغ إلى ما يقوله ثمّ توقّف عن الشرب حتّى لا يفقد هدوءه هذه المرّة وسأله بنبرة ساخرة:

يبدوأنّ خدماتك كثيرة لهذه البلدة، ولولا الحمّام الذي تتحدّث عنه لأكل الناس القمل والأوساخ؟ !

قال شبه مؤكّد:

أنا لا أبخل بشيء، وخاصّة على الأحباب مثلكم. سي ماجد يعرف أنّني أدفع قسطا محترما للفقراء والأيتام وفي كلّ عيد أختن ما لا يقلّ عن مائة طفل.

حرّك ماجد رأسه موافقا ثمّ أردف:

الأخ سالم مناضل قديم، يستحقّ كلّ خير ونحن مدينون له بأشياء كثيرة.

ابتسم عاشور ساخرا وهمّ أن يقول شيئا لكنّه آثر الصمت وودّ أن لا يكدّر الجلسة.

سأله المنّاعي محوّلا وجهة الحديث بعد أن فطن للجوّ الذي بدأ يتوتّر:

أظنّك يا سي عاشور قد أنهيت مشكل النزل. أنا أطردت كلّ الأعضاء المنخرطين في النقابة وأنت عليك الباقي !

أجابه متوجّسا:

لا تأمن الأمور يا منّاعي، ثمّة رؤوس أخرى من خارج النزل تدبّر الفوضى، وأظنّني بدأت ألفّ حولهم الشّرك لأجلسهم على الخازوق واحدا واحدا. لديّ من سيجرّهم إليّ كالقطيع.

صبّ كأسا من الويسكي الحادّ بدون ثلج ثمّ أردف:

اصبر فقط ولا تتهوّر مثلما فعلت في الأوّل. لا تنسى أنّك أنت الذي أشعلت الفتيل ولولاي لذهبوا برأسك أنت وزوجتك.

تكلّم ماجد مشاركا عاشور في رأيه:

صدّقوني، لم أكن أتصوّر ثمّة أشياء تحصل في هذه البلدة البائسة ! الناس هنا يسرحون بالخنازير ويفلّون القمل صاروا يعرفون الإضراب والنقابة والاحتجاج !

ضحك عاشور وقد أحسّ بسذاجة صاحبه. ودّ لويفرش أمامه كلّ أوراقه ويكشف الحقائق.. سيقول له أنّك واحد من ألغاز هذه البلدة ثمّ يرمي أمامه الصور ويأتيه بالمخبرين الشهود، لكنّه تريّث واكتفى قائلا:
لا تستغرب شيئا يا سي ماجد، ثمّة أشياء لا تصدّق لكن للأسف، ما كلّ ما يعلم يقال، تلك شروط المهنة.
أحسّ وأنّه يمسكهم واحدا واحدا من رقابهم، أرواحهم بيده ويكفي إشارة بإصبعه حتّى يجعلهم يقبّلون حذاءه ويركعون أمامه صاغرين. تظلّ دائما سعادته في الملاعبة الخبيثة وجرّهم شيئا فشيئا إلى الشرك مثل الفراشة التي تطير من تلقاء نفسها إلى اللهب. نظر إليه سالم طريدة ثمّ صبّ كأسا، حاول أن يضفي على الجلسة جوّا من المرح فقال مداعبا:
البرودة تنفذ إلى النخاع والويسكي وحده لا يكفي. أظنّك تشاطرني الرأي يا سي عاشور ، نحن لم نأت هنا لنتحدّث في الأمور الجديّة، الشرب لا يحبّ الجديّة.
قالها ثمّ التفت إلى ماجد ضاحكا فبانت صلعته الملساء وأنفه المفرطح. ضحك المنّاعي وقد انشرح لما قاله لكنّ عاشور لم يلبث أن ردّ عليه بمكر مقصود:
فعلا الويسكي لا يحتمل ذلك. عندما يثمل أحدنا قد يزلّ لسانه فجأة بما يحمله إلى الفضائح. أنا مثلا أحيانا أهيّئ نفسي بما سأقوله قبل أن أجلس للشّراب.
ردّ عله طريدة بغباء:
الأسود لا تسقط بسهولة، ما أظنّ كأسا أوكأسين يسبّبا لنا المشاكل. إذا كانت دواخل النفوس صافية فإنّ كلّ شيء يهون.
كان يشير بطبيعة الحال إلى ماجد ثمّ يضع يده المشعّرة الغليظة على فخذه بينما ظلّ عاشور ينظر إليه في اشمئزاز وهويداعب كأس الكريستال المكوّر. فهم بحسّه الثعلبي أنّ سالم طريدة لا يثني عليه كلّ هذه الثناء إلاّ لأمر مبيّت. قد يفعل كلّ شيء من أجل أن يكسب ثقة الآخرين. ها هويرى من خلال عينيه الغائرتين بريق السفالة والشذوذ !
لوحقّ للذئبة أن تلد بشرا لكان هوسالم طريدة بعينه. لقد عرف عاشور بحكم معاشرته الطويلة لسكّان البلدة أنّه حادّ الخبث. يشتري المسؤولين بأمواله مقابل الفساد ولياليه الملاح لكنّه لا يحمل عنه أدلّة كافية، ولم يهتد مخبروه إلى كواليسه العديدة.
جذب أنفاسا عميقة ثمّ نفث حتّى تصاعد الدخان، كان الضوء ينوس خافتا من زوايا الحائط المزيّن بنقوش ضخمة وحيوانات بريّة محنّطة، ينعكس بنوره على الطاولة فتبرز رؤوس مستطيلة كالأشباح. لمّا نهض المنّاعي ليزيح الستائر بان بياض أشخم فاتر مخظلّ بأنفاس الفجر.
* * * * * * *

* * * * * *

ذات صباح شتويّ أفاقت البلدة على خبر وجفت له القلوب، السرجان بشير أسلم الروح في الإيقاف قبل المحاكمة بأيام. مات كمدا وحزنا قبل أن ينال جزاءه. يومها انهلّ رذاذ قويّ حتّى فاضت الثلوج وسقطت أطباق الجليد على الرؤوس.. تحسّر الناس وحزنوا، لكنّ أصابع مجهولة حامت حول عاشور وأزلامه شكّوا في كونه مات تحت التعذيب وسوء المعاملة. مضت بعدها الألسن تغزل الشائعات والحكايات المثيرة لكنّ الحقيقة اندثرت بطول الوقت وتلاشت مع الحزن والكتمان. قالوا المرحوم مات بالسكتة القلبيّة لأنّه أفرط التدخين وامتنع عن الأكل ندما على قتل ابنته.

* * * * * *

فتح عينيه فألفى ساقه معلّقة في الهواء كعود الحطب. لم يجرؤ على الحركة ولا حتّى أن يغيّر وضعه في الفراش. شعر بالغثيان ورغبة في القيء لأنّ الغرفة كانت قذرة تتضوّع روائح مقرفة فتنبعث منها رائحة الأدوية والخراء. الذباب يتسلّق الأكواب الزجاجيّة ويطنّ على النوافذ المغلقة أمّا الجدران فكانت صفراء متآكلة يتسلّل إليها نور واهن ضعيف بصعوبة من كوّة صغيرة عالية. في جانبه طاولة صغيرة بعجلات وضعت عليها أدوية وضمادات في حين علّقت على الحائط قبالته لوحة يتيمة باهتة تمثّل الزهراء تحلّق فوقها ملائكة مجنّحة.

تحسّس جسمه فوجده ساخنا والحشايا تحته يابسة زادته وهنا، خاصّة وأنّه لا يقدر أن يغيّر وضعه مادامت ساقه مربوطة بحبال بلاستيكيّة سميكة.

رغم التعب شعر بنوع من الصفاء وإشراقة المشاعر وهويتأكّد من نجاته واجتيازه عتبة الخطر، لكنّ بعض الوخز لا يزال يؤلمه من جرّاء المسامير التي دقّت في فخذه. أحيانا تصعد الآلام إلى العمود الفقري ويحسّ بالنبض ينبعث من العظم. كانت اللحظات التي يصل فيها الألم ذروته. أخبرته الممرّضة أنه نزف كثيرا وبقي طويلا فاقد الوعي، لم يصدّق ذلك حتّى خال نفسه مستفيقا من كابوس. لم يبق في خياله شيء ذوبال غير لحظات قصيرة كالومضات.. كتلة سوداء مشعّرة تجثم فوقه ثمّ أشياء حادّة تنغرز في اللحم. لمّا حنوا عليه يستغيثون ويرفعونه عن الأرض فقد كلّ وعيه. وبرغم نشوة النجاة أحسّ بالندم يخز ضميره لمّا استفاق من الغيبوبة. عاتبته نفسه بلا رحمة.. ماذا لومتّ يا علاّوة ضحيّة تهوّرك وبطولتك الزائفة؟ !ستموت وقتها جيفة مثل الكلاب السائبة أوالقطط التي تدعسها سيّارات الليل ! وما أشنعها من ميتة كهذه !

فكّر في أمّه، غالية الصغيرة، ماذا يكون مصيرهما؟عيون غالية وهي ترمقه وادعة مستسلمة تؤنّبه وتشعل فيه حرائق كالبركان، فهوالذي حلم طول حياته أن يزرع البسمة على شفتيها ويمسح تجعيدة الحزن المرتسمة على وجه الوالدة شلبيّة.. امتزج طيفهما بخيال مريم، أين هي الآن؟ هل تراها تذكره أم شغلتها زهورها وصوباتها عنه؟ ! إنّه يتذكّر رائحة أعطافها وهي تقترب منه، فكّر في تلك اللحظة التي اختلط فيها الألم بالنشوة، لكنّ ذهنه توقّف بعد ذلك، داهمه ظلام غائم وأحسّ بالأشجار تدور فوقه.

نظر إلى الزهراء أمامه فألفاها قبيحة مرسومة بشيء من التكلّف والمبالغة. لم يستغرب ذلك لا سيما وأنّ اللوحة من النوع الرخيص الذي يباع على الأرصفة. كانت الألوان باهتة متنافرة والملائكة تحلّق فوق الزهراء الممتدّة على أريكة من الحرير فتضفي جوّا من الخيال الركيك.
اجتاحته رعدة باردة وهويحدّق فيها. كان ذلك من تأثير الحمّى ربّما، ثمّ بدأت الآلام تنبض والمسامير تخزه في عظم الفخذ. يصعد الألم إلى رأسه ثمّ يكتسح كامل جسمه. أحسّ بالوسادة مبلّلة تحته ثمّ غثي وطفق يصرخ ويستغيث. بدت له الغرفة فجأة كالتابوت تنغلق عليه ثمّ جسمه يتحلّل ويتوارى في حفرة ليس لها قرار، نظر فإذا رجال غلاظ يهيلون عليه التراب من كلّ صوب حتّى امتلأ القبر ولم يبق غير وجهه، شعر بأنفاسه تخمد شيئا فشيئا والتراب يسدّ عليه النور والهواء فصرخ بأعلى صوته ونادى: أغيثوني !
كرّر النداء بعصبيّة وكأنّه يودّع آخر اللحظات من الحياة..
لمّا دخلت الممرّضة على إثر سماع صراخه سارعت بحقنة من المورفين لتسكّن أوجاعه وبمجرّد أن جذبت الإبرة حتّى تهاوى وانتظمت أنفاسه من جديد..

*** * * * * ***

لمّا أفاق علاّوة وجد الغرفة ساكنة ثمّ نظر إلى النافذة فلاحظ هبوط الغسق والنور الفاتر يخترق الستار. كانت الآلام قد خفّت وزال الغثيان، لكنّ جسمه قد وهن من جرّاء النوم والاستلقاء بنفس الوضع ساعات عديدة. ضغط على الزرّ بجانبه فغمر الضوء أرجاء الغرفة، وما كاد يجول ببصره ناحية الطاولة الصغيرة على يساره، حتّى ألفى علبة ملفوفة ومزيّنة بشرائط ورديّة، ثمّ إلى جانبها باقة من القرنفل الأحمر والقرنيات النادرة. لم ير مثلها إلاّ في " الفيلاّت " الضخمة "كفيلّة " سي ماجد أوحديقة الكنيسة القديمة. مدّ يده وكأنّه يجسّ كنزا عظيما، ثمّ قلّب حزمة الورد وأدناها من أنفه ليملأ صدره بعبيرها. ظلّ يحدّق في سيقانها المشذّبة بعناية حتّى ألفى بطاقة صفراء تتخلّلها قرأ وقلبه يرجف: '' صديقتك مريم..ينبض قلبها من أجلك وتسأل شفاءك.. ''

*** * * * * ***

تحدّث الحاضرون عن نوبات الجنون التي شاعت عن السرجان بشير وصحّته التي وهنت في الأيّام الأخيرة. ثمّة من يهمس بأشياء أخرى، إلاّ أنّ حضور المخبرين في المأتم قد فرض الصمت والحذر في الكلام.. قال بعض الشيوخ:
لا فائدة من النبش في الموتى ثمّ لا قدرة لنا على نطح الصخر
كان البيت يغصّ بالزائرين، يتزاحمون على المغسل حيث رقد المتوفّى مسجّى على حصير. النسوة تحلّقن حوله ينتحبن بصوت عال ويولولن بنواحات حزينة بينما بقي بعض الرجال في الخارج يتحدّثون عن الموت والدنيا والبرد والطعام. أحيانا يمسح بعضهم دموعه بكمّ ردائه وينشج نشيجا صامتا، ثمّة من هم على صلة بالسرجان من أقربائه وأصحابه.
قبل موعد التشييع غصّ البيت بالناس وكثرت الحركة. كان نشاط النسوة لا يتوقّف وهنّ يغسلن الأواني وينظّفن السقط لإعداد عشاء السرجان. تنبعث روائح اللحم النيّئ ممتزجة بجوّ جنائزيّ تقهى له النفوس. في ناحية من الساحة الضيّقة رفع كلب رجله وبال على الحائط فنهره رجل: " اذهب يلعن من خرأك ! " ثمّ قذفه بخشبة أخطأته.
كان الجوّ باردا لكنّه صحو، هدأت فيه الطبيعة بعد دفعات من الرّذاذ المتواصلة في الفجر. وتفاديا للمطر غطّى أهل البيت السّاحة ثمّ أوقدوا كوما من الحطب وضعوا عليه قدرا ضخما تغلي في وسطه الرؤوس والسيقان.
انقضت لحظات من الانتظار ثمّ خرجوا بالتابوت على صراخ النسوة وعويلهنّ. ساروا عبر الشارع اليتيم وفي كلّ مرّة ينضمّ الفضوليون إلى الحشد الهائل من المشيّعين. وقف التجّار خشوعا وقد أغلقوا دكاكينهم وسكنت المقاهي ولم تعد تسمع إلاّ ترتيلات القرآن تتماوج خاشعة. كانت البلدة كاملة تشيّع السرجان بشير وتودّعه لآخر مرّة، تنظر العيون متحسّرة إلى الموكب ثمّ تدعوله بالرحمة والغفران.
لمّا توسّط الموكب الشارع الطويل المنحدر كان عدد الناس قد تضاعف ودخلت وجوه غريبة تردّد ترتيلات وتتزاحم لحما التابوت. ظلّت سيّارات خضراء تتبع الموكب من الخلف في صمت ودعة.ثمّ تجاوبت الأصوات والغمغمات داخل الحشد الذي بدأ يكتسح المدينةلمّا خرجوا به من المسجد كانت السماء ترذّ رذاذا خفيفا، لحظات ثمّ عادت الترتيلات من جديد يخترقها اللغط وهمهمات غامضة، تعالت وتضخّمت وتحوّلت فجأة إلى أدعية ساخطة وهتافات احتجاج ضدّ الحكومة والبوليس. تلاطمت الأجساد

ثمّ علا الصراخ. التابوت يهتزّ على الأكتف وبغضب وحشيّ انخرم نظام الأشياء وتحوّلت الجنازة إلى مظاهرة احتجاجيّة وتصفية حساب. حمل المتمرّدون الحجارة وقضبان الحديد وانعطفوا جهة الشارع الفرعي ثمّ قذفوا الواجهات الزجاجيّة وأشعلوا العجلات. في لمح البصر تصاعدت النيران وهرول الأطفال والنساء ثمّ سارع الباعة بإغلاق دكاكينهم. تصاعد الغضب تحت الرّذاذ وهاجت الحشود كالطوفان. أصبح كلّ شيء ممكنا ورخيصا ولم يعد في وسع أيّة مقاومة أن توقف هذا الزحف.
مرّوا على متجر الحلويات " باميلاّ " فتركوا زجاجه حطاما ثمّ ساروا في اتجاه البنك الأهلي. الوجوه يعلوها الكبرياء ويسكنها الموت، صار شرف الموت أغلى من كلّ شيء واستوت الأمور في لحظة عابرة من الزمن.
كانت الأصوات تردّد شعارات مناوئة للحكومة، ثمّ تلتبس بغمغمات ساخطة غير مفهومة. اقتربت المظاهرة من البنك الأهلي، ظلّت تفصلها عن محطّة البنزين بضعة أمتار فقط. كلّ شيء مصمّم بالبديهة والصدفة ولا يبقى غير التنفيذ.
لمّا سارعت الحشود تصبّ أحقادها بعنف، تصادمت الأجساد وتكلّمت هذه المرّة العصيّ والأسلحة من الخلف. راحت السيارة الخضراء تخترق المظاهرة من وراء، فعلا الصراخ والعويل وسالت الدماء. نزلت الهراوات وأيدي الفؤوس بدوا رحمة على الرؤوس والأكتاف. أخمدت المظاهرة بسرعة وخلت الأنهج من الناس. لم يبق إلاّ الأدخنة المتصاعدة والعجلات المحروقة تنشّ تحت الرذاذ. كان عاشور يسير في المقدّمة يسبّ ويلعن ويجدّف على العالم. علّق المسدّس في جنبه بحزام من الجلد والهراوة في اليد الأخرى. ظلّ يذرع الشارع وأعوانه يتبعونه بدروع مشبّكة يضعونها على وجوههم.
بدت من خلال سحنته علامات الغضب والوحشيّة ولم يعد يميّز شيئا، حتّى الشيوخ والأطفال لم يسلموا من بطشه وجبروته. أمر فرقته أن تلاحق المتظاهرين إلى حيث المقبرة، ثمّ سرعان ما انتشرت القوّات داخل أحراش الصنوبر وأشجار التنوب تحاصر المكان. وفي لحظة واحدة تعزّزت قواته بفرقة أخرى من القوات الخاصّة. وانداحت البدلات العسكريّة الخضراء تكتسح السهب المنبسط بخطى حثيثة حذرة ثمّ اختفت في عتمة الحرش من أشجار الصنوبر تحاصر الحشود وتنتظر الأوامر.
في غضون ذلك كان عاشور يقف على الربوة، ينفث دخانه كأبطال رعاة البقر.
صفا وجهه وهدأ لمّا أحسّ بسيطرته على المتظاهرين وتعزّز قوّته. كان الجوّ ساكنا وشديد البرودة، كلّ شيء يبدورخيّا وفي هدوء رهيب لا يسمع إلاّ صوت الخطاف في الآفاق أوطقطقة أعواد الصنوبر من حين لآخر تحت أحذية العساكر.
سجت الطبيعة فجأة وكشفت عن أروع مظاهرها، ملئت صفاء وطراوة ثمّ لمع في المشرق وميض البرق يتوجّس عاصفة جديدة.

* * * * * *

غادر المستشفى يعرج على عصا وقد أحاطت رجله جبيرة من الجبس.برغم شحوب جسمه والوهن، شعر بمزيج من الغبطة والصفاء. تردّدت في أعماقه أنفاس الحياة من جديد فراح يعبّئ صدره بهواء الصبح البارد النقيّ. لمّا عبر المفترق تذكّر البطاقة، فأخرجها مرّة أخرى كمن يستعيد لذّة عابرة وظلّ يتفحّص حروفها ويملّي عينيه بسطورها. يتخيّل مريم وهي ترسم الكلمات بأصابع تدغدغ أعماقه. ترى، هل خفق قلبها حقّا أم عل فكّرت فيه بإشفاق فقط؟! مرّة يوهم نفسه بذلك وأخرى لا يصدّق. يقول في نفسه بتوجّس: ''لا تطرق أبوابا صعبة عليك يا علاّوة ! ولا تحلم كثيرا لأنّ الذباب قد يحطّ على الحلوى.. مريم أشفقت عليك لأنّها السبب فيما حدث.''

باتت الهواجس تمرّ سراعا في ذهنه وكأنّه يستعيد شريط الأحداث من الأوّل، لكنّه في كلّ مرّة يحسّ بلذّة المغامر تتّسع في داخله أكثر. الدنيا تتبدّى أمامه ورديّة كآخر الشفق.

استفاق من أحلام اليقظة فجأة، لم ينتبه إلى منبّه السيّارة يستحثّه على العبور. لقد صار فعلا محلّ إشفاق من الجميع، ولكن هذا غير مهمّ مادامت ثمّة قلوب تخفق من أجله.

لمّا دفع باب الحوش، ارتمت في حضنه والدته شلبيّة وهي تبكي وتنشج. تذكّرت المرحوم وراحت تذرف دموعا حارّة. خافت أن تفقد علاّوة وحيدها ويبقى البيت فارغا بدون عائل. مسحت دموعها هامسة له:

لم يبق لنا في هذه الدنيا غيرك يا ابني، تصوّر أنّنا لم نذق شيئا أنا وأختك غالية طوال فترة إغمائك في المستشفى. قالوا لنا أنّك تحت تأثير التخدير، وخفنا عليك حقّا.

وخط المشيب شعرها مسرعا بتأثير الهموم والأحزان ولم يبق غير بقايا وشم على جبينها يعلن عن جمال آفل.

طمأنها علاّوة ثمّ سرعان ما حمل غالية على كتفه وراح يداعبها كعادته. يدخل المرح على البيت الذي حلّت فيه التعاسة. ابتسمت الطفلة الصغيرة فتكوّر خدّاها كتفّاحتين وبانت منها شفتان أيونيتان. تحسّس الجسم يدغدغه لكنّها فرّت منه فجأة وقد تضرّج وجهها. فهم علاّوة ذلك بسرعة، لم تعد غالية الفتاة الصغيرة كما عهدها، نما عودها وصارت أجمل، بانت رمّانتان صغيرتان. عليك أن تحنوعليها يا علاّوة بجناحيك و" تجهّزها "بنفسك وتحميها من الذئاب الجائعة.

خاطب نفسه وكأنّه يكتشف البيت لأوّل مرّة، ثمّ ترك رأسه يهوي على الوسادة ونام نوما عميقا في حين راحت شلبيّة تطارد ديكها العزيز بين الزرائب، لا بدّ من ذبيحة هذه الليلة تبارك بها نجاة وحيدها وتطرد النحس من البيت.

* * * * * *

لمّا أفاق مع الظهر وجد البيت يعجّ بالزائرين، كان بينهم مقداد. وكمن استيقظت فيه ذكريات قديمة راح يعانقه ويسأله عن الحادثة. قال مازحا:

خفنا عليك، لكن يبدوأنّ الأشقياء مثلك يحملون سبعة أرواح.

ضحك علاّوة وقد انشرح لحديثه ثمّ راح يقصّ عليه حادثة الصيد وفي كلّ مرّة يبتسم مقداد وكأنّه يكتشف لغزا. قال له:

أنت محظوظ يا سيّدي، يرومك الحمام البريّ من أوّل وهلة ثمّ لا شكّ أنّ العظام صارت تصفّر على بعضها!

ابتسم وقد تورّد وجهه ثمّ قال:

لا تمزح يا مقداد، صدّقني أنّي ندمت على ذلك. العمل في " الفيلّة " لم يجلب لي إلاّ المشاكل والأقاويل ثمّ كما تعلم الكلام تتناقله الرياح ! ومن يدري ما سيقوله الناس بعد ذلك؟ ! ثمّ السيّدة مريم امرأة طيّبة ورحيمة ولا تستحقّ التشويه بسببي.

سكت لحظة ثمّ أردف:

الناس هنا يا مقداد يثرثرون كثيرا ولا يتركون أحدا في راحة حتّى تحلّ به الكارثة. مريم زارتني في المستشفى بينما كنت في غيبوبة. يومها تغيّرت نظرة المرّضين إليّ، صاروا يعاملونني بعناية أكثر ثمّ غيّروا لي الغرفة في أقلّ من ساعة. لا أدري ماذا سيحصل بعد ذلك؟

أصغى إليه مقداد بصمت ثمّ طمأنه قائلا:

الثقب الذي يأتيك من الريح سدّه. لا تخش شيئا يا علاّوة مادامت نيّتك سليمة ونفسك طاهرة. ثمّ لا أحد يسلم من الألسن الشائكة.

كان يتحدّث من أعماقه هذه المرّة وكأنّه يثير ماض أليم لكنّه عزيز عليه، يشير إلى علاّوة وهوفي الحقيقة ينفض عن صدره حزنا مغلّقا. أخبره بوفاة السرجان في الإيقاف، الشيء الذي أجّج النار بداخله، رحيل اللافي وأشياء أخرى..

لم يصدّق وهويصغي باندهاش للأخبار التي فاتته وهوفي المستشفى ما يقارب الشهر. لكنّه في الوقت نفسه أشفق على ابن عمّه المسكين، فهم معاناته وعذابه.

شكا إليه صداعا وهواجس مخيفة تحدق به ثمّ اعترف له يائسا:

لن أرتاح وأهدأ حتّى تسامحني صبيحة. عليّ أن أدفع الضريبة غالية وحدي وإلاّ قتلتني الكوابيس.

* * * * * *

نظر إليها بنهم وقد لمح في عينيها بريقا نديّا، أحسّ أنّ الكلمات تنحبس في حلقه كلّما وقف أمام هيكلها الفارع. ابتسمت ثمّ قالت:
كنت أعرف أنّك ستأتي وإلاّ جئتك مع الفرجاني بنفسي. هل نسيت أنّي مدينة لك بأشياء كثيرة؟
تنحنح منتشيا ثمّ شكرها على أجرة المستشفى وباقة الورد. لعلّه يعني البطاقة أكثر من الورد. افترّت شفتاها عن أسنان بيضاء كالعقيق ثمّ عاتبته بلطف:
نحن صديقان يا علاّوة ولا أستحقّ كلّ هذا التكليف. ألم نتعاهد على ذلك؟ حياتك أغلى من المال ولا تنسى أنّني طرف في ما حصل.
اعتذر بسرعة وقد شلّت لسانه بجرأتها المعهودة وذكائها الحادّ. تتحدّث إليه دون أيّما تهيّب أوخجل وبخبرة فائقة. فعلا هي جنيّة تسحر العيون والعقول وتجمّد المياه ويا ويل من يقع في شركها !
كانت الحجرة تزخر بلوحات بديعة إغريقيّة وصينيّة ومزهريات أثريّة نادرة أمّا الوسطيّة فقد تربّعت فيها مكتبة مهيبة ضخمة من طراز لويس الخامس عشر وحلّيت حوافيها بنقوش بارزة مذهّبة، تعجّب علاّوة من تنظيم الحجرة وذوقها الرفيع الذي ينمّ عن فتاة عرفت الدنيا وخبرت الحياة. الألوان والزخارف تتعانق على الجدران في ألفة وانسجام ليتحوّل المكان إلى جنّة وديعة تسكنها الملائكة.
مدّت إليه كأسا من عصير البرتقال ثمّ قالت:
هذا على نخب حياتك وصداقتنا !
أجابها مرتجلا:
لا أظنّ أستحقّ كلّ هذا الودّ سيدتي. ما حصل كان تهوّرا منّي، صيد الخنزير في فترة التوالد يلزمه الكثير من الحذر. المهمّ أن تكوني فعلا استمتعت بذلك رغم كلّ ما حصل.
قال موافقة:
الرحلة كانت ممتعة حقّا. أنا أعشق رائحة هذه الأرض يا علاّوة وكلّ ما فيها حتّى الناس البسطاء. كنت في صغري أخرج مع جدّي العملاق إلى البحر وظننت حدّ الكون الفسيح ينتهي عند تخوم الأفق. ها أنّني اليوم أكتشف الثلوج والغيوم المتناطحة وهامات الجبال.
تحدّثت بنبرة شاعريّة عميقة وكأنّها تعرض لأوّل مرّة جزءا من دواخلها على إنسان تعرفه منذ زمن. ولئن لم يفهم علاّوة المسكين فلسفتها فلقد استحسن كلماتها ونفذ بحدسه إلى مشاعرها. عرف أنّها رقيقة العواطف ميّالة إلى الطبيعة والأزهار والخيالات، تروم المغامرة والتجارب. قال لها:

لعلّك الأولى التي تعجب بهذه البلدة الفقيرة. ما من أحد استقرّ بها إلاّ واكتشف أنّها لا تصلح للعيش. الناس هنا مساكين يعيشون ليومهم بصعوبة ويصدّقون بالبرد والطعام أكثر من أيّ شيء آخر.
ودّ أن يقول لها كيف يستقبل الناس لسعات الثلج بأرجل حافية وأكواخ بائسة لكنّه آثر الصمت، أبى أن يكدّر مشاعرها وأحلامها. لقد جبلت أن ترى الكون على هواها ولم تعرف أنّ البطون الخاوية لا تجد وقتا للمرح والهوى. حينما يرى شفتيها المتلئتين وذراعيها البضّتين يحسّ بجاذبيّة ساحرة تدفعه إلى موافقة هواها.
قالت بنبرة مداعبة وتلطّف:
يكفيني شرفا أنّي الأولى التي ترى أشياء جميلة في هذه الجبال لا يراها غيري.
تتحدّث وترسم في الهواء دوائر وأشكال بملعقة صغيرة فضّية ثمّ تقرّب كأس العصير من شفتيها دون أن ترشف منه. بدت وكأنّها تثير الاهتمام إلى شيء ما. الطفولة الراسبة في أعماقها تدفعها إلى أن تطرح خجلها جانبا وتقول مبتسمة:
يكفي مثلا أنّني اكتشفت شقيّا جميلا مثلك يا علاّوة !
نزلت العبارة كالحمّى وامتدّت موجاتها من فمها إلى أحشائه. اضطرم بداخله انشراح عجيب ممزوج بالخوف والمهابة. فعلا صرت شقيّا جميلا يا علاّوة ! وما أجملها من عبارة تخرج من شفتي ملائكة ! إمّا أن يكون ذلك هدفا لحبّ عارم أم أنّك حالم مجنون يا علاّوة؟ ثمّ ما الذي يجعلك جميلا في نظرها إن لم تكن العظام تصفّر على بعضها كما قال مقداد؟
يا لحظّك يا علاّوة ! ستدير لك الحياة بصدرها ويشرق فجرك من حيث لا تدري !
في غمرة نشوته ألقى بالكلفة إلى الريح الأربع ثمّ همس لها:
إنّي لا أستطيع أن أخفي الودّ الذي يتحرّك في أعماقي. وشرف عظيم لي أن أخدم سيّدة فاضلة طيّبة مثلك.
خاطبها والخجل يحرق قلبه ثمّ ازداد ارتجافا لكنّه أحسّ بنفسه تنفلت من عقالها وتهتف من أعماقها غصبا عنه.

* * * * * *

لا تزال الأنفاس لاهثة والبخار يسري من الأفواه، الريح الباردة تسفع الوجوه، عادت الأمور فجأة إلى نصابها وتمكّن عاشور من إخماد المظاهرة وتلجيم الألسن. ارتفعت الأصوات والأصابع تتّهمه بالجريمة لكنّه ضرب عليها بقبضة من حديد.كلّ شيء يغفر إلاّ أن يكون هونفسه المستهدف في هذه البلدة العاهرة.
كان المركز يغصّ بالموقوفين، حتّى الشيوخ والأطفال لم يسلموا من بطشه.
اصطفّوا في رواق طويل ضيّق وأنفاسهم لا تزال تلهث في صمت. في الطرف المقابل لس كهل صارم
إلى طاولة صغيرة عليها آلة راقنة وبضعة أوراق. كان بارد المظهر توحي سحنته بأنّه من ذوي الخبرة الطويلة في عمله.
ظلّت الجموع تنتظر بخوف ونفاذ صبر مصائرها حتّى دلف عاشور من وراح يتفرّس الوجوه شاتما ومزمجرا. يصبّ غضبه تارة بلكز بعضهم بعصاه وأخرى بقذفهم بكلمات نابية. صعق في شابّ قويّ البنية:
سأجدّف لك تلك الشوارب يا ابن الزانية حتّى تعرف من هوعاشور. ومن سيرفع صوته مستقبلا سيلحق بالسرجان.
نظر الشاب باستسلام ثمّ طأطأ رأسه. ظلّ عاشور يذرع الرواق الضيّق مزهوّا بظفره وسيطرته على الوضع حتّى التقت عيناه بعبد الهادي. حدّق فيه طويلا ثمّ أمسكه من ذراعه وقذف به إلى داخل المكتب. كرّر ذلك مع ثلاثة آخرين. لم يرتح إلى سحنتهم الهادئة ومظهرهم الأنيق. صفق الباب وراءه حتّى ارتجّت الحيطان وتراقصت لمبة النور المتدلاّة من السقف. طلب بطاقة الهويّة من أحدهم ثمّ سأله بنبرة آمرة:
كنت في المظاهرة هذا الصباح، رآك الأعوان تحرّض وعلى الفوضى الثلب ، لا أظنّك تنكر ذلك؟
داعب مقبض العصا بيده ثمّ أردف:
- لا تكن صعب المراس معي، أنا أكره العناد وغضبي يتضاعف مع الذين يدّعون المقاومة والرجولة أمامي
قال الرجل بلهجة واثقة:
إنّي لا أنكر سيري وراء التابوت ؛ لأنّ السرجان صديق قديم، لذلك أعتبر نفسي شاركت في جنازة وليس في مظاهرة. ثمّ لمّا بلغنا الشارع سمعت البعض يتحدّث عن جريمة وأشياء أخرى.
اقترب منه ثمّ هوى عليه بصفعة حتّى ارتدّ إلى الوراء، زعق فيه كالمجنون:

تتصنّع البطولة معي أنا أيّها الكلب، ستتكلّم من أستك إذا اضطررت إلى ذلك، وتؤكّد في المحضر شهادة الأعوان. الرجال الذين عصوني جززت لهم أعضاءهم وهم الآن كالحريم في السجن. لا تتصوّر أنّي سأصدّقك بما تقول بمثل هذه السهولة.
التفت إلى عبد الهادي والاثنين الواقفين معه ثمّ أردف بسخرية غاضبة:
وأنتم كذلك، لا تقولوا لي أنّكم تحبّون السرجان فقط. لا أحبّ أن أفقد صوابي معكم من أجل حقيقة بائنة وجليّة. سمعت في الصباح كلاما يتّهمني بتعذيب السرجان وشعارات خطيرة، لا يخفى عليكم أنّه ثمّة من شهد ذلك ضدّكم لذلك لا فائدة من الإنكار.
دافع المتّهمون عن أنفسهم بحرارة وجرأة، في حين كان عاشور في كلّ مرّة يردّ بالضرب والشتم والبصاق.
صفع عبد الهادي مرّتين ثمّ ركله على عضوه فانكمش وبقي يتضوّر ألما.
دام التحقيق زمنا واستنفد عاشور كلّ أساليبه، لم يبق غير كتابة المحضر، لعلّه أيقن أنّ المظاهرة كانت عفويّة دفعها العطف والحسرة على السرجان. الأوغاد أنكروا قيادة المسيرة والمشاركة في تنظيمها، اعترفوا بأشياء لكنّهم نفوا فكرة التنظيم والتخطيط، لعلّهم على حقّ ! فأشياء كهذه لا يقدر عليها إلاّ واحد كاللاّفي وأمثاله وهؤلاء بسطاء الوعي والتفكير وإلاّ لصمدوا أمام التعذيب.
تضاءل عقب السيجارة في يده وراح يحدّق عبر النافذة. يزن الأمور في صمت.. المناعي، العمال والإضراب ،السرجان، سي ماجد.. أشياء كثيرة تنتظره، نزلت عليه مرّة واحدة وعليه أن يتدخّل قبل أن تنفجر. أحسّ أنّ البلى والفوضى سيشيعان في هذه البلدة القذرة إذا لم يسارع بقطع دابر المخرّبين. ماجد.. آه ! هوالآخر سيكون في الحساب ولكن الأدلّة مازالت ناقصة. عليه أن يبدأ بما هوخطير، بما يهدّد أمنه وبعدها يجهز على البقيّة مرّة بضربة فأس. المخبرون رأوه مع العصر يخرج إلى " فيلّة " سالم طريدة ثمّ يركبان السيّارة إلى مناطق مجهولة. هذا لا يكفي، لا تطفئ ضمأه إلاّ القرائن الواضحة، والتعامل مع ماجد يتطلّب مزيدا من الحذر والتحرّي. يمكن للأمور أن تنقلب ضدّه قبل الأوان.
أشعل القدّاحة وظلّ ينظر إلى شعلة اللهب تتراقص أمامه، تأمّلها كالمنتشي ثمّ نفث عليها الدخان فانطفأت.
بقي المكتب ساكنا تنبعث منه رائحة التبغ ة الرطوبة، برزت جدرانه المسخمة والمتآكلة من الندى وعلقت عليها لوحات عديدة تحمل بعض الخرائط والقوانين. وفي ناحية أخرى إطار زجاجيّ يحمل أوسمة عاشور منذ أن التحق بسلك الأمن ثمّ مزهريّة قديمة بورود بلاستيكيّة تزين المكتب المتواضع.

فتح عاشور الدولاب ثمّ أخرج ملفّات صفراء عديدة وراح يتفحّصها. رنّ جرس الهاتف فجأة يقطع الصمت. في المرّة الثالثة رفع السماعة:
آلو، من يتكلّم؟ آه أهلا سي عبد الحفيظ، كيف الحال؟ بخصوص ابني إلياس بلا شكّ؟ إلياس أخباره طيّبة ونتائجه حسنة، يبقى يا سي عاشور مسألة غامضة ربّما تحتاج إلى توضيح !
أطرق برهة وقد حيّرته المكالمة، لا سيما وأنّها أوّل مكالمة يتلقّاها من مدير المعهد، لم تكن بينهما سابق معرفة. سأله متلهّفا:
ما الذي يحتاج إلى توضيح؟ أنا لا أفهم !
أخبره المدير مباشرة:
أستاذ الفلسفة، لم يلتحق بالمعهد منذ شهرا تقريبا لذلك نحن مضطرّون إلى معرفة الحكاية. قلنا ربّما هوبصدد الإيقاف أوشيء من هذا !
سكت لحظة ثمّ أردف موضّحا:
أنت تعلم سي عاشور أنّه يجب في كلّ الأحوال إيفاء الوزارة بالأسباب في أقرب الآجال. هي تعليمات إداريّة كما تعرف وإلاّ لما تدخّلنا في عملكم. أرجوالمعذرة على أيّة حال إن كان الأمر تدخّلا في أسرار عملكم.
تنحنح وقد فهم بسرعة مقصد المدير، فاجأه الخبر لكنّه استغرب في الأخير، صاحبه يعتقد أنّ اللافي موقوف عنده ويطلب شهادة إدانته. وكمن استفاق من غفوة ردّ عليه:
أظنّ أنّك أخطأت التصوّر يا سي عبد الحفيظ ؛ لأنّي آخر من يعلم بالحكاية ولوأنّني أرغب في معرفة هذا اللغز. لكن ليس مهمّا، سوف أتولّى البحث عن أستاذك بنفسي لأنّ اختفاءه المجهول صار الآن يشغلني.
حيّاه ثمّ أغلق السمّاعة بقوّة. كان الخبر قد نزل عليه كالصاعقة، كلّ الأوراق التي رتّبها انخرمت وحتّى زهيرة سوف تفشل في خطّتها..إنّ اختفاءه في مثل هذا الوقت له معنى ! لعلّه تفطّن إلى الخطّة !
لا يمكن أن يهرب اللافي بهذه السهولة إذا لم يشمّ رائحة ما..
انقبضت أسارير وجهه وقد أحسّ بخيبته الثانية، انسدّت أمامه كلّ الثغرات وتوقّف دماغه عن التخطيط. لأوّل مرّة يشعر بالأمور تستعصي عليه فبدت ملامحه متشنّجة ورقبته نافرة العروق.
لا يمكن أن تفشل بهذه السرعة يا عاشور، ولا يجور أن ترمي المنديل باكرا.. صحيح أنّ الكبر قد أخذ منك وتراجعت صحّتك ونشاطك ولكنّ دماغك لا تزال صلبة في التفكير والدهاء وتستطيع أن تطحن أيّ مخلوق يستعصي عليك.
نظر إلى ساعته ثمّ راح يسدل الستائر في مهل وكان الليل قد اغسوسق..

* * * * * *

اختلف شهود عيان في شأنه، أقسموا أنّهم رأوه يقفز إلى الخارج والنيران تأكله من كلّ جانب، كان يلغط بكلام غير واضح، ثمّة من سمعه يهذي: ''الكوابيس قتلتني ردّدها ثمّ لفظ أنفاسه ''

حكى منوّر الأعرج الواقعة متأسّفا، قال: كنت أمرّ كلّ مساء على مقداد نترافق إلى مقهى العيّاشي للعب النرد. في أيّام اليسر نطلب نارجيلة كاملة ونظلّ على الطاولة حتّى تغلق المقهى. لكنّي لن أنسى ذلك المساء الذي وجدت فيه مقداد أمام الحوش يدخّن بصمت، لم أر قطّ وجهه بذاك الشحوب وسحنته مسكونة بالهواجس.

اعتذر عن مرافقتي وقال لي بالحرف الواحد:

إنّ دماغي ستقتلني يا منوّر ! الصداع يزيد وأحيانا أرى كوابيس مزعجة حتّى في اليقظة.

أردت أن أخفّف عنه بشيء من الكلام، ثمّ ألححت عليه من جديد ريثما يخفّ عنه الألم وينسى الصداع لكنّه امتقع وطلب منّي أن أعفيه ذاك اليوم. قال إنّه يرغب في النوم. ظلّ يدخّن بشراهة وينظر إلى البعيد لم أكن أفهم وقتها أنّه يخطّط لشيء ما. كلّ ما أتذكّره هوذلك الوهج الذي يتّقد في عينيه عندما خاطبني وارتعاشاته المتقطّعة كلّما وضع السيجارة في فمه. أحسست وقتها أنّ شيئا في الأعماق يوشك على الانفجار.

سألته مستغربا:

أنا أخوك يا مقداد ، صارحني إذا كان ثمّة شيء يقلقك !

خفت أن ألحّ عليه بالسؤال لكنّه صاح في وجهي فجأة كمن فقد صوابه:

بالله عليك اتركني وشأني ! لا تفهم.. عندي صداع هذا كلّ ما في الأمر

لمّا تسلّلت بحذر عبر فتحة صغيرة من الحوش، سمعته يغمغم ويتوعّد بكلام غامض. التفتّ لأتبيّن هل يحدّث أحدا، لكنّي رأيته يدلف إلى الكوخ وحده.

في الليل حملت له علبة من التبغ ورحت أستطلع الأمر، قلت في نفسي لعلّ مزاجه يصفوقليلا ويندم عمّا قابلني به في المساء. بيد أنّي بمجرّد أن عتّبت مدخل الحوش حتّى فاجأتني والدته فجريّة، ظهرت أمامي كالشبح وهي تذرع الساحة خائفة.

أخبرتني أنّه نائم، لكنّها سألتني متوسّلة عمّا أصابه، لقد سمعته يتوعّد ويغمغم وحده بأشياء لم تفهمها.

جذب منوّر أنفاسا ثمّ نفث كوما أربد من الدخان وقال:
كان ذلك آخر عهدي به حيّا. لا يعلم ما بداخله إلاّ الله.
بسط ساقه الخشبيّة الصلبة أمامه ثمّ اعتدل في جلسته وأردف قائلا:
فعلا، كان انتحاره فظيعا. أنا لا أريد أن أتذكّر ثيابه المحروقة ملتصقة باللحم.كلّ من عاين المشهد اقشعرّ بدنه لذلك المنظر. في لحظة قصيرة انتهى كلّ شيء، وسرعان ما انبعثت رائحة الرماد ممزوجة بروائح المحروقات.
لم أكن أنام في البيت عندما يكون الجوّ صحوا. أخرج مع الأماسي لأتمدّد تحت عريشة الكروم ثمّ أظلّ هناك حتّى يحين المساء. يومها جاءت فجريّة حافية وهي تندب وتستغيث من بعيد. قالت الكوخ يشتعل و" الصفاقة " مقفولة من الداخل ! لم تذكر مقداد وقتها لأنّها المسكينة لم تتوقّع الكارثة. خافت على كوخها المتواضع الذي قضت فيه كامل عمرها. لم أدر كيف نهضت بدون أن اعتمد على حواملي المعدنيّة رحت أخبّ مذعورا، أقع ثمّ أقف من جديد مستندا على الأعمدة والزرائب. اجتزت العريشة ثمّ دلفت من الحوش فوجدت الناس قد سبقوني بالرفوش والدلاء والصراخ. ظلّت عساليج اللهب تتكلّم وحدها بدون رحمة فتحدث طقطقة غريبة في هشيم السدر والسرخس الجافّ. لم يستطع أحد أن يزيح " صفاقة "الحديد الساخنة ولا أن يقترب من الكوخ. كانت روائح الروث الجافّ تسدّ الأنوف والحلوق. لم يكن أحد يعلم بمقداد في الداخل ولا حتّى أنا. توقّف ذهني لحظتها أمام العويل واستغاثة العجائز والأطفال.
تنهّد منوّر مستغفرا ثمّ سكت وكأنّه يستجمع ما تبقّى من الحكاية ثمّ واصل:
- لا أريد أن أتذكّر المشهد، كان فظيعا مؤلما. اندفع من الداخل لمّا سقط جزء من السقف المحروق وتطاير الرماد ممزوجا بالقشّ. زعقت فجريّة ثمّ سقطت بينما راح البعض يلفّونه بعباءاتهم ويهيلون عليه التراب. لم أسمع جيّدا وقتها ماذا كان يغمغم؟ لعلّه كان يتألّم أويبوح في غمرة ذلك بمكنونات صدره ! من يدري؟
لمّا لفظ أنفاسه كان جاحظ العينين والزبد يسيل من شفتيه أبيض خاثرا. الله يرحمك يا مقداد ! والله يسامح من دفعك إلى ذلك !
كان الشيخ قدوّر ينصت للحكاية بدقّة، وفي كلّ مرّة يقذف بمخاط من التبغ أمامه. دسّ بإصبعه ذرّتين تحت لسانه ثمّ قال معلّقا:
الشجرة ما تقول طق إلاّ وفيها شق، تعرف يا منوّر أنّ اللغط كثر هذه الأيّام حول مقداد بعد موت السرجان !
أراد أن يسترسل في الحديث لكنّ منوّر قاطعه مشمئزّا:
عيب يا شيخ أن تقول هذا، ما كان أن تنهش الأعراض وتنبش في الموتى ! هذا أجله مهما تعدّدت الأسباب.

بدا عليه الارتباك والنفور، وبرغم أنّه يعلم مثل هذه الشائعات فإنّه ربّما بدافع الصداقة وحبّه لمقداد، راح يهاجم قدّور ويؤنّبه خوفا على عرض صاحبه حتّى وهوتحت التراب.
أمام الموت كلّ شيء يهون حتّى الحقائق الثابتة. قالوا كلاما كثيرا حتّى أنّهم حمّلوه مسؤوليّة موت السرجان.. الله يسامح الناس ! وأعوذ بالله من أولاد الحرام، ينهشون أعراض الموتى ولا يتركون أحدا في راحة !
ضغط منوّر على حوامله المعدنيّة ثمّ انتصب واقفا. اعتدل قليلا ثمّ راح يخبّ بعنف وغضب ويضغط بعكّازيه على الأرض بقوّة.
* * * * * *

لمّا عاد إلى " الفيلّة " ثانية وجدها ترتدي فستانا من " الدانتيلاّ " يبرز جزءا من نهدين صقيلين. كان لا يتراجع أبدا أمام ذبذبات عينيها وسرعان ما يحسّ بقلبه ينبض على غير العادة وتنحبس في حلقه الكلمات. يومها كان يتصرّف كالأبله. اصطدم بالكنبة مرّتين ثمّ دلف إلى الصالون بدون أن يستأذن. نظرت إليه وكأنّها تزنه بعينيها ثمّ مدّت له أصابع طريّة ناعمة. لأوّل مرّة يصافحها ويتحسّس بقبضة يده شيئا أملس يرسل في أحشائه ذبذبات متّقدة. قالت له في أناة وتغنّج:
إنّي أشكرك يا علاّوة على وفائك، ما كنت أظنّ أنّك سوف تفي بزيارتك مرّة أخرى !
سحب يده برفق ثمّ قال:
لا داعي للتكليف سيّدتي، منذ أن أعلمني الفرجاني لم أستطع أن أرفض لك طلبا.
ضحكت منتشية ثمّ أردفت:
أنا التي أدعوك يا علاّوة، اعتبرني صديقتك، من الآن نادني مريم فقط هكذا بدون أيّ شيء
ثمل بجاذبيّة كلامها، لعلّه بدأ يحدس أنّها شديدة التعلّق والشغف به، لكنّه لا يصدّق نفسه. واحدة كمريم امرأة عميقة الغور بعيدة المنال، ليست تلك التي تمنحك مفاتيح

قلبها بسهولة.. إنّها تثير الأعصاب بهدوئها وشفافيتها. كلّما وقف أمامها أحسّ وكأنّه يخاطب جنيّة مسحورة توقع في نفسه الرهبة.
خاطبها ملاطفا:
إنّه شرف لي أن تعاملينني هكذا، ولوأنّي أحسد على صداقة امرأة طيّبة وجميلة مثلك.
تورّد خدّاها وهي تستلذّ عبارات علاّوة المتواضعة، ثمّ داعبت خصلات شعرها بحركة عفويّة. منذ زواجها لم تسمع من ماجد غير كلمات باردة تشبه تلك التي نقرأها في المسرحيات الهزليّة. حتّى في حالات الهدنة بينهما، لم يكن يحدّثها إلاّ عن نفسه أومشاريعه في السياسة. تكلّس قلبها ومات أمّا عاطفتها فصارت كمنفضة الرماد.
نظرت إلى علاّوة، وكأنّها قد استمدّت دفء قلبها من حرارة كلماته وصدقها. ها هي تستعيد خلجات روحها مع أيّ إنسان صادفته ! لعلّ فيه من الصدق والعفويّة ما لم يوجد في غيره. إنّه يحبّ بالغريزة وينفذ إلى أعماقها بسذاجته وهذا ما يزيدها شغفا.
أحيانا تحسّ وكأنّها تخاطبا طفلا بريئا أصغر من عمره الحقيقي. إنّ حرارة القلب النبيلة وإشراقة المشاعر لا تعرف حدودا أوصنفا معيّنا من البشر. قد تكتشفها عند الأبله كما عند المجرم أوالسكيّر أوراعي الغنم.
قالت له بنبرة هادئة وقد صفا وجهها:
إنّي شاكرة لك يا علاّوة هذا الصدق.سعة قلبك فيّاضة، لا أدري كيف أقول؟! أحيانا أحسّ أنّ وجودك معي يعيدني إلى ذكريات بعيدة، كالأطياف. إنّها برغم عنّي، حتّى أخالك بعثت لي من جديد يوم رأيتك من أعلى الشرفة انتابني مثل هذا الإحساس. لعلّها المرّة الأولى التي تعرف فيها مشاعري ولكنّها الحقيقة.
كانت تتكلّم وكأنّها تقف على كرسيّ الاعتراف فجأة، تخرج من فمها الكلمات عفويّة متدفّقة بحرارة غامضة كالسيل الحامي. لم تبالي بشيء ولم تعد تقرأ حسابا إلاّ لشيء واحد، هوأن تنفذ بأعماقها إلى الهيكل الفارع الذي يقف أمامها. ملامحه الغليظة وفروة شعره كالأسد، يجعلانه في مخيّلتها عملاقا من عمالقة الرومان.
طلبت منه أن يجلس على الكنبة ثمّ مدّت له حشيّة ذات حوافّ من المخرمات. لم يصدّق ذلك حتّى أنّه طفق ينظر إليها مرتجفا متسائلا، عمّا إذا كان يحلم أم أنّ أوهامه الغامضة قد ثبتت ! الآن فقط تفطّن إلى أنّ حدسه لم يخطئ. يشمّ الحقيقة من عينيها المتوهّجتين كالعسل. في نظراتها نداءات لا تنتهي وعلى شفتيها نضارة ونعومة لا تنضبان. إنّه باب العرش ولكنّه هذه المرّة في اليقظة. سوف لن يتلاشى أويختفي بمجرّد أن يطلب منه فتح السعد ومباركة الحظّ.

وضع مؤخّرته على الحشايا الطريّة وهوثمل، حالم برعشات حلوة تسري في جسمه. لكنّ خوفا مجهولا بدأ يلسعه ويرتدّ به إلى الوراء، يوقظ فيه واقعا مروّعا. يتذكّر الفرجاني، ماجد والمخاطر التي تحدّق به إذا ما تمادت العلاقة على هذا النحو.إنّه يلعب بالنار ويطرق أبواب الرعب. إن يبلع الطعم هذه المرّة سوف تحصل الكارثة. لن يبدي لها شيئا يجعلها تتمادى في التعلّق به ! لكنّه مهما حاول فلن يستطيع، ثمّة شيء في عينيها يخسفه ويصيّره هشيما طيّعا كالعجينة. هذه الجنيّة تقتل أعتى القلوب !

همس لها في تخاذل وقد خانه لسانه ك

لعلّي لا أستطيع أن أخفي مشاعري مثلك. أحيانا يخيّل لي أنّني كائن فوق البشر كلّما نظرت إليك. لكنّ الخوف هوالذي يصدّني، ليس من السهل أن تربط امرأة مصيرها بإنسان عاديّ، بل أقلّ من العادي. إنّنا نطرق أبوب الخطر ولوأنّي الآن صرت مسحورا حقّا بك.

ومضت عيناها وقد تأكّدت هي الأخرى من أنّ قلبها لا ينبض عشوائيّا. عادت أنوثتها فيّاضة في كلماته وتدفّق في جسمها شريان الحياة. لعلّقا ترقص في أعماقها وهي تستعيد دفئا مضطرما بعد قرّ طويل. إنّها الحياة تهدي لها علاّوة ! لن تضيع الفرصة، ولن تتوانى في الإبحار معه إلى النهاية. الحياة لا تجود مرّتين..

فرقعت زجاجة الشمبانيا في يدها ثمّ صبّت كأسين إلى النصف. طفت الحبب على السطح ثمّ راحت تنشّ نشيشيا لذيذا يشبه وقع الرّذاذ على الأشجار. قدّمت له الكأس تمسكه بإصبعها من الأسفل ثمّ همست:

هذا على نخب الصاعقة التي دمّرت حصون قلبينا ! إنّني اليوم في أسعد لحظاتي !

قال لها منتشيا:

وأنا كذلك، أيّتها الجنّية الساحرة. نحن منذ نولد بين هذه الجبال نعتقد في الجنّيات وبنات سلطان الجان اللواتي يسكنّ قلوب الفتيان والرعاة والهائمين وساهري الليالي الباردة. يسكنّ حتّى أشجار الرمّان عندما يشتعل الجلنّار وتثمر عروق الكروم ويحللن في المروج والسواقي. الجنّيات لا يظفر بهنّ إلاّ من كابد وانفتح له باب العرش مع آخر الغسق أوتاهت به دياجير الليل المعتّمة في الوهاد والجبال.

أصاخت إليه بإجلال وكأنّها تسمع أصواتا تنشد ألحانها الغامضة في الكهوف.

تخيّلت الجنّيات يرقصن كأطياف أثيريّة تنثرها أنفاس الليل الحالكة. سرحت بخيالها في المجهول وهي تصغي لكلامه. رشفت من الكأس بنهم، لم تجد لذّة في الشرب كمثل هذا اليوم. إنّها تظفر بمذاق الحياة بعد برود ومرارة داما سنينا.

اقتربت من الكنبة حتّى ألفت جسدها لصق جسمه الفارع فازدادت نشوة. صبّت كأسين من جديد.. لم تعد تدري ما تفعل ! طرحت الخوف والخجل جانبا وراحت تداعب كفّ يده الغليظة وتمرّر أصابعها الناعمة برفق على أصابعه. هتفت من أعماقها:
إنّي لا أشعر بالأمان إلاّ معك..
ما كادت تنهي كلماتها حتّى جذبها إليه واعتصرها بين ذراعيه. طقطقت عظامها فشدّد من ضمّها وهي تتأوّه ثمّ انحنى عليها بشفتيه وكأنّه يمتصّ رحيق الزهر. انفرجت شفتاها وسرت أنفاسها حامية كالنّار. كلّما تأوّهت إلاّ وازداد هياجا وزادت ذراعاه صلابة. صار يقضم شفتيها ويمتص.. لم يعد يبالي بشيء انخرم الخيط الذي ينتظم الأشياء وزالت الحواجز.. غاب عن ذهنه ماجد والفرجاني والعالم بأسره. في مثل هذه اللحظات تغدوالحياة فيّاضة بعربدتها الهوجاء ولا يعود حتّى للموت حسابا. كانت تستجيب لضمّاته فتمسّد على ظهره وتداعب فروة شعره بجنون. تحوّلت القبلات من الرقّة إلى العنف.. تصاعد لهاثهما وهويلعقها من رقبتها وخدّيها. لم يذق حلاوة القبل في حياته بمثل هذه النشوة. كان عندما يقبّل خيريّة أوهادية يتضرّج وجهها وتسيل دموعها خوفا وخجلا. مريم تبدوشيئا آخر، إنّها ساحرة فعلا ! تقبّله بنفس الرغبة والعنف.. ترى هل كانت هادية تشعر بنفس الرغبة عندما تبكي بين ذراعيه؟!
خفتت أنفاسهما وخمدت شيئا فشيئا. لم يصدّق أنّ مريم في حضنه. لورآه الفرجاني لانفلق رأسه وخرجت عيناه من محجريهما. مازالت تضع صفحة وجهها الطريّ على صدره.همست له بهدوء وجبينها يلمع بندى الانشراح:
سنخرج ثانية إلى الجبل بمجرّد أن تشفى ساقك ولكن هذه المرّة سنكون وحيدين.
* * * * * * *
لمّا غادر علاّوة "الفيلّة" أحسّ وكأنّه مازال يحلم. ظلّ يمشي منتشيا، مستعيدا المشهد بتفصيلاته. لا يزال ندى شفتيها ورائحة أعطافها في جسمه. سار في المنحدر فألفى المدينة نائمة، بعض الأضواء الخافتة تنوس من الشبابيك. كان الليل ساجيا مقمرا لكنّه شديد البرودة.

* * * * * *

استطاع سليمان أبوالشوارب أن يشدّ الجموع المتراصّة بقوّة عجيبة. لم يكن في البدء يتصوّر أنّه ينجح في ظلّ غياب اللافي. من الصعب أن يرث أسلوبه ولغته التي تنفذ إلى الأدمغة بأعجوبة. اليوم فقط تأكّد من خلال عيونهم المتّقدة وتطلّعاتهم إليه أنّه أمام

مهمّة صعبة. بدأت أعدادهم تتزايد، أغلبهم من الحضائر ومصنع الخشب وفيهم من قطاعات أخرى. كانوا يملأون القاعة بغمغماتهم وهمساتهم الجانبيّة. سعلات متواصلة في ناحية أخرى.. روائح التبغ والأنفاس تدمع العيون.على الجدران المسخمة والمتآكلة علّقت شعارات مختلفة وتحتها صورة فرحات حشّاد.
دخلت جموع أخرى وبقيت واقفة من الخلف. الأعناق مشرئبّة تنتظر بداية الاجتماع. أبوالشوارب يتوسّط سعيد الفهري والطاهر. خلفهم جلس العمّ رابح، لم تبق له غير بضعة شهور على التقاعد.
تنحنح وكأنّه يعلن البداية فانقطع الحديث تدريجيّا وساد الصمت. بقيت العيون فاغرة والسجائر صاعدة نازلة بحركة آليّة. تكلّم أبوالشوارب عن محاور الاجتماع والغرض منه:
إنّنا نجتمع اليوم يا إخواني لنقرّر كيف سنتصرّف مع الأعراف والعتاة الذين ازدادوا شراسة. هذه الأيّام أطرد عدد من عمال شركة الخشب. عملة النزل أجورهم مجمّدة منذ شهرين، يقولون أنّ السياحة كاسدة ويجب إيقاف بعض العقود. الكثير يتعرّضون للحوادث بدون تأمين. طالبنا مقابلة البعض منهم لكنّهم رفضوا، ماطلونا ولم يردّوا علينا حتّى الآن.
راح يعدّد قائمة طويلة من المشاكل والانتهاكات وفي كلّ مرّة يستوقفه واحد من الحاضرين ليضيف مشكلة أوحادثة جرت له. قال أحدهم مستوقفا أبا الشوارب:
سقطت عليّ مجرورة من الحديد منذ شهرين،بقيت أعالج في المستشفى على حسابي ثمّ لمّا قدّمت الشهادة الطبّية إلى المدير قال لي: '' روح امسح بها ''.
تبلبل الحاضرون وحدثت غمغمة غاضبة مستنكرة. همس كهل غليظ الملامح إلى صاحبه:
أولاد القحبة يطعموننا فتات موائدهم ويصرفون المال في الخمور والنساء والليالي الملاح. الواحد منّا لا يتقاضى حتّى ثمن قارورة خمر من التي يشربونها.
نهره صاحبه ثمّ لكزه كي يخفض صوته. قال له مؤنّبا:
ليس هكذا نتكلّم أمام سي سليمان. إنّنا في اجتماع ولسنا في مقهى أوحانة.
ضرب أبوالشوارب بقلمه على الطاولة ليستعيد الصمت ويقطع الهمسات الجانبيّة ثمّ استأنف:
إنّنا إخواني أمام مهمّة صعبة. طلبنا من البعض زيادة بسيطة عن الساعات الإضافيّة وقدّمنا إحصاء عن زيادة الأسعار منذ سنوات بينما الأجور مجمّدة. الكلّ يتحدّث عن النقص في الإنتاجيّة والضرائب المشطّة. يذكرون فقط ما يتعلّق بأرباحهم.
سكت لحظة ثمّ أردف:

هكذا ترون أنّ المشاكل واحدة في كلّ القطاعات. أوّل شيء هوأن توسّعوا قاعدة انتمائكم لهذه المنظّمة. فهي الوحيدة التي تحميكم من غطرسة وانتهاكات العراف. لا يمكننا إذا أن نقرّر الإضراب إلاّ بتكافلكم القويّ وشعوركم بأنّ المصلحة واحدة. يمكن أن يلعبوا على تخاذلكم أوخوفكم فيقدّموا لبعضكم امتيازات مغرية على حساب أغلبيتكم. إنّنا لا نقرّر إلاّ ما أنتم موافقون على فعله ومستعدّون إليه.

تضاءل عقب السيجارة فدعسه وأشعل أخرى. العيون ترمقه، تركن في بريقها الضغائن والأحقاد لكنّها مشلولة الحركة، حائرة لا تعرف كيف تصبّ غليانها. وجوه الفلاّحين والمزارعين باهتة ربداء تنظر بحقد يائس. أحيانا يتمتم أحدهم بخشوع مستكين:

لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. الله يسامحهم على أفعالهم.

ثمّ يمسح وجهه أويحكّ عينيه ويقبّل إصبع الشهادة. سحنات كهذه ألفها أبوالشوارب وعرف أغوارها من قريب. يحسّ أحيانا أنّها تحبط الآمال قبل أن يشقشق فيها بصيص النور. يشعر مرّات وكأنّه يدقّ الصلب أويجدّف ضدّ تيّار عات. هؤلاء أنصاف الكادحين يقنعون بسلطان أوليائهم أكثر من سلطانهم وإرادتهم.

قال له أحدهم:

الدنيا أقسام يا سي سليمان وكلّ واحد ونصيبه. تصوّر أنّني أعيل سبعة رؤوس بأجر ضعيف والحمد لله. المال إذا لم تنزل فيه البركة تلاشى من اليد.

يعمل حارسا ليليّا بإحدى مخازن القمح، قناعته تبدومن الشامة السوداء على جبهته. لولم يكن الاجتماع لبصق أبوالشوارب عليه وسحبه من لحيته خارج القاعة.وجوه كهذه تشلّ ذهنه وتقرفه. المستنقعات الآسنة لا تنبت الزنابق. تذكّر اللافي كيف كان يحذّره: '' إنّهم عبيدوبطونهم، عندما يتعلّمون الكرامة بإمكانك أن تعوّل عليهم. '' غالبا ما يلومه على ذلك أويعيب عليه تطرّفه الزائد وتعقيد الأمور. قال له يوما:

إنّك تؤمن بما تقوله الكتب أكثر ممّا يريك الواقع.

اللافي كان يعرف أنّه يحرّك أذهانا صدئة وقلوبا مستكينة ألفت الطاعة والولاء منذ الاستعمار. أبوالشوارب كان يسأل الغيث في الفلوات الصّاهدة ، فتتوارى الأحلام بسرعة وترتدّ أمام قساوة الواقع وعبثيّة المصير. إنّها الهواجس المستحيلة، لمعة آيلة إلى الأفول. كيف يينع الزهر من العفن؟!

ترك المجال لسعيد الفهري يتكلّم، بدا أكثر حماسا وحيويّة. في كلّ مرّة يقرأ قائمة المطالب ويشرح بعضها مؤيّدا ما قاله أبوالشوارب. قال لهم بنبرة واثقة:

إنّنا لن نتراجع عن مطالبنا ن ليس لدينا ما نخسره. فقط يجب أن نتهيّأ للإضراب إذا ما فشلنا في التفاوض معهم.

تناوب بعده أعضاء آخرون. في كلّ مرّة يعيد الواحد منهم نفس الخطاب بشكل مغاير. اتفقت مداخلاتهم على نفس النقاط. أحيانا تتحرّك الرؤوس وتتمتم الأفواه إطراء. ثمّ تضجّ القاعة عند سماع مشكلة طريفة.
لمّا تكلّم العمّ رابح لقي حفاوة خاصّة. صمت الجميع تقديرا لسنّه التي أفناها في العمل النقابي. مازال يرتدي المعطف الألماني القديم ويضع حذاء شتويّا طويل الرقبة. أعاد تقريبا نفس الكلام بلهجة أقرب إلى العمّال. مثّل تكاتلهم بحائط من الآجر، إذا تداعى جزء صغير منه انخرم بأكمله.
كان حديثه عفويّا، أقرب إلى العاميّة لكنّه يخترق صمت الحاضرين بحكمة عجيبة. قرأ أبوالشوارب مسودّة احتجاج وتنديد، كان الإضراب يلوح ضمنيّا في اللائحة. مجرّد ذكره يثير الحاضرين وهم ينظرون بحقد وكبرياء. إنّه العين الحرّى التي تعلّق عليها الآمال. كلّ القلوب تهمس بالإضراب كلحظة تلوي عنق الزمن. تتوق إلى أفق بطيء القدوم. اللافي يتحدّث عن الوعي الكافي والمزيد من التحسيس. لعلّه كان يخاف من الفشل والخيبة. أبوالشوارب يعيد نفس الفكرة ويتمسّك بنفس المبدأ. الكلّ يستعرض العوائق والصعوبات الجمّة التي تحول دون تنفيذه. لكنّ آلاف الأعين تومض كالنار تحت العوسج. بينما الكلّ غارق في الهمس والتكتّم.

* * * * ** *

البناءات واطئة تمتدّ على أحراش من التين الشوكي والنباتات البرّية. أغلبها براريك من القصدير والقصب أحاطت بها أكوام الحجارة من كلّ جانب.الممرّات ضيّقة تناثرت فيها الأزبال وبقايا روث الحيوانات.
تسلّل بين الزرائب، في كلّ مرّة يحاذر الحفر والمياه السوداء الآسنة. دخل حيّ الصوالحيّة، حيّ كثير الدجاج والكلاب الدّميمة. حلقة من الشيوخ يلعبون" الخربقة " وغمغمات خافتة. قضبان من الخراء اليابس تجانب الحيطان وأطفال عراة يهشّون

الذّباب. نبح وراءه كلب أجشّ من وراء سياج من الصبّار. كاد قلبه يقفز من بين ضلوعه. أوشك أن يعضّه. قلبه يدقّ كالمطرقة والعرق يتقاطر. لعن السماء والحكومة. تعجّب كيف يعيش هؤلاء في هذه القبور. حتّى القطط والكلاب تنفر من رائحة المزابل ومصبّات الخراء والبول. خراء المدينة كلّها يصبّ في هذه الأحياء. إنّها أحياء الموتى والمعدمين ! وجوههم كالحة كفرت بها النعمة ونظراتهم باردة قاسية تضمر الشرّ لأوّل التفاتة. طلب منه شابّ أكمد وقيدا. اعتذر ثمّ مدّ له عقب سيجارة من فمه. أخذها ثمّ رماها دون أن يشكره. لم ينبس بكلمة وسار دون أن يلتفت. رأى العداوة على محيّاه.من يدري ماذا كان يفعل لوزاد معه في الكلام؟!

انعطف يمينا ثمّ عبر أرضا بورا مكشوفة. بان له حيّ السواسي من بعيد. بيوته مطليّة بالجير الأبيض، تضع أحزمة زرقاء قبيحة.البعض طبع " خمسة " على واجهة الحائط والبعض الآخر كتب الشهادة بدماء الخرفان. طناجر من النحاس معلّقة على الهوائيات. رأى عجوزا تفلّي القمل وتنشر لحافها باستلذاذ واشتهاء. شزرته بنظرة فضوليّة جافّة ثمّ عادت تقصع القمل بأظافرها. بلغ نهاية الطريق فوجد سربا من أطفال وسخين يجرّون حلقات سميكة من المعدن. تردّد متفكّرا، لويسألهم عن بيت زهيرة الحجّامة. البيوت هنا متشابهة كالقبور ولا أحد يستطيع أن يدخل هذه الأحياء دون أن يتيه. عليه أن يتأكّد أوّلا من التصميم الذي رسمه عبد الباقي. قال له ستجدها في أقصى الحيّ أمامها شجيرات التنوب مباشرة قبل أن تخرج من الحيّ يتراءى أمامك البيت. لا تسأل أحدا، يمكن أن يشكّوا فيك، ومن يدري؟ لعلّ فيهم عيونا تعمل مع عاشور !

طوى الورقة ثمّ دسّها من جديد في جيبه. سار متظاهرا وكأنّه يعرف المكان. لم يخفّف الخطوحتّى لا يظهر عليه الارتباك. في كلّ مرّة يتوقّف قليلا ليتأكّد هل اجتاز الحيّ أم لا؟ مازالت أمامه بيوت ومداخن. المسارب تمتدّ ضيّقة كالسراديب وأشجار الصبّار تحجب عنه الرؤية. اجتاز أعشابا يابسة من نبات القرّاص ثمّ سار من جديد في منطقة مكشوفة. التفت فألفى الحيّ وراءه، إذا فهويتّجه في المسلك الصّحيح.

صعد الثنيّة لاهثا. لاح له منزل معزول مسقوف بالقرميد الأحمر. رأى أشجارا كثيرة تحيط به.لم يميّزها، عليه أن يتأكّد من العلامة أحسن من الأشجار. أسرع الخطوة وأنفاسه لاهثة. عيناه ملتمعة ببريق النشوة. ما كاد يقترب من الواجهة حتّى بانت له صفيحة الحصان مقلوبة. علقت في العتبة تنير سبيل النّائهين. إنّها نفس العلامة التي أشار إليها صاحبه. تهلّل وجهه وأحسّ بارتياح. الصفيحة من النحاس مقلوبة. لا أحد يشكّ في ذلك. ما أعذب أن تسير الأمور بهذه الدقّة والتصميم ! أعطاه عبد

الباقي أوصاف البيت والمسالك بتفاصيل عجيبة. قلبه يخفق لملاقاة رفيق عزيز عليه.. هل تراه يعرف أنّه آت إليه؟ ! ليتها تبقى مفاجأة.
كان البيت ساكنا، غارقا في هدوء الأصيل. ريح خفيفة تهبّ من الشرق فتهتزّ أشجار التنوب برؤوسها المذبّبة.يتردّد الحفيف مع تحريشات متنائية. اقترب من السّاحة ثمّ نظر إلى الباب. تعجّب كيف يكون البيت بهذا الهدوء ! من يراه يحسبه مهجورا. حتّى أعواد القرنفل والنعنع يابسة في أصصها. حرّك المرتاج ثلاث مرّات حسب التعليمات. بقي متفكّرا. ظنّ أنّه أخطأ البيت لولا سماع وقع حذاء من الدّاخل. جاءه صوت ناعم رقيق: من الطارق؟ أجاب بدون تردّد:
المرصد لا يضيء والمراكب راسية.
سكت ينتظر الصوت.. كلمة السرّ صحيحة. كتبها له عبد الباقي حتّى يحفظها ثمّ يحرق الورقة. سمع المزلاج يدور من الدّاخل. انفتح الباب، أعقبته فتاة جميلة في ثوب منزلي تضع على كتفيها شالا أزرق. شزرته بعينين لوزيّتين ثم طلبت منه أن يتبعها. البيت فسيح مفروش بالأبسطة. لم يتصوّره بهذه العناية والرّفاهة من الدّاخل. أشارت بيدها إلى الكنبة ثمّ قالت:
لعلّك تعبت في العثور على البيت. يبدوأنّك تأتي إلى هذا المكان أوّل مرّة !
عرف أنّها على علم بمجيئه فاكتفى قائلا:
العنوان واضح، لكن المسافة طويلة من هناك.
ردّت عليه بنبرة واثقة:
هذا أحسن، أن نكون بعيدين عن أعين الفضوليين. المنزل كما ترى اكتريناه بعيدا في أقصى الحيّ. فائز هوالذي اختاره. هنا يستطيع أن يخرج بحرّية.
سكتت لحظة ثمّ أردفت:
اسمح لي أن أقدّم لك شيئا، تريد قهوة أم شايا. العفوأنا لا أعرف حتّى اسمك. فائز قال اليوم معنا ضيف ولم يذكر لي الاسم.
تهلّلت أسارير وجهه عندما سمعها تتكلّم عنه وكأنّها تعرفه من زمان. قال:
أبوالشوارب، سليمان. المعذرة إن كنت دخلت في غياب فائز.
سكت ينتظر مخمّنا وجوده في البيت. فهمت مقصده بسرعة فقالت وهي تتّجه إلى المطبخ:
لا تستعجل، هوفي طريقه فهوعلى علم بقدومك.
اختفت لحظات ثمّ دخلت تحمل صينيّة فضّية وضعت عليها ثلاثة فناجين وركوة صغيرة من القهوة. وضعتها على الطاولة ثمّ أضافت:

سيتأكّد من مجيئك بدون شكّ. أنت تعرف أنّه يجب بعض الاحتياط. قد تتبعك بعض العيون من حيث لا تدري..
ما كادت تتمّ جملتها حتّى دار القفل مرّتين ثمّ دلف الشبح ملفوفا في عباءة رماديّة.

*** * * * * * * ***

وكانت ساعة أوبعض من الزّمن.
صوت الرّيح يسفح الهامات، لوهجانة مزلزلة في أقصى نوباتها. عادت الطواحين تذروالفراغ والعدم. تتضرّع إلى الطوفان فلا يبالي. بسطت أشجار التنوب أعناقها وتكنّست الشوارع من أحيائها. ظلّت وحدها تصرخ وتنبوعن الصّحو. هجهج الرعد في الأعالي ودوّت لذعات البرق في الأجواء. وكأنّ هاتفا من أعلى يقول:
أتروّح أنفاس الكون وأنتشي السيل همّلا يطهّر الأرض من الفسولة والفساد.لا شيء يثبت عصيّا عتيّا كلّ الرؤوس تصغر أمام طوفاني.
تردّد صوت الطواحين كالنوح:
ما كلّ عاتية إلاّ فانية. تتبدّد في غيب الزمان وتذروها رحى النسيان. إنّي أرى الغيوم شفّافة والسماء تتلألأ بالصحو. سيسطوالنّور خلّبا ويبدّد أحشاء الظّلام.
زخّت شآبيب المطر ودفقت سحب كثيفة ربداء. غمرت الكون كآبة وظلام. جاء صوت الرّيح غاضبا:

لأفنينّ الحياة الآسنة وأدقّنّ الهامات العاتية. إعصاري من لهب وزوابعي تقلب كلّ الصروح الخاوية.
دارت دورتين ثمّ توارت تعزق جوانح الكون. تكدّرت السماء وجرى شيء كالفناء. كلّ شيء يبدونذيرا مشؤوما.

* * * * * * * * *

صار علاّوة يدخل "الفيلّة " ويخرج دون أن يضطرّ إلى تقديم الحساب عن حركاته. زالت عنه خلجات الحرج فصار يمدّ أطرافه على طول الكنبة. ينتظر في الصّالون مباشرة بعد أن كان يدقّ الجرس. ذاق حلاوة القبل فباتت " الفيلّة " منبت سعادته. أهدى لها مرّة قبّعة من الفراء وأصصا ضخمة من الفلّين. دعته إلى عالمها المخملي فغاص فيه ينتشي شذاه ويملأ اليبس بخضرة الإشباع.
قالت له: '' إنّنا نلعب لعبة خطيرة. ليتني متّ قبل أن أعرفك ! ''
أجابها وبريق التيم يتدفّق من عينيه:
إنّنا نحترق في قريتنا بلهيب الجنّيات. عادة ما يموت العاشق أويختبل ويبقى الجنّ. إنّه لغز محيّر. مصيبتنا أنّنا لا نعشق البشر.
في إحدى الأماسي المشمسة عرضت عليه الخروج فأسرج لها داحس، الحصان الأبيض التركيّ الأصل. خفّف لها الرّكاب وأزال نعاله خشية الانزلاق. فالجليد مازال يفرش السّهب. لكنّ السماء تشعّ صفاء وطراوة وريح باردة تسفع الخدود. وضعت مريم قبّعة الفراء وقفّازين من الجلد ثمّ أحاطت ذراعيها بخصره مستسلمة لنفحات خفيفة متماوجة. سارا في أراض شاسعة مجاورة ثمّ عبرا سوان كثيرة. بلغا ضيعات الفلاّحين العامرة بأشجار الكرز وتوت الأرض. أهدت لهما القرويّات سلالا صغيرة من الكرز الأحمر. حيّتهنّ مريم ورمت لهنّ قطعا نقديّة بيضاء فكنّ يتلقّفنها في ضحك وسرور.

دخلا سهبا شاسعا كسته بسط الجليد النّاصعة. لم تطأه قدم منذ العاصفة. حرن داحس فجأة ثمّ طفق يخبّ على الأكوام الثلجيّة المرتفعة. فرقعة الجليد تحت حوافره تحدث صوتا لذيذا. راحت مريم تغمغم بكلمات مترنّمة، فاضت بداخلها فجأة مشاعر الطفولة النائمة فألصقت خدّها خلفه وسرحت في خيالاتها. السهب ينداح أمامهم ويمتدّ ليعانق الأفق. بان فجأة حرش من أشجار التنوب الخضراء كلّلتها ندف الثلج الناصعة فغدت منظرا بديعا. قالت مريم كالنّاجية:

خوفي أن تذوب أحلامنا كما تذوب هذه الثلوج. ترى هل تدرك الشمس أسرارنا !

سكتت ثمّ أردفت:

لا خلاص لنا إلاّ أن نهرب وإلاّ سنحترق قبل أن تشرق الشمس.

قال علاّوة:

لا يخمد قلبينا سوى الموت. لقد صرت معك لا أخشى شيئا. سنحترق سويّا وليذهب العالم إلى الجحيم.

همست له بخوف:

سيلاحقونك ويقتلونك بسببي. أنت لا تعرف شرّهم.

هزّ كتفه لا مباليا ثمّ قال:

لا يهمّ. ليس لديّ ما أخسر. ولدت شقيّا وأموت شقيّا. يكفي أنّي مسكون بساحرة جنّية مثلك.

ابتسم ورمى برأسه إلى الوراء يداعب وجنتيها. بقيت تتأمّل ساجية ثمّ قالت:

إنّ قلبي يتوجّس رائحة مخيفة. الفرجاني صار يعود باكرا إلى "الفيلّة " كلّما خرجت أنت. آخر مرّة سألني متسائلا:

علاّوة صار يعمل في" الفيلّة" أكثر من حراسة المخزن. لا أظنّ أنّنا بحاجة إليه أكثر ممّا فعل.

كان يودّ أن يقول شيئا آخر إلاّ أنّه سكت كمن بلع لسانه. أطردته من الصالون بدون أن أشعر. أعرف أنّه يثق في سيّده أكثر منّي. ولكن ما يخيفني هوعيناه اللتان صارتا تتلصّصان أكثر من قبل.

لم يعر الحديث بالا. ظلّ غارقا في عالمه المخملي. احتواه إلى الأبد وصارت لحظاته الحاضرة تفترسه. لا يريد لذهنه أن ينشغل بما يدنّس عالمه. اكتفى قائلا بنبرة استهزاء:

الفرجاني رجل أبله. لا يستحقّ كلّ هذا الخوف. يكفيه أنّه يملأ بطنه في المطبخ ثمّ يخرج. ثمّة من النّاس من يبدومظهره مهيبا مخيفا ولكن حينما نقترب منه نلفاه أرنبا يرتعد من ظلّه.

طوّقت خصره بشدّة كمن ازدادت ثقة وأمانا. أحسّت بحرارة جسمه تسري في أحشائها فازدادت التصاقا. سار داحس بين مجاميع الشجيرات وبخار أنفاسه يلهث. تردّد حفيف رقيق في الحرش. لاح فجأة كوخ صغير يشبه الأكواخ المرتجلة التي يقيمها حارسوالغابات أوعملة الخفّاف. ترجّل علاّوة أوّلا ثمّ جذبها من خصرها يساعدها على النزول. كانت حارّة كالنّار، تفوح برائحة منعشة. عدّلت من ثيابها ثمّ دخلت معه الغيضة. سارا بصمت. نفذ بينهما الكلام وبقيت القلوب تدقّ. حينما يسود الصمت تمتلئ العيون ندى وطراوة. صارت النظرات أكثر اشتهاء. زادها سكون الطبيعة لذّة وأمانا. دخلا الكوخ صامتين. كان مفروشا بالقشّ اليابس، أعمدته مسخمة ومتآكلة. نظر إلى عينيها فألفى بريقا مثيرا إلى حدّ الجنون. جذبها من خصرها ثمّ طوّقها بذراعيه. استجابت متراخية وقد غمرها بوابل من القبلات المحمومة. لثم الوجنتين ثمّ انحدر إلى العنق. سقطت قبّعة الفراء وانسدل الشعر الذهبيّ. لم تعد تشعر بخجل ولا خوف. همّها في لحظات عابرة من الزّمن كالأثير، تروي ضمأ قديما ظلّ مشتعلا. ذابت في رجولته وأحسّت بجسمها يستجيب لضمّاته. أرقدها بلطف على القشّ.. فقد عقاله فجأة ففكّ الأزرار، مرّغ وجهه في الرمّانتين ثمّ لعق المجرى الحليبي بين النهدين. الحلمتان نافرتان صلبتان.. تأوّهت ثمّ قاومت، رجته أن يكفّ لكنّه بلغ إلى تحت، دسّ رأسه بين الحقوين. انحسر جانب الفستان الصّوفيّ فبان فخذان لحيمان بديعان. جسم ناصع صقيل كالشمع. يا إلهي ! ما أفقر جسمك الغليظ يا علاّوة لمثل هذا الطراء ! ما الذي يطفئ نار جسمك غير هذه النعومة؟ !

مرّر يديه على ردفين صقيلين مقولبين. ارتجفت وصارت أكثر إلحاحا. غدا كيانها أكثر جموحا لكنّها قاومت. افترعها واستغاثت، توسّلت، لكنّها تراخت. غمرها الدفء فطوّقته. امتدّت موجات الأثير إلى أحشائها.. سافرت في لهيب إلى العوالم المغلّقة. استعادت أنوثتها فأعطت من أعماقها كما لم تعط قطّ. كانت تستجيب في غمغمة واشتهاء.. علق القشّ بشعرها وفخذيها. انفرط كلّ شيء وزال العالم بأكمله من خيالها. جسدان يذوبان في ذروة الحياة. يضطرمان بنشوة عابرة بين الموت والحياة، يرقصان في مرح أبديّ..

خمدت أنفاسهما وتلاشت. مسح قطرات باردة من العرق ثمّ طبع على جبينها قبلة. التمعت عيناها نديّة بانشراح عجيب فقالت: '' أحبّك يا شقيّ الجميل ! ''

ظلّ داحس في الخارج ينظر ساكنا رخيّا مطأطأ الرأس.

* * * * * * *

تهلّل وجهه لمّا رآه وقفز إلى حضنه. لم يصدّق ذلك ! اللافي بعينه لم يتغيّر منه سوى ذقن خفيف. قال له مندهشا:
ما كنت أظنّك تختفي هنا؟!
تضرّج وجهه لمّا دلفت زهيرة بطبق من الحلوى. اكتشف احتراما متبادلا بينهما وعفّة نادرة. حيّتهما ثمّ أشعلت شمعتين. ارتعش اللهب ثمّ استقام وأضفى على الغرفة نورا لطيفا. تنحنح اللافي ثمّ قال:
هذه زهيرة إنّني مدين لها بحرّيتي.
ضحك أبوالشوارب وقد فهم مقصده، تذكّر اليوميّات والدفاتر الممزّقة. زهيرة امرأة عظيمة، بداخلها شعلة من النّور برغم مال يقال عنها. يوم أخبره عبد الباقي بالأمر لم يصدّق، ظنّ أنّ المسالة متعلّقة بمغالطة مقصودة. ها هوالآن يرى بملء عينيه زهيرة الحجّامة تأوي في بيتها رجلا ملاحقا كاللاّفي !
سكت فائز لحظة ثمّ أردف يسأله:
ماذا فعلتم في الإِضراب؟
ردّ عليه:
الكلّ يهمس بذلك، لسنا متأكّدين من حماسهم. سعيد أثبت لي بالأمس كثيرا من المندسّين داخل عملة الخفاف من أتباع عبد الكريم ومليشيا عاشور. يبدوأنّ الإضراب سيتحوّل إلى فخّ للإجهاز علينا. على كلّ ستكون موجهة حاسمة، إمّا لهم أولصالحنا. قرار الإضراب لم يحدّد بعد ولا نريد أن نسبق الأمور.
قال اللاّفي:

أخشى أن يكون الانتظار فرصة للآخرين. سوف يهيّئون أنفسهم أكثر لمحاصرة النقابيين. أحيانا يمكنك أن تسير بعشرات الرجال وتفوز بمطلب واحد خير من أن تتحرّك بالآلاف وتخسر كلّ شيء. لا يمكن أن نسبق الزمن فالمسيرة طويلة وما هذه إلاّ محطّة قصيرة.
كان يتحدّث واثقا، متمثّلا عالمه الأرحب يمتدّ أمامه حلما عظيما كحمرة الشفق. يعرف بتجاربه أنّ ما نفعله لا يكفي لتحرير الأمخاخ المتكلّسة.
ردّ عليه موافقا:
فلي الاجتماع الأخير كتبنا لائحة تنديد واحتجاج. ثمّة مطرودون كثيرون. لم يسمحوا لنا حتّى بحضور مجالس التأديب. يبدوأنّ الأمور لم تعد تحتمل الانتظار أكثر.
سكت ثمّ أضاف:
لعلّك كنت تتابع الأمور بأكثر تفصيل !
كان يشير إلى عبد الباقي وقد اكتشف علاقته الخفيّة باللاّفي. لعلّه الواسطة بينه وبين رجال آخرين لا يعرفهم.
ابتسم غير مؤيّد ثمّ قال:
أنا لا أستطيع أن أخرج أوأغيّر المكان بدون تعليمات الآخرين. حتّى زهيرة الأخرى صارت مستهدفة مثلي. عاشور تفطّن إلى غيابها عن المحلّ. كان يخطّط لتلفيق قضيّة أخلاقيّة وسياسيّة. ربّما أسافر في الأيّام القادمة إذا سنحت الفرصة. مازلت انتظر التعليمات، بدأت أشعر بالاختناق من هذا الحصار.
رنّت في ذهنه كلمة " التعليمات ". بدت عبارة ملغزة أشبه بكهوف معتّمة لا يدخلها إلاّ رجال عمالقة من طراز اللاّفي أوعبد الباقي أوغيرهم.. في كلّ مرّة يكتشف أنّه حافّ بأسرار مجهولة، وراءه آخرون يحرّكون الأمور ويخطّطون ويأمرون. هوينفّذ " التعليمات" فقط.
مسكين أنت يا أبا الشوارب ! دماغك البسيط لا يقوى على مثل هذه الأشياء ! تظنّ أنّك الوحيد الذي يوقف العمل ويقرّر مصير الإضراب ! لن تعرف الحقيقة ولن تفهمها إلاّ بعد سنوات عندما تتّهم فقط بالاشتراك فيه وليس بتنظيمه. ثمّة آخرون لن تعرفهم ولن تراهم، يعرفون عنك حتّى رقم حذائك، أمّا أنت فإنّك تتصرّف كالنّعجة الشاردة. تنساق بدون محض إرادتك إلى أشياء مجهولة. عالمهم غير عالمك، هواجسهم بعيدة عنك وطريقهم طويلة.
نفث دخانهن في الهواء ثمّ قال متحسّرا:
لقد تركت فراغا كبيرا بيننا يا أستاذ فائز !
قال اللاّفي كمن يدفع تهمة:

العفو، يا أبا الشوارب. لا أظنّ الأمور تعلّق على رجل بعينه. الأفراد لا تصنع المعجزات وحدها !
ردّ بتلقائيّة:
ولكنّنا في حاجة إليك اليوم أكثر. الحقيقة أنّ الإضراب يقلقنا. خوفنا الأكبر أن نفقد ثقة العمّال لا من فشل الإضراب !
قال اللاّفي:
أظنّك على وعي تامّ بهذه الأمور يا أبا الشوارب، الإضراب ليس عصا موسى حتّى يحلّ كلّ المشاكل ويحقّق كلّ المطالب. وليقتنعوا بذلك مسبّقا كما لا بدّ أن يعلموا أنّه ما من مواجهة إلاّ وستتبعها خسائر وتضحيات. هنا فقط عليك أن تزن الأمور بمعيار الربح والخسارة، ماذا عليك أن تقدّم حتّى تعرف كم ستجني؟ إنّنا لا نقدّر الفشل والنجاح على حسب قوّتنا فقط، بل كذلك قوّة الآخرين.
تحدّث اللاّفي طويلا وحلّل أبعاد الإضراب ودوره الفاعل في العمل النّقابي لكنّه أشار في نفس الوقت إلى غياب الوعي الكافي لدى عمّال المنطقة. كان في كلّ مرّة يتمثّل الدروس من تجارب معروفة. وظلّ سليمان أبوالشوارب يصغي إلى كلامه وعوالم أثيريّة ترتسم في دماغه. أحسّ برحاب الزمن يغريه ويدفعه لاكتشاف حجب بعيدة المنال. صوت يرتجف في أعماقه وأحلام شفّافة تينع في خياله، فيرى أقداما تسحق الجليد ووجوها تنظر إليه حاقدة، ثائرة كالطوفان. الدماء الحمراء تثيره والرحيل يناديه. نور سراج يناديه في الغبش.
تطلّع من النافذة فرأى ضوءا كليلا يخرج من الشرق. نامت زهيرة وخمدت الشمعتان. وضع معطفه الشتويّ المبطّن ثمّ ودّع صديقه كمن يودّع انتهاء حياة.
تسلّل برفق ثمّ غاب في العتمة وكان الليل يتحوّل إلى فجر..

*** * * * * * ***

الفرجاني يروح ويجيء، يرصّف الكؤوس وقوارير الماء ويعدّل أعناق المصادح. اصطفّ على طاولة مستطيلة مفروشة بالأخضر جماعة من المسؤولين. ماجد يتوسّطهم بجانبه سالم طريدة بطروبشه القرمزيّ ومنشّته المعتادة. تراصّت القاعة بالحاضرين من أصحاب المهن الحرّة والمزارعين. التفّوا في قشاشيب بنيّة كمداء وعيونهم مسمّرة في طاولة الخطباء والوجوه الحمراء المتهدّلة. عضورئيس البلديّة يجلس مع عمدة المنطقة في طرف القاعة. تنحنح ماجد قائلا:

أشكر كلّ الإخوان على هذا الحضور المكثّف، وأهيب فيهم روحهم الوطنيّة العالية وحرصهم الدائم على خدمة المنطقة وتنميتها.

سكت لحظة يستجمع أفكاره ثمّ واصل:

اجتماعنا اليوم مناسبة لتكريم الأخ سالم بتولّيه منصب رئاسة الشعبة المحلّية.

ابتسم سالم طريدة فبان نابه الأصفر القبيح ثمّ راح يحرّك رأسه إطراء لكلّ عبارة امتداح تصدر من فم صديقه.

لا أحد ينسى ما بذله الأخ سالم لصالح المنطقة. دفع في مناسبتين ألف دينار لإعانة المعوزين إضافة إلى مساهماته الأخرى في بناء المسجد. نحن نذكر فقط ما نستحضره لأنّ مساعداته لا تحصى. لدينا مشاريع أخرى تشمل المناطق النائية ولا يفوتنا إلاّ أن ننوّه بكلّ من أسهم في ذلك.

نشكر الأخ سالم على ما بذله ونهنّئه بالمنصب الجديد.

انطلق وابل من التصفيق الحارّ. التصفيق يتزايد عند كلّ وقفة ثمّ يتلاشى. ناوله وساما صغيرا وسط صندوق مذهّب ومضت الأضواء من كلّ جانب تخلّد الحفل. وقف الكلّ يصافحونه ويهنّئونه.

خمدت الحركة من جديد ثمّ استأنف مرّة أخرى. جاء دور توزيع الجوائز على المنتجين وأصحاب المهن الحرّة

بوجمعة بن الطاهر السخريّ أفنى عمره في خدمة الأرض وتربية الماعز. استطاع أن يحسّن محصول التبغ هذا الموسم إلى أكثر من عشرين قنطار ويصل إلى ثلاثين رأس ماعز.

مدّ له شهادة موشّاة ومكتوبة بخطّ أسود ثمّ ناوله مظروفا أصفر. علا التصفيق مرّة أخرى.. جاء دور أمّ هاني، سخّرت حياتها للبقرتين منذ حصلت عليهما كمساعدة. أحيانا تنام معهما لتستمدّ الدفء في الليالي الباردة من أنفاسهما. تقدّمت ببطء تخطوبحذاء طويل الرقبة مكسوّ بالوحل. اقتربت من الطاولة الخضراء ثمّ مدّت يدا مرتجفة معروقة تمسك المظروف الأصفر والشهادة. وضعت الشهادة على صدرها فرحا. غمرها التصفيق حتّى أوشكت على البكاء والسقوط.

تفّاحة ! صانعة الزرابي الوحيدة في البلدة. تعنّست وباعت حياتها من أجل إخوتها السبعة وأمّها الضريرة. الكلّ يعرفها، تغسل الصوف في عزّ الشتاء ثمّ تصنع منه القشاشيب والملابس. عشرون دينارا وشهادة استحسان تشجيعا للصناعة التقليديّة في المنطقة.

علا التصفيق واشتدّ. تقدّمت امرأة صهباء طويلة ولحيمة، صافحت تفّاحة ثمّ قدّمت لها الشهادة والمظروف الأصفر في غمرة من الأضواء.

قال ماجد معلّقا:

إنّنا نشجّع دائما الطاقات الشابة كما ترون. نحن نعتمد على وفائكم لنا ومساهماتكم الجبّارة في تنمية المنطقة والنهوض بها. إنّنا بذلك نبرهن على سلامة نوايانا ونجاح سياستنا المجيدة.

إخواني الكرام ! دمتم في كنف العزّة والسؤدد والمناعة ولنواصل معا مسيرتنا التنمويّة من أجل خير البلاد.

اهتزّت القاعة بالتصفيق. زغردات تنبعث من الخلف.. فتاة صغيرة ترتدي ملاءة تقليديّة تتقدّم في بطء حاملة لفّة من الورود البلاستيكيّة، يداعبها ماجد ويقبّلها بحرارة والتصفيق لا يتوقّف..

* * * * * * *

"ليليّات" شوبان كتردّد الفلك على الموج. تشتدّ إعصارا ثمّ تخمد وتموت، تخفت، تتلاشى. الحركة الثانية تسبح بك في أحضان الدانوب عذبة تجري. ثمّ تحلّق بك شيئا فشيئا في أجواء من السحر والأبديّة. تشتدّ تغلظ، تدويّ وتتهزهز الدنيا. تخال نفسك تنزل من سماء فرصوفيا وتعانق القوى الزاحفة من بعيد.. ينظرون إليك، يشيرون إليك بالمطارق والمناجل.

قلبت مريم " الديسك " تنصت إلى الوجه الثاني. وضعت الإبرة برفق ثمّ تدفّقت الموسيقى من جديد. ذكّرتها الألحان بأيّام الجامعة والمبيت. ما أسرع الزمن ! ما أعذب الذكريات المتنائية !

استقامت تنظر إلى عبر النافذة إلى ملاءات الجليد المتساقطة. قطرات الماء تدقّ برتابة في الميازيب. سحابة غائمة تضفي على السماء كآبة وجوّا ثقيل الوطأة. تحسّست بطنها فارتعشت. لم تعد تطيق أن تتلمّس جسمها ! ذلك يثير فيها الغثيان والرعب. الموت أشرف من المغامرة.. طالعتها في ضباب الصقيع أعواد القرنفل ترتعش، عصفور صغير ينفش ريشه من البرد فوق غصن الأكاسيا. ضياء شاحب يلفّ الشوارع والجوّ ينذر بشتاء قاس طويل.

صرّ باب الصالة فجأة ثمّ جاء الصوت نائيا:

مريم ! مريم ! أين أنت حبيبتي؟

لم تلتفت إليه وظلّت تواجه النافذة لا مبالية. اقترب منها قائلا:

ها أنت هنا ! كنت أظنّك خرجت، أعرف أنّك تقلقين من البيت لذلك جئت باكرا.

لمّا رأى صمتها المتواصل سألها بذهول:

مريم ! ما بك؟

أجابت باقتضاب وفتور:

لا شيء غثيان بسيط.

اقترب منها هامسا:

مريم، إنّي أحبّك رغم كلّ شيء، أنا زوجك ربّما قصّرت معك كثيرا لذلك سنبدأ حياة جديدة.

ضحكت ضحكة هستيريّة ساخرة حتّى تجهّم وجهه ثمّ قال:

كفى استهزاء، إنّي لا أمزح فيما أقول. كلّ هذه السنين لم أر منك غير الإهانة والجفاء رغم..
ثارت ثائرتها فجأة ثمّ انفجرت:
قلها ! قلها ولا تخجل ! أعرف ذلك. رغم أنّني عاقر فأنت تبقيني في كفالتك. عظيم ما تقوله ! أنت ترفض التحليل وتتبرّأ من المشكلة.من يدري لعلّ العيب فيك ولا تدري !
اربدّت سحنته وأوشك أن يصفعها لكنّه تمالك غضبه وتصنّع الهدوء.
مريم ! لا تكوني عصبيّة أكثر من اللازم. إنّي لم أقصد البتّة ما قلت. هذا الأمر لا دخل له في سعادتنا.
سكت يبتلع ريقه ثمّ أردف:
كأنّي بك صرت تكرهينني !
أدارت ظهرها ثمّ قالت وقد خمد غضبها نسبيّا:
أنت من يدفعني إلى هذا
طوّقها بذراعها هامسا:
مريم ! حبيبتي، إنّي لا أفعل هذا إلاّ من أجلك ولا أرغب إلاّ في توفير السعادة لك. يقينا سوف تستقرّ أمورنا ونخلص من هذا الكابوس. سنسافر إلى باريس هذا الصيف، ثمّة صديق لي يعرف أطبّاء ممتازين هناك.
أدخل يده في جيبه ثمّ أخرج عقدا ثمينا من الذهب الأصفر. لفّه حول عنقها برفق ثمّ همس: " إنّها هديّة الحبّ والوفاق بيننا "
أخذته ببرود ثمّ وضعته على "الكوافيز ". كانت تبكي بصمت. تنحدر الدموع حارّة مدرارة على خدّيها. مسح عبراتها بكفّ يده وظلّ يواسيها بلطف:
اغفري لي سوء تصرّفي يا عزيزتي ! ما قصدت إهانتك، أقسم لك بحبّنا أنّي أتعذّب مثلك. أكيد أنّ القدر سيفي بوعوده يوما ما.
التفتت إليه وقد اكفهرّ وجهها من الحزن واحمرّت عيناها من البكاء ثمّ خاطبته:
أرجوك ماجد، اتركني وحدي قليلا !
سحب يده بصمت ثمّ سار نحومكتبه. هامت في ذهنه الهواجس المخيفة. فكّر في طلب الطبيب لكنّه عكف عن ذلك خوفا أن تشتدّ نوبتها. العقم يخلّف أعراضا نفسيّة كما قال الدكتور صبري. تصبح المرأة أكثر كآبة وعصبيّة وتميل إلى تصرّفات صبيانيّة غير عاديّة. إنّه لا ينسى اليوم الذي شتمت فيه النادل في النزل. كانت حادّة المزاج سريعة الانفعال، تغضب لأيّ سبب. أغرت نفسها أيّاما بالرسم ثمّ تملّكها ولع غريب بشراء العرائس ولعب الأطفال.

إنّك تتعذّب معها ! تحمل نفس الكابوس ! ما كان للزمن أن يدير لك ظهره بعد أن حقّقت المنصب وجمعت ثروة محترمة..
خيّل إليه أنّ القدر يقف أمامه ويخرج له أيره ولسانه شماتة وسخرية. كلّ ما سطّرته في حياتك قد أنجز. سارت لك الحياة سبطة رخيّة كجدول رقراق ثمّ خانتك في عزّ عمرك. هاهي الأيّام تتوغّل بك في الزمن وأنت تتمنّى لويرزقك القدر بوليّ العهد. يحمل اسمك وينعم بالثروة البائدة. إنّها لعبة الزمن !
نظر إلى الوحش الذي يطارد الصبيّ، الصبيّ طريقه مسدود والتنين فاغر فاه. لعلّ " شاغال " الروسيّ الأصل قد كان له نفس الإحساس. إنّها أصدق صورة للحياة ! لولم يحسّ شاغال بحتميّة الموت ووطأة الزمن لما صنع خياله هذه اللوحة البديعة. لأوّل مرّة يشعر بالسرّ الكامن في هذه الصورة. ألوانها قاتمة مرشّحة بالسواد إلاّ فم التنّين تنبعث منه عساليج من اللهب الأحمر.ما عدا ذلك فاللوحة ترشح بالموت والنظرة العبثيّة للوجود.
استلقى على " الفوتوي " الخشبي منطويا على أساه في صمت. تلظّت نفسه أكثر عندما سمع نشيجها المتقطّع من غرفة النوم. ما ذنبه أن خلق هكذا؟ ! إنّه أمر فوق طاقته. تمنّى لويملك الجرأة الكافية لمكاشفتها بالأمر. الطبي قال له أنّ العجز مؤقّت. يمكن أن يزول بالرياضة و" الريجيم ". نصحه كذلك بتناول بعض المسكرات قبل النوم. كل ذلك لم يجد نفعا. يعاوده نفس البرود منذ أن اكتشف نفسه أوّل مرّة في إحدى المواخير العموميّة. يومها بصقت عليه العاهرة وقذفته بكلمات ماجنة ساخرة. كان جنديّا يافعا وقتها. لم يتصوّر الأمر بتلك الخطورة خاصّة لمّا بدأت حياته في الجنديّة بهفوة من جانبه قادته إلى منعطف أخطر. إنّه الآن يجني العواقب ويتلظّى بنارها الحارقة ! لم يبق بعد ذلك إلاّ مكاشفتها بالحقيقة. إنّها تتعذّب ظلما ! ما كان له أن يجعلها تعيش في مثل هذا الوهم !
لاح القلق في عينيه وهويفكّر في الأمر ثمّ خرج إلى الشرفة كمن يهرب من شيء يلاحقه. أعماقه تدعوه إلى ذلك ولكنّ سمعته ومنصبه يصدّانه. المسألة مسألة حياة أوموت. أمر كهذا يمكن أن يدمّر كلّ المشاريع والصروح التي بناها. إنّه في متاهة لا حدّ لآفاقها !
قامت مريم عند الظهر تصلح من ثيابها. جفّت الدموع بعينيها وشحب وجهها حتّى اكفهرّ جماله. لم تكن تبكي يومها حظّا تعيسا فحسب بل كانت تستشعر ألما غريبا بدأ ينموفي أحشائها !

* * * * * * * * *

الشارع المعتّم يمتدّ أمامه كالأخطبوط. قطرات الماء تدقّ في الميازيب برتابة. الأنهج خالية كنّستها العاصفة من المارّة. رجل يدقّ أحد البيوت المجاورة، لعلّه عائد من سهرة أوعمل ليليّ. المصابيح ترسل ضوءها الكليل على الإسفلت فتبدوفي شكل هباءات فسفوريّة لامعة. كلب مقعى ينهش فضلات المطاعم.
رأى عاشور من الشرفة شبحا، إنّه قادم يمشي ببطء. دخل قرص الضوء فبانت البطانيّة الألمانيّة التي يلتفّ بها. إنّه حمّودة المجنون. لا أحد غيره في مثل هذه الليلة الباردة. اعتاد عاشور منظره وهوينام على عتبات المقاهي. ما أكثر المجانين والأشباح في هذه البلدة ! تذكّر قضيّة الفتاة التي انتحرت لأنّها حبلت من " رهبان " كما قالوا.. إنّها أغرب ما رآه ! من يدري من كان وراءها؟ يوم طلب منه رئيس المنطقة أن يحقّق في القضيّة كان يحسّ وكأنّه يبحث عن إبرة وسط أكوام القشّ. تلاشت القضيّة بعد ذلك في طيّ الكتمان والأسرار الغامضة. إنّك ترمي جميع أوراقك يوما بعد يوم يا عاشور ! هذه البلدة استعصت عليك وجعلتك تهوي كما تهوي الصروح الشامخة.لم تنفع قوّتك وجبروتك، بل زادت الناس شراسة وعنادا. زهيرة الأخيرة لعبت بك ودوّخت عقلك. اللافي يحرّك البلدة بأسرها وأنت تراه ولا تستطيع حراكا ! ماجد.. آه هوالآخر ! ذلك السافل يسخر منك ويعتبرك مجرّد مأمور ينفّذ التعليمات فقط ! آه لوتأتي الفرصة ويقع في الفخّ ! لا بدّ أن يبلع الطعم يوما ويركع أمامك هوولوطيه سالم طريدة. عندها ستكشف كلّ الأوراق ويعترفا تحت السوط.. تهريب قطع الغيار عبر الحدود والمتاجرة بممتلكات الحكومة.. اللواط وحده يضمن لهما خمس سنوات يسيرة.
أشعل السيجارة من عقب الأولى. سفحت وجهه ريح باردة. تحرّكت أمامه هامات الأشجار التي عرّتها أنفاس الخريف. كان يرغب في النّوم لكنّ هواجسه وكثرة التدخين أذهبا عنه لذّة النعاس والأحلام. منذ شهور لم يعد يحلم ! صار ينام وذهنه يغلي كالمرجل. في كلّ يوم مشاكل ومصائب أخرى.. مهمّته تكبر لكنّه لا يقوى على شيء.. جرائم غامضة، مظاهرات تخرج وراء الأموات ثمّ شخصيات سياسيّة هاربة ومتسلّلة عبر الحدود. كم يلزمه من اليقظة والحرص؟ ! ثمّ من هوحتّى يواجه كل هذه الفوضى؟ ! بئس هذا العمل الذي يحتّم عليه أن يبقى يقظا إلى الفجر ! لولا قساوة الحياة لاختار طريقا آخر وعملا سهلا. لن يسمح لابنه إلياس أن يسلك طريقا مماثلا.

منذ أن ينهي دراسته الثانويّة سيدخل كلّية الطبّ أوالهندسة. لكنّه أميل إلى المواد الأدبيّة والفنون وهذه مشكلة ! ستخلق منه شابّا رقيقا مرهف الإحساس شغوفا بالفنّ والموسيقى. إنّه لا يحبّ الشخصيات الرقيقة. لميس ! ابنته الصغرى، أجمل ما أهدى إليه الكون. كانت ولادتها صعبة، لم يصدّق يوما أنّها تكبر وتعيش بهذه السرعة. إنّها إلى قلبه أقرب، كأنّها خلقت على هواه. فهي حادّة الذكاء صعبة المزاج.
التفكير في الأبناء يثير فيه الشفقة والمخاوف من أسرار الحياة المجهولة.
دلف من الشرفة إلى حجرة النوم. آوى إلى فراشه برفق، زوجته تغرق في أحلامها.
فكّر، لم يعد الوقت كافيا للتردّد والتأجيل. عليه أن يدقّ الحديد ساخنا وإلاّ سوف تجرفه الأحداث. غدا يقدّم ملفّاته السريّة عن ماجد ويطلب بطاقة تفتيش وإيقاف لفائز اللافي المختفي. سوف يلعب أوراقه الأخيرة ولكن بقوّة هذه المرّة !

*** * * * * * * ***

تطلّع إلى السماء فألفاها غارقة في يمّ من السحائب. أمواج الليل الباردة ترعش أوصاله وتبثّ فيه شيئا كالخوف. الخوف المجهول يأتيه حتّى من سكون المخزن، عيون

الفرجاني الطافحة بالعداء. لقد صار ينظر إليه أكثر هذه الأيام وهذا ما يثير فيه الوساوس أكثر. عاد يرقب السماء علّه يرى النجوم الساهرة فيناجيها ويسلّي بها نفسه حتّى الفجر. لكنّه لم يلحظ غير أمواج من السحب الربداء تسبح مطمئنّة. الليالي المظلمة كثيرة الهواجس والأشباح. في مثل هذه الليالي ينطوي في كهفه العميق ويسرح في نشوة الخيال. يدعوه لهيب الجسد إلى أطياف قديمة، مازالت رائحة مريم في أنفه وطعم شفتيها في لسانه. يتخيّلها تتأوّه لذّة بين ذراعيه ثمّ تغمغم وتغلق عينيها. لحظة يمتزج فيها الموت بالحياة. إنّها المرّة الأولى في حياته البسيطة ! تطلبه أنثى كنا هوبدون خجل أوتردّد. ترى هل أحبّته فعلا أم كانت تنتقم من زوجها؟ ! قبلاتها الحارّة وهي تحتضنه بقوّة واستلذاذ تزيح عنه الشكّ. إنّها امرأة فائقة الأنوثة إلى حدّ الجنون !

توقّف ذهنه فجأة عندما تذكّر عيون الفرجاني ، اللعنة على ذلك الكلب ! كلّما شزره بنظرات جافّة إلاّ وحدّثه قلبه بأنّه يعرف شيئا ما. أحيانا يحسّ وأنّه يتعمّد إثارة أعصابه ودفعه إلى إزهاق روحه حتّى يخمد فيه تينك العينين المتوهّجتين بالمكر. لويخطئ معه بكلمة واحدة يهجم عليه بوحشيّة ويوقف أنفاسه. الكلب يعذّبه بسكوته ونظراته الباردة.أمثال الفرجاني قليلون. إنّه يبيع أسته في سبيل مصلحته. كلّ من يعرفه لا ينسى علاقاته الحميمة بالمعمّرين، عاش وفيّا لأسياده وسوف يموت كذلك. ها هواليوم يحسّ بخطره قريبا منه.إنّه يقع في شباكه وعليه أن يواجهه قبل أن تحلّ الكارثة.

عصفت ريح في الخارج كالنواح فتطايرت النفايات واهتزّت صفاقات النوافذ. سحب علاّوة باب المخزن إلى النصف ثمّ ركن بين الأكياس يدخّن بصمت. كانت الأكياس تتضوّع رائحة الذّرة والطحين الذي نخر فيه السوس.تساءل لم يتركونها تفسد وتتعفّن هكذا ولا يوزّعونها على الناس؟ ! كأنّه يحرسها من أجل أن تتعفّن ! الجرذان تتزايد وفي كلّ ليلة يرتفع صئيّها أكثر. هل يعقل أن يموت الإنسان جوعا وهذه الأكداس من القمح الأمريكي ومعلّبات الجبن الهولندي ترتع فيها الفئران؟ ! إنّها تكفي عرش الصوالحيّة سنة بأكملها لووزّعوا نصفها لمقاومة البرد والشتاء ! أحيانا يتخيّلها جثثا مخيفة توشك أن تخرج من الأكياس وتقبض أنفاسه. كلّ خشخشة يسمعها توقف قلبه. دلفت لفحة هواء باردة أعقبها صوت محرّك يقترب من المخزن. إنّه صوت سيّارة الأندروفر. تناءى لحظات وكأنّ السيارة قد ابتعدت ثمّ سرعان ما عاد يقترب من جديد. صار واضحا، بهرة من الضوء الأصفر تمتدّ على الشارع المعتّم ثمّ تتسلّل خيوطها إلى المخزن. إنّها السيارة نفسها تقترب منه. الصوت يعرفه. رفع الباب قليلا مستطلعا الأمر. الشارع يتدثّر السواد في سكون لا تقطعه غير وسوسة الصراصير. اختفت

السيارة ثمّ تناءى الصوت من جديد. لعلّه عاشور وأعوانه يكنّسون البلدة من السكارى والمتأخّرين. ما كاد يضع مؤخّرته على الفراش حتّى سمع صوت العجلات تئزّ على الإسفلت. توقّفت الأندروفر بقوّة هذه المرّة. تبعها همس ثمّ وقع خطى. حديث كاللغط يقترب منه. نظر من فتحة الباب فبانت له أحذية شتويّة خضراء تصل إلى الركب تتحرّك بسرعة. معطف ألماني عسكري أزراره صفراء مكوّرة. الفرجاني بعينه، يبدوأنّه ليس وحده. الظلمة الخبيثة تحول دون ذلك والسيارة تقف بعيدا عنه. اشتمّ رائحة مخيفة عندما ألفى الحديث يقترب منه. لم يميّز الأصوات في الأوّل. فكّر في غلق المخزن من الدّاخل والتظاهر بالنوم. لكن من يدري عاقبة ذلك؟ ربّما يكون الأمر مجرّد استطلاع. ماجد لا يثق بغير الفرجاني لا سيما هذه الأيّام.
اطمأنّ قليلا وهويواسي نفسه من الهواجس التي تسلّلت إلى داخله. لكن ذلك لم يدم طويلا، أيقظته سكّة الباب وهي تصرّ بقوّة وتدور إلى الأعلى. وجف قلبه وهويرى بملء عينيه الفرجاني وسيّده ماجد يتبعهما سالم طريدة بائع القماش المعروف. رأى شررا يوشك أن يشتعل في عيونهم. زاد خوفه عندما جذب الفرجاني من جديد الستار الحديدي. الأمر إذا متعلّق به هو! دهمه الذهول من الحضور غير المتوقّع لهذه الوجوه الحمراء كالسجق. قطعت أنفاسه كلمات ماجد:
ستأكل خراءك من اليوم أيّها الكلب. أنتم لا تستحقّون الشفقة ولا المساعدة يا رعاة الخنازير !
ذهل للأسلوب الذي يخاطبه به. عرف أنّ في الأمر خطرا ينتظره فتصنّع الدهشة قائلا:
لا أفهم ما تقول سيّدي. يبدوأنّ المسألة فيها لبس.
زعق فيه من جديد:
اسكت يا ابن الزانية ولا تحاول خداعي. يكفي ما فعلته من ورائي، أحمد الله أنّي وقعت عليك قبل أن تهرب.
ابتسم سالم طريدة وقال مؤيّدا:
تأكلون الغلّة وتسبّون الملّة يا أولاد المزابل. الرجل يطعمك من خيره ويستأمنك على بيته وأنت تخونه وتطعنه في ظهره.
أحسّ وكأنّ سطلا من الماء البارد ينصبّ فوقه. كلّ هواجسه ثبتت ولم يعد له أن ينكر.
الفرجاني يقف أمامه كالديدبان. حاول أن يستجدي ماجد آخر مرّة:
سيّدي لا تصدّق كلّ ما يقال. لقد خدمتك بإخلاص ومازلت.
لم يردّ عليه بل غمز الفرجاني وكأنّه يتصرّف بخطّة مدروسة. كانت حركات العين كافية وحدها لتوزيع الأدوار وتنفيذ الأوامر.نزلت الهراوة بضراوة وحشيّة. سقط علاّوة بين

الأكياس، عاجلته اللكمات بسرعة فسالت دماؤه مختلطة بطحين الذّرة. الركلات في خصيتيه قطعت أنفاسه. انكمش متكوّرا يحمي وسطه تاركا بقية جسمه لرحمتهم.
سأعلّمك أيّها القملة كيف تلعب بنساء أسيادك.
قهقه سالم طريدة. كان علاوة في شبه غثيان يبصق دما وقد همدت حركاته. فجأة أحسّ سيلا دافئا محرقا ينصبّ على جسمه ثمّ قهقهة صارخة:
سأبول عليكم يا رعاة الخنازير ومفلّي القمل. تخونون النعمة التي أطعمناكم إيّاها من أموالنا..
لم يعد علاّوة يبالي بشيء، كأنّما جسمه قد مات. البطن وحده هوموطن الألم. كلّ شيء يحتمله إلاّ أن ينال اللكمات في بطنه أوخصيتيه. لكن لا يهمّ، سوف يتحمّل أكثر، سيشبعون منه ضربا ثمّ يتركونه، هذا أهون من عذاب السجن وأشياء أخرى. سيترك لهم جسمه يصبّون فيه أحقادهم. المهمّ أن يخرج برأسه حيّا. غطّى رأسه بيديه وانكمش على نفسه تاركا ظهره لأحذيتهم.
في مثل هذه اللحظات القلقة كانت المدينة تنام مطمئنّة. نباح متناء تحمله نسمات هادئة. كلّ شيء ساكن داكن. المخزن وحده يرسل ضوءا أصفر كليلا. جثّة نصف ميّتة وسيّارة أندروفر تتسلّل إلى الجبل مع الغبش.

*** * * * * * * ***

قال وردان:
الشتاء قاس هذه السنة يا شيخ. ما عشت" قرّة " كهذه منذ سنوات الحرب !
بصق الشيخ نايف مخاطا هلاميّا من التبغ ثمّ قال:

فعلا هذا الشتاء يذكّرني "بقرّة" سنة 14. الناس وقتها أكلوا الخبّاز وذبحوا القطط والكلاب. تصوّر وقتها كنّا ننبش في خراء الألمان . حتّى خبز الذرة اليابس لم نجده . اللعنة على تلك الأيّام. كانت فجريّة زوجتي حامل بموح وكنّا نطبخ حساء البرغل طوال فترة الشتاء حتّى ذابت الثلوج وتحرّكت الأحوال.
ابتسم وردان للحكاية. كانت النارجيلة لا تفارق فمه في مقهى العياشي. جذب أنفاسا متتالية ثمّ أردف:
صدقت يا شيخ، لولا زبل النصارى ما بقينا أحياء.
ضحك عمّار الروج ثمّ قال مداعبا كعادته:
زبل الألمان أحسن من زبل الفرنسيس. الشيخ يعرف ذلك. تتذكّر معجون الأسنان الذي نضعه في الخبز. كنّا نأكله بشراهة.
قهقه وردان حتّى بانت أسنان صفراء وافترّت شواربه كالمقود ثمّ سرعان ما عاد إلى جدّيته. أحسّ بالغضب والاستياء يتحرّكان في أعماق الشيخ نايف فغيّر الحديث:
أعوذ بالله من الشيطان، لقد كانت أيّاما قاسية. قلّة هي الرجال التي عاشت تلك الأيّام !
تصوّر كنّا نعيل سبعة رؤوس بخمس فرنكات في الشهر. نتسلّل إلى مخافر الألمان لنجمع الفضلات أونشتري منهم السجائر مقابل لحم الخنزير. مرّة عرض عليّ واحد علبة تبغ على أن أبيت معه. في الصباح ترك لي حذاءه وأعطاني ماركين.
أردف عمّار ساخرا:
كانوا أحبابك بدون شكّ. يبيعون ويدفعون في نفس الوقت. إنّها نعمة تحسد عليها !
قهقه وردان كالمنتشي.
والله كانت نعمة للأشقياء مثلنا. هي أيّام انقضت بصعوبة ولا نعرف ماذا يخبّئ لنا الغد؟ !
ما كاد وردان ينهي كلامه حتّى دخل جعفر. يبدوعليه العبوس والغضب. كان يجدّف على العالم ويتمتم بكلمات متوعّدة. طلب قهوة سوداء ثمّ جلس في الباحة. أخرج من تحت سترته سكينا طويلا ثمّ بسطها على الطاولة. المشهد أثار الذعر والخوف في عيون الجالسين. حتّى وردان نفسه كفّ عن الحديث وراح يرقب حركاته باحتراس.
سمعوه يتوعّد قائلا:
أولاد القحاب يريدون غلق مجزرتي. يتّهمونني ببيع لحم البهائم. من أين لهم في معرفة اللحم؟ ! والله العظيم لن أخرج من المحلّ إلاّ حيّا أوميّتا !
لم يستطع أحد أن يقترب منه عندما رأى السكين تلمع أمامه. شرب كأس القهوة في رشفة واحدة ثمّ التفت إلى من حوله قائلا:
وأنتم، أيّها الكلاب، تتشفّون وتشمتون !

هوى على الطاولة ثمّ رماها فوقهم حتّى تطايرت الكؤوس وتناثرت الكراسي. حاول شابّ أن يقترب منه من الخلف لكنّه ازداد هيجانا فأمسك بقارورة الغاز ورفعها مهدّدا: من سيقترب منّي أهشّم رأسه.
أفسحوا له المجال كي يخرج. كان الموت يشعّ في نظراته. هيكله العملاق يسدّ النور عن المقهى. خاطبه أحدهم:
اهدأ يا جعفر، ليس هكذا تحلّ الأمور.
نظر إليه بقساوة كمن يسمع كلاما غريبا عنه ثمّ قال:
سوف أقتلهم واحدا واحدا وأموت. أنا لا أخشى شيئا. هم يقطعون رزقي وأنا أقطع أنفاسهم.
رمى بالقارورة الضخمة خارجا ثمّ راح يصيح ويتوعّد رافعا السكين تلمع كالسيف. انحدر في الشارع يطارد المارّة ثملا بنشوة الانتقام والناس تفرّ من أمامه في ذعر.
عاد الهدوء إلى المقهى بينما تنحنح وردان مطمئنّا على سلامة صلعته من القوارير الطائشة. قال الشيخ نايف:
هذا الرجل سيجنّ أويدخل السجن بدون شكّ. الموت يلمع في عينيه ولا أظنّه يتراجع عن فعلته.
خاطبه وردان:
السجن أهون له يا شيخ. تصوّر ماذا سنفعل لوقطعت الحكومة أرزاقنا مثله. لا أظنّك تتحمّل. نحن نتجشّم الحياة بصعوبة وبمعاش لا يكفي أسبوعا واحدا فما بالك لوكنت بدون معاش؟ ! هكذا يا شيخ لا يحسّ بالجمرة إلاّ من يدوس عليها. جعفر هذا واحد من آلاف، لعلّه الوحيد الذي لم يتحمّل المظالم لكن يوم تتحرّك الآلاف ستكون الكارثة.
نظر إليه عمّار الروح نظرة استغراب ثمّ خاطبه:
إنّك تتحدّث بألغاز يا وردان. لا أظنّك تعلّمت هذا وراء نعجات " مدام فيو".
ضحك ساخرا لكنّ وردان قاطعه بنبرة صارمة وقد بدا على وجهه العبوس وتغيّرت سحنته:
أنت لا تعرف شيئا يا عمّار. أنت تضحك فقط لأنّك صرت مثل الكلاب المدجّنة بعد أن كانت ذئابا. فعلا ما قلت تعلّمت الكثير وزوج " مدام فيو" كان أرحم من الذين يعيشون معنا اليوم. كان رجلا عظيما علّمني أشياء كثيرة وحدّثني عن تجاربه وسفراته. مرّة حدّثني عن آلاف مؤلّفة من العمال مثلنا تضرب في يوم واحد وتركع حكومتها بالقوّة. كان ذلك في بلد نسيت اسمه، ذكره لي عندما سألته عن صورة قديمة له يعلّقها في غرفته. منذ ذلك اليوم عرفت أنّنا مساكين، نأكل ونتناسل ونبول ونتغوّط أمّا رؤوسنا

فهي خاوية. قد أبدوتافها بالنسبة إليك يا عمّار ولكنّي لست الكلب المدجّن مثل الآخرين. أنا مثل جعفر يمكن أن أقتل أوأدخل السجن في أيّ لحظة لوعشت محنته.
خاطبه الشيخ نايف مهدئا:
ذلك قدرنا يا وردان ! لا يمكن أن نغيّر الكون بعصا موسى. أنت تعرف أنّ مثل هذا الكلام يصل إلى الآذان بسرعة ويثير حولك المشاكل.
لقد تربّينا على الخوف والطاعة يا شيخ. لسنا سوى ذلك القطيع المسكين من الغنم. إنّنا لم نجن من الحياة غير الشقاء وسوف نموت كالفئران في أكواخ حقيرة. لوتكلّمنا لن نخسر شيئا، ما الذي سنخاف عليه اليوم بعد كلّ هذا؟ !
كان الشيخ نايف يصغي إليه وكأنّه يسمعه لأوّل مرّة. بين الحين والحين يرسل قذائف من بصاق بنيّ اللون على جدار المقهى. أحسّ وأنّ وردان يخفي في رأسه أفكارا خطيرة ملغزة، لكنّه استغرب لماذا لم يحدّثه بها إلاّ اليوم رغم عشرتهما القديمة.

*** * * * * * * ***

*** * * * * * * ***

خفّت العواصف وبدأت أنفاس الشتاء تخمد شيئا فشيئا. بانت على الأرض كويرات من الفطر وفاحت أوراق الشجر. جوّ مشبع بخضرة غامقة تبشّر بالصحووقدوم الربيع. أحيانا تمدّ الشمس إصبعها من وراء الأفق فتبرز الزنابق الحمراء وقد غضّنها الصقيع وتلاعبت بأوراقها ريح الصباح. زنابق الماء بيضاء اللون في شكل أبواق أمّا زنابق الحقول فهي حمراء يانعة تتوسّطها بثرات سوداء كالنمش.

تنهّدت الطواحين ثملة بنشوة الصحوثمّ خاطبت الريح في كبرياء:
هذا أنت كما ترين، كلّ عتيّ عنيد وله فناء. الدهر يومان كما يقال. لسوف تسكن أنفاسك وتتلاشى بين الجبال والفجاج. النور يسحرني وتعويذة الفجر تغويني. انظري الكون يهلّل انبعاث الزمن. لسوف تخمدين وتصيرين نسيما خلّبا ينفح عنّا سكون الهجر.
رفّت الريح رقيقة وقد أعياها السفر:
احذري، ما كلّ علّة بدائمة. قد أختبئ في الفجاج والشعاب وأسكن النوّ في الأقاصي. لا تنسي رحى الزمان فهي قاتلة ودورة الفصول باقية.
لم تكترث الطواحين، بل راحت ترفرف نشوة واستكبارا:
ليس أعذب من الزمان ساعة. الكون كلّه لي والشمس قبلتي. لقد خفّت دواليبي وبانت الحياة كأجمل ما يكون. انظري الزنابق تمدّ أعناقها وألفاف الشجر تسبّح لانبلاج الفلق. إنّي لأكتفي بلحظة عابرة من الحياة مطهّرة من الزمن.
قالتها ثمّ راحت تعزف بدواليبها أنشودة الربيع.

*** * * * * * * ***

يا إلهي ! ما أسوأ وجه الحياة ! لماذا كلّ هذا العذاب؟ لحظات فقط وينتهي كلّ شيء. تسكن تلك الآلة العجيبة التي يسمّونها القلب، وعندها يزول الغثيان. لكنّ اللحظات تحول سنوات في عمر الزمان. المشكلة من الأوّل. كيف نملك الشجاعة الكافية على تطهير القلب من الخوف والجسم من الألم. كلّ اللذين فعلوا ذلك يملكون شجاعة خارقة. إنّه الموقف الواعي الوحيد من الحياة الآسنة. أنا لا أصدّق أبطال الروايات. " إيما " شربت الزرنيخ و" آنا كارينينا " رمت بجسمها تحت القطار. لولم يكنّ بطلات من ورق لما فعلن ذلك. الجسم وحده هومصدر الخوف. لولاه لهانت المسألة وصار في مقدور أيّ إنسان أن يختار بين الحياة والموت.
تلمّست بطنها ثمّ نظرت إليه في المرآة. سيتحلّل هذا الجسم وتنخر فيه الهوام ويمتلئ بروائح عفنة. ستبلى العظام وتهترئ. كلّ ذلك يهون.. المشكلة كيف نملك الشجاعة ! ذلك يتطلّب قلاب صلبا وإرادة خارقة..

دلفت إلى المطبخ وعيناها تلتمع بأسرار غامضة. بدا وجهها أصفر كالشمع تشيع فيه رائحة الخوف والخطر في نفس الوقت. رأت السكاكين تتدلّى كالشرائط. نصالها المذبّبة تثير القشعريرة.يا إلهي ! سيتعذّب الجسم كثيرا وتبقى فيه آثار مؤلمة، لا بل ربّما تكون هذه السكاكين الفولاذيّة غير نافذة. داعبت المقابض بيد مرتجفة. نظرت إليها مليّا تمرّر أصابعها على ذكراتها ثمّ دسّتها في الدولاب. عاودها الغثيان والألم في البطن. زاغت عيناها فجأة وارتمت على المغسل تقيء سائلا هلاميّا أصفر. الأوجاع تتزايد متقطّعة. أحسّت بمرارة ودوار. قاومت رغبة البكاء وتمنّت لوتسكن أوجاعها بضربة واحدة. بكت في أعماقها وهي تنهض بتثاقل. سوف أنهي حياة العذاب هذه ! الموت أهون من الفضيحة ومن حياة راكدة.. فجأة قفزت إلى ذهنها صورة رائد.. تراه هل مازال حيّا يذكرها؟ ! الجامعة، مقهى البحيرة والأماسي المشرقة. لا تدري لماذا عادت إلى مخيّلتها ذكريات المقبرة القديمة. مقبرة النصارى كانت مكانها المفضّل.. الزهور الحمراء وشجيرات التنوب. كانت القبور تثير فيها الخوف والخشوع.. خشوع مشحون بالأسرار المجهولة.

تقدّمت ببطء ثمّ سارت بتراخ، غالبت الألم والدوخة. الرواق بدا لها نفقا طويلا بعيد المبلغ. تلمّست بيدها الحيطان حتّى وصلت الحمّام. أدارت القفل بيد مرتجفة. فكرة الحمام أهون وأسهل، لكنّ ثمّة وقت طويل لتفيض الأنفاس وتسكن تلك الآلة العجيبة. نظرت إلى المرآة الشاحبة مرّة أخرى. بدا لها جمالها متوهّجا داعبت شعرها وأسدلته متهدّلا كالعريش. اضطرمت فيها فجأة رغبة الحياة. الحياة غالية لا حدّ لآفاقها. تراجعت كأنّها لا تروم أن ترى وجهها في المرآة. كلّ دقيقة تمرّ بالنسبة لها انتصار للخوف والعجز. يجب أن تكون المغامرة بالسرعة التي لا يشتغل فيها الخوف وإلاّ لما استطاع المرء أن يقرّر شيئا. بلحظة من التركيز يصبح الموت على قيد أنملة منك.كذلك يفعل المساقون للإعدام. إنّها الوسيلة المثلى لتغييب الوعي. مشكلة الإنسان أنّه حيوان واع والوعي بالموت هومعضلته الكبرى.

تقدّمت بتراخ ثمّ فتحت السخّان على الآخر. جذبت نفسا عميقا من البخار المتصاعد. راحت ترقب الدوائر المتلاشية كالسحاب فألفت حياتها تذوب شبيهة بذلك. تتلاشى مثل الجليد اللامع عندما تشتدّ عليه الحرارة.

كطيف رقيق، دخلت المغسل بكاملها. لم تنزع " الروب دي شامبر " بل غاصت بهدوء كأنّها تذوب في كدر من الدخان. ظلّ صوت الماء وحده يمزّق هسيس الصمت.

غامت عيناها كأنّها تغفو، ثمّ أطلّ الموت في صفرة نظراتها اليائسة وأظلمت الدنيا.

* * * * * * * *

شقشق ضوء الفجر وبانت أسارير الكون. قطرات الندى الباردة تتتابع في وسوسة من أعالي الزان والفرنان. على الطريق الوعر امتدّت أحراش السرخس تغطّي الأرض وتعانق الجذوع. وسط غيضة مظلمة من أشجار الصنوبر والشربين بانت سقيفة القشّ.. الجسم مرضوض بوحشيّة وقد شدّ إلى عمود من الزان. بدت على الوجه آثار دماء وبقع زرقاء منتفخة. كان علاّوة يتنفّس بصعوبة، يلوح الموت في صفرة نظراته وحشرجاته المتقطّعة. مضت عليه ليلتان من البرد والجوع والعطش. حتّى آلام الجسم وجروحه ماتت واندملت بفعل البرد والوقت. بقي البطن وحده مركز الدّاء. كلّ الأوجاع تسكن وتزول إلاّ الجوع. لاحت في نظرته اليائسة رغبة جامحة للحياة وتوق شديد إلى رؤية الناس. لا شكّ أنّ واحدا منهم سيذكره ويفتقده ولم لا يأتي لنجدته ويفكّ قيده ! سيبحثون عنه عندما يفتقدونه. والدته شلبيّة لن تنام ولن يهدأ لها جفن، أمّا غالية فستنتظره وتذكره كلّما طلع الفجر. أحسّ بعينيه مليئتين دموعا. لم يبك في حياته قطّ لكن ها هوينتحب ويحشرج كالنّساء.

تطلّع يسائل الأفق والغيوم الأرجوانيّة. تمنّى لوتأخذه هذه السفن الكمداء من الغيم وتسافر به إلى المجهول. لم يجاوبه في هذا الخلاء غير هدير سواق متناء أوحفيف الريح تداعب الشجر. حاول الوقوف لكنّ آلاما في فخذه الأيسر تنبض كلّما تحرّك. يداه موثقتان بشدّة إلى العمود. وزغة رقطاء حامت فوقه ثمّ اختفت بين القصب. ظلّ يتابع

ظهورها من جديد. كان في أمسّ الحاجة إلى أيّ شيء يؤنسه، يتحرّك إلى جانبه. تسلّلت في داخله رغبة في محادثة أيّ شخص. لوبقي طويلا سيلتهمه الخلاء ويجنّ. تمثّلت في مخّه المحموم صورة مقداد، لا شكّ أنّه جنّ هوالآخر قبل أن يشعل النار في جسمه. الحياة لا تهون بتلك السهولة.. اعترته ارتعاشات غريبة وهويتخيّل نفسه يهذي بكلمات غامضة. الموت بحرّية أهون من الجنون في مثل هذه القيود التي تشلّ يده. تذكّر علبة التبغ في جيبه وأحسّ برغبة جامحة في أنفاس عميقة. السيجارة هي المسلّي الوحيد في اللحظات العصيبة. لولا السجائر لما بقي المساجين أحياء..

عادت الوزغة من جديد، نظر إلى رأسها الحادّ والمفرطح وراح يتبع حركاتها. آه يا وزغتي الجميلة ! يا أنيستي في محبسي وخلائي ! لا تختفي مرّة أخرى فليس لي سواك ! سمّرت فيه بعينين كالعقيق ثمّ توارت.

كانت السقيفة نصف معتّمة، يطلّ من أعلاها ضياء شاحب. تدلّت أعواد السرخس اليابس من الداخل وأعمدة مسخمة سوداء. نظر علاّوة إلى النصب والرماد الأربد المنطفئ فعرف أنّها مظلّة يأوي إليها حرّاس الغابات عندما تشتدّ العواصف. طافت برأسه نسمات الأمل فجأة. سوف يعثرون عليه. المهمّ أن يبقى حيّا لكن عضلاته المتصلّبة لا تزال تؤلمه.هذه ليلته الثالثة بنفس الوضع. تلاشى أمله من جديد. إنّه يتعلّق بوهم بطيء لا متناه كالسراب. ستخور قواه وتبدأ رحلة العطش والجوع. تطلّع إلى الأفق الشاحب من تحت السقيفة، نظر إليه بتوسّل وقد جاشت نفسه. هتف إليه من أعماقه، طافت الذكريات شفّافة، مريم.. يا محبوبتي الجميلة ! إنّك لذّة الحبّ الوحيدة التي ذقتها في حياتي.. أنت أنيستي خلال كسل الأيّام وعذاب الليالي ! أنت الخفر الوديع الذي أحبّني بلا حساب ومنحني بلا حساب !.. لا تضجّ أيّها الأفق ولا تنظر إليّ هكذا، خلال أيّام معدودات ستنطفئ نسمة الأمل وينتهي كلّ شيء، سيسفر الظلام نفسي وتبقى روحي تشدوفي جوف الخلاء.

خانه طرفه فانحدرت دمعتين حارّتين، لم يبك من الخوف ولا من الألم. كان يبكي حياته المتوارية بعيدا عن الناس موته بمهانة وسط الخلاء.

حتّى الموت يكون له معنى أحيانا إلاّ أن تنتهي حياته هكذا، لا يمكن أبدا، لا يمكن ! تململ وحاول أن ينتصب ثمّ حرّك معصميه بشدّة، صرخ عاليا، انتحب. كانت الغابة تغرق في سكون المقابر، لا ارتعاشة في الهواء أوعلى الماء.حتّى الجوّ صار هادئا لطيفا إلاّ من ندف الثلج المتساقطة برفق، لا تلبث أن تتراقص في حلقات لا نهاية لها، ثمّ تذوب على الأرض الرطبة. البرودة تنفذ إلى النخاع، تلسع العظام والثلج الذائب يتساقط دون أعاصير. جذب المعطف بأسنانه لكنّه لم يغطّ كامل جسمه، مازالت قدماه عاريتين. يداه رخوتان جامدتان. سرت البرودة إلى ركبته. الدقائق تمرّ ثقيلة قاسية

وفي كلّ دقيقة ينفد الأمل ويتلاشى. بدت على وجهه صفرة شاحبة وراح يتمتم بتحدّ يائس: '' لست الغرّ الذي يهاب الموت، سوف أقابله وأنتظره إلى آخر لحظة. أنا ما خفت أبدا من الموت. عليّ فقط أن اكبح تلك الغريزة التي توقظ فيّ شيئا اسمه الخوف.. ''

خيّل إليه بشعور واهم أنّه يصارع الموت، يقطع رأسه مثل حيوان خرافيّ. القوّة والشجاعة وحدها في القلب، إذا صمد القلب تلاشى الخوف. المشكلة كيف تواجه الموت بقلب نابض بالحياة وبنفحة سعادة وكبرياء؟ ! كثيرون هم الذين اختاروا أحلامهم بهذا الشكل. مقداد لم يخف عندما أحرق نفسه والسرجان بشير لم يتردّد لحظة وهويقتل. هؤلاء يموتون كالأنبياء، لهم من الشجاعة ما دون البشر. الموت يتهاوى أمام أقدامهم ذليلا.

انداحت لحظات ساخرة كأضغاث أحلام، كالسراب يطفوويشفّ.. لحظات أقوى من الزمن وجبروت الفناء.قوّة خرافيّة تحلّ في روحه وتحلّق بها في سماء أزليّة. تذكّر علاّوة فائز اللاّفي، تراه هل مازال حيّا؟! هل مازال يذكره؟ إنّه الرجل الوحيد الذي ترك بصمات غائرة في قلبه.. أمثال فائز اللافي لا يموتون

أرواحهم تسكن قلوب الناس ووجدانهم.

غامت عيناه حسرة وراح يردّد بنبرة مستغيثة مؤثّرة: لا يمكن أن أموت، لا يمكن.. لا يمكن..

عصفت ريح الشتاء فجأة وظلّ الثلج ينثال. بدا كلّ شيء وعيدا ونذيرا منحوسا.

* * * * * * * *

عاد سوداويّ المزاج، عصبيّا حتّى أنّه راح ينظر إلى " الفيلّة " وكأنّه يدخل جحيما. لقد تهاوى في داخله دفق العواطف الذي كان يكنّه تجاهها. كيف تجرؤ أن تستبدله براعي خنازير وتخرج معه للصّيد مرّات كثيرة. لا شكّ أنّها فقدت عقلها ! لا هذا غير ممكن ! هذا من شطحاتها الجنونيّة ومزاجها الغريب ! في كثير من المرّات يغفر لها مغامراتها الصبيانيّة، يتظاهر أنّه لا يعرف شيئا لكن أن تخونه مع ذلك الوغد فهذا ما لا يصدّقه العقل ! لقد بدت في الأيّام الأخيرة مطفأة الحواسّ، خامدة العواطف. نظراتها باردة. أحيانا تشكومن غثيان مفاجئ . عجز عن فهمها أوتبرير ألغازها ! أحيانا يراها شديدة الشغف به وأحيانا أخرى باردة، كثيرة الانفعال عميقة الغور. جذب نفسا عميقا من الهواء. اعتراه فجأة تشنّج وهويتخيّل الموقف الذي ستقابله به. مهما كانت أعذارها فإنّها لن تبرّر المذلّة التي سمّمت بها حياته. لن يغفر لها ذلك، لن يضعف أمام ثورتها العصبيّة.. لقد مات قلبه واستوت أمامه الأشياء.

دفع الباب الحديديّ ثمّ سار على البلاط الرّخاميّ. لم يكن ينظر إلى شيء، دماغه تتماوج فيه الأفكار وتغلي كالمرجل. لمّا وصل إلى الباب الرئيسي، توقّف قليلا كأنّه

يستجمع أفكاره المشتّتة. أدار القفل بيد مرتعشة وهوفي موجة غضبه. أنفاسه تهتزّ، يوشك على الانفجار مثل البارود لا تحتمل النار طويلا. إنّها مسالة شرف، حياة أوموت، وصمة في تاريخ عائلته. صفق الباب بقوّة كأنّه يتعمّد إثارتها. البيت يرين في صمت وهدوء، الصالة مظلمة لأنّ الستائر مسدلة والنور شاحب لا يبرز غير بياض أشخم في مستوى السقف.

مشى خطوات كأنّه يسارع الزمن، لم ينتبه إلى البساط تحت قدميه يعوم في الماء كما الإسفنج ولا صوت حذائه يقع على صفحات الماء المتدفّقة من تحت الأبواب. كان مبلبل الذهن، فاقد التركيز حتّى أنّه لم يسائل نفسه إلاّ عندما تعثّر بالبساط. الماء يكتسح الصالون ويمتدّ إلى الغرف المغلقة. كمن يستفيق من كابوس دلف إلى المطبخ ثمّ اتّجه إلى الحمّام. ذهل لمّا وجد الباب مقفلا. نادى مرّات عديدة وضرب الباب بقوّة. تضاعفت هواجسه وتمتم '' كنت أتوقّع هذا ''. بدا مجنونا وهولا يسمع نداء أواستغاثة من الداخل فضاعف من قوّته حتّى بدأ المزلاج يتراقص وبخار الماء يتدفّق عبر الفتحة. غمغم بنبرة يائسة '' أخشى أن يكون الأمر قد انتهى..'' الركلة الأخيرة أطارت القفل وانفتح الباب كاشفا عن منظر مريع. كان الجسم الرخويعوم في الماء وقد همدت حركاته وسكنت. وجهها أكمد وعيناها مطبقتان. سدائل شعرها تطفوعلى سطح الماء كأنّها على مهد من الأثير. عاد إليها ذلك الصفاء السحريّ وبرز بياض الصدر المرمريّ. رفعها كالمجنون من المغسل فانهار رأسها إلى الوراء وتدلّت يداها في ارتخاء. راح يصرخ ويغمغم مذعورا، لا يدري ما يفعل فطفق يبكي ويشهق، ينظر إليها ليتأكّد من أنفاسها المتبقّية. ما بقي أيّ أمل، انتهت تماما.

صدرها النابض بالحبّ والحياة لم يعد يتحرّك. سار بها إلى غرفة النوم ثمّ وضعها على السرير. اشتمّ رائحة الموت فجأة، كانت ثقيلة الوزن صفراء كالشمع. طلب الدكتور " رومانوف " ثمّ عاد يتأمّل الجسم الهامد وقد انطفأ فيه نسغ الحياة. كلّ شيء يفقد لونه، يشحب ويتلاشى بسرعة. داعب الوجه وكأنّه أوّل مرّة ينظر إليها، يملّي عينيه بتفاصيل بدت له كالتجلّيات. لكنّه كلّما رفع الرأس، تهاوى من جديد إلى الوراء وبانت عروق زرقاء متشنّجة على الرقبة.

لمّا جاء الدكتور بعد لحظات، كان كل شيء قد انتهى. واساه قائلا بلكنة فرنسيّة متعثّرة: '' أرجوأن تتحلّى بالصبر والشجاعة يا سيّد ماجد، هذا قدر كلّ الناس.. '' طفق يبكي ويشهق وقد فاجأته حقيقة الموت. بسرعة مذهلة غصّ البيت بالناس في حين دخلت زوجة المناعي مع نساء أخريات يرتّبن الغرفة ويجفّفن البلاط من الماء.

لمّا هبط الليل انهلّ وابل غريب من البرد. كان الصالون قد أخلي من أثاثه الكبير ليسع الوافدين.. سالم طريدة يتقدّم ويعزّيه بحرارة مربّتا على كتفه. الحاضرون يتحدّثون

عن الموت والقيامة وعذاب القبر ويحقّرون في نفس الوقت حياة الإنسان. قطع حديثهم زعيق وصراخ مفاجئ.. سيرين ووالدتها تنتحبان منذ أن نزلتا من السيارة. انهارت الأمّ في نوبة فظيعة لمّا دخلت الصالون وصدمتها الحقيقة. بكت بغصّة مردّدة: '' مريم في عزّ شبابها ! لا يمكن أن تموت.. كانت على ما يرام ! '' أخذوها إلى غرفة النوم لترى ابنتها آخر مرّة. صرخت بصوت ممزّق مختنق بالقماش والأغطية. احتضنت الجثّة وهي تشهق متألّمة للنار المتأجّجة بداخلها. أخرجوها بصعوبة، كانت في شبه إغماءة. دخل ماجد غرفة النوم من جديد، أقفل الباب. الجثّة تنام هادئة على وهج الشمعتين الكليل.. ظلال الوجه تتحرّك حيّة على السقف. نظر بنهم إلى الوجه الشاحب، لامس اليدين الرخوتين وتراكم في ذهنه زخم الذكريات البعيدة المتعثّرة.. القبلة الأولى.. ثنيات الوجه عندما تضحك أوتبتسم.. اهتزاز صوتها لا يزال عالقا بأذنه.. الأشياء الصغيرة.. هذه النائمة أمامه زوجته، لن تتكلّم، لن تتحرّك بعد، لن يراها تذرع الصالون أوتقف إلى النافذة وفي يدها كتاب. لم يبق لها سوى سويعات ثمّ توارى في التراب، تختفي إلى الأبد. بعد سنوات تتلاشى، تبقى اسما فقط يذكر في سجلّ الوفيات. تصير مجرّد ذكرى غائمة، ثمّ لا شيء، لا شيء..
الحقيقة البشعة التي نقشعرّ لذكرها..
وقعت عيناه على المكتب، في زواياه تماثيل وأباجورة صغيرة. " الأوهام الضائعة " لبلزاك. خيط ورديّ يشقّه إلى النصف ليحدّد الصفحة التي وقفت عندها. كأنّه يتحسّس بصمات أناملها على الأوراق ويتضوّع أنفاسها وهي تتهجّى الكلمات. لم تكمل القصّة.. ما زال أمامها أكثر من مائة صفحة، لعلّها تركت ذلك لأيّام باقية، أوكانت تفكّر في شيء آخر شغلها عن القراءة.. الزمن سبقها وإلاّ لما كان قد وجد الخيط في مكانه.
تصفّح ثمّ مرّر الأوراق بسرعة، تحسّس شيئا صلبا يتخلّل الأوراق الأخيرة.. بطاقة بريديّة وزهور حمراء عاشقة.. قرأ: '' لا يمكنني أبدا أن أبقى بعيدا عنك.. سوف نهرب.. أحبّك إلى درجة الجنون.. '' كان العنوان واضحا لكن لا ذكر للاسم ولا لشيء آخر.. الخطّ رديء وغير مستقيم وختم البريد عليه تاريخ حديث. ذهل لكلمات الحبّ هذه. كمن سكب عليه ماء بارد راح يردّد: '' لا يمكن أبدا.. لا يمكن.. '' الشكّ الذي خامره صار يقينا. ليس بحاجة ليعرف الكثير. رمى بالكتاب وكأنّه يتخلّص من أشياء سامّة. كمن صعق ولّى وجهه عنها. لم يستطع رؤيتها ولا أن يتأمّل وجهها القاسي وتقاطيع الجسد تحت الغطاء. إنّه السرّ المرعب الذي تبلبل في ذهنه. كلاّ ! ليست مريم هي التي تخون.. ليتها صارحتني قبل أن ترحل !

فتح النافذة وراح ينشج بصمت. بدأ ضوء النجوم يتلاشى، بياض فاتر يمدّ إصبعه من الأفق.. غيوم شفيفة مخمليّة تهتك حجب الظلام.
في الغد كان المأتم، خرج ماجد ماجد من الغرفة بعد أن ودّع لآخر مرّة الوجه النائم إلى الأبد. دامت مراسم الجنازة وقتا طويلا.. انتهى كلّ ذلك بموكب ضخم يتّجه نحوغيضة من الصنوبر تقع خلف الكنيسة القديمة. هناك أعدّت حفرة مستطيلة وفرشت بالريحان لترقد فيها مريم إلى اللاّنهاية. انفضّ المشيّعون يتسلّلون بين شجيرات الصنوبر وقد انتهى كلّ شيء. كان الدكتور " رومانوف " يراقب ماجد من بعيد. ظلّ يقف ممسكا غليونه بشفتيه ثمّ اقترب منه. طوى رقبة معطفه وهمس له بنبرة معزّية حزينة: ‘‘ آسف يا سيّد ماجد، القدر هكذا.. كنت سترزق بطفلة جميلة كالشهد.. الحياة ليست أفضل أوأسوأ ممّا نظنّ.. ’’
حيّاه ثمّ نفث من غليونه دخانا كثيفا وتوارى في الطريق.

* * * * * * * *

‘‘ درر ! درر !.. ’’ أنا قاعد في الظلّ والشيخ يطلّ
يوزن كيلوورطل بالفنطازيّة
‘‘ درر ! درر !.. ’’ لويزة هذا الصباح ليست كعادتها، تنبح كثيرا وتنبش خلف النعاج، تدخل وسطهم كأنها تريد أن تحتمي من شيء ما ثمّ تفرّقهم.
ضحك الزاهي لمّا رآها كذلك. كلبته العجيبة التي تشمّ خبايا الأمور بحدس خارق. يصفّر إليها فتركض نحوه ثمّ ترفع رجليها الأماميتين وتسندهما على صدره. تلهث وهي تحدّق فيه بعينين مدورتين كالعقيق، لسانها يتدلّى، تحاول أن تلعق وجهه لكنّه يدفعها إلى الأمام.
ساق نعاجه يدفعها كالجيوش إلى الغيضات الرطبة حيث الكلأ والماء. كان يشعر بسعادة غامضة، اختمار غريب يتولّد في صدره. لعلّه الربيع الذي بدأ يحرّك نسغ الحياة، لعلّه قلبه الذي خفق ذلك المساء. المساء الذي تبدّت له الدنيا ورديّة كحمرة الشفق. لم ينم ليلتها ولم يهدأ له بال، سافرت به الأحلام في ثنيات عذبة وغدا يحسّ بلذّة ذاك الشيء الذي يسمّونه الحبّ. ضحكت له شاذليّة لمّا مدّ لها جفنة اللبن من وراء

الزريبة. لأوّل مرّة تضحك وتفرج عن أسنان كالبرد وما يخبله أكثر هونظراتها الثابتة العميقة المخترقة. نظرات تناديه برغبة مضطرمة للذهاب بعيدا، بعيدا جدّا..
أنت الزاهي، راعي الغنم المسكين صرت جديرا بلفت الأنظار ! صار لك قلب وأشياء تخفق في الأعماق ! إنّها شمسك، فجرك وبداية تفجّر الآمال ! تملّكته رغبة في أن يقبّل كلّ الأشياء الصغيرة التي يصادفها، تدفّقت العواطف المختبئة وبدا له الكون تجلّيات عجيبة.
'' درر ! درر !.. '' يضع إصبعين في فمه ثمّ يصفّر بطريقته الخاصّة فتستدير النعاج لوحدها وتنعطف. تعرف بغرائزها الساذجة أوامر صاحبها ومقاصده. تركض بسرعة ثمّ تتجمّع عندما تلمح طبقة خضراء بارزة وسط الجليد.تتدافع، تثغو. الزاهي يعرف المسالك الرطبة والدافئة مثلما يعرف جيوبه فهذه الروابي والأحراش المظلمة عالمه من سنين. كلّ ثنيّة أوغيضة صغيرة له معها ذكريات وحتّى الأشجار الهرمة المجوّفة تحمل علامات '' بوسعاده '' *. لا يمكن أن ينسى هذه التفاصيل ولا هذه الدروب التي عبرها مئات المرّات.
عادت إلى ذهنه صورة شاذليّة، لم تبرح خياله ولوللحظة. ابتسامتها سرت في كيانه كلّه. ليته يخترق ذلك المجهول ويعرف ماذا تخبّئ وراء تينك العينين. مدّت له بضع عرانس من الذّرة المشويّة ثمّ أردفت في تغنّج '' أمّي تسلّم عليك وتقول لماذا لا تزورنا.. '' هل صحيح ذلك؟ ! الجملة الأخيرة تجعل قلبه يتدفّق بأمواج الحياة. يعرف بحدسه أنّ شاذليّة هي التي أضافتها.. إحساسه يقول له هكذا، فالعظام تصفّر على بعضها.

*** عبارة عن موسى صغير يستخدمه المزارعون وأهالي الريف**
وكلّ الأشياء التي يخمّنها ترتسم في عينيها اللامعتين كحبّات العقيق. عندما يخترقها بنظراته يتضرّج وجهها وتخشع طرفها حياء.
قطعت خواطره فجأة ضربات فأس متنائية، ثمّ طقطقة شجرة اجتثّت. الفلاّحون يستغلّون الأشجار التي يقصفها الجليد والأغصان المنفصلة فيقطعونها حطبا للمدافئ. أحيانا يلتجئون إلى روث البقر وقودا عندما ينعدم الحطب.أنّهم يقهرون الجليد الذي يجمّد النسغ ويوقف الحياة. بسطاء هؤلاء الفلاّحون لا يحلمون كثيرا إلاّ بما يملأ بطونهم أويقيهم نوبات العاصفة. ولكن حينما تراهم يقاومون ذلك تعلم أنّه ثمّة قوّة غريبة كامنة فيهم.
صفّر الزاهي مرّات متتالية، انعطفت على إثرها النعاج ثمّ غاصت في المنحدر. صوت حوافرها يتردّد، يحمل إلى الأذن نقرات عذبة عذوبة من يستلذّ وابلا من الطلقات. كان في نيّته أن يرعى نعاجه في السهب الشرقيّ لكنّه عدل عن ذلك خوفا من أن تكون

السهول هناك منطمرة بالثلوج والريح أقوى. لا يهمّ، العاصفة تخفّ كلّما دخل غابات الجهة القبليّة. لم يرع في تلك الأحرش منذ مدّة فهي دافئة في الشتاء والجليد لا يصل إليها بكثرة. كمن يدفعه حنين إلى تلك المناطق المجهولة والمسالك المعتّمة أحسّ الزاهي بنشوة غامضة ترتجف في أعماقه. هدير السواقي وأريج الريحان يناديانه ويجذبانه إلى الأعماق، إلى عالمه وملكوته. لا أحد يعرف مذاق ذلك السحر إلاّ من يجرّبه. رعشة تتفتّح وتجعلك وحيدا مع ذاتك، حرّا بصمتك وسط سحر الطبيعة. لويزة تختفي وسط الدغل ثمّ تبرز. أحيانا تتوارى وسط النعاج، تمدّ رأسها وتراقص ذيلها ثمّ تتقدّم وتندفع إلى الأمام. رفعت ساقيها الأماميتين وراحت تكشط بهما جذع شجرة منخورة. تلهث وتهتزّ.. إنّها في أوج اهتياجها كأنّها تحفل بنشوة الربيع الصباحيّة.

دخل الزاهي دغلا كثيفا تشابكت فيه أغصان العلّيق الخضراء اليانعة. كان الصمت خليّا قاسيا إلاّ من وشوشة بعض الهوام. انتابته رعشة كالشعاع وهويدفع نعاجه وسط المسالك المظلمة. إنّها الظلمة التي تسطوعلى النّور.. يهبّ الهواء رقيقا لاذعا فتلوي الأعشاب أعناقها وتهتزّ مفاصل الأشجار مع بعضها البعض.

لمع بياض الأفق فجأة أمامه. عرف أنّه قد خرج من الدّغل إلى منطقة مكشوفة. الدغل يبعث خوفا مجهولا الحفيف الخافت المتماوج يوقف قلبه. إنّه الشعور العادي الذي ينتاب كلّ إنسان تنفرد به الطبيعة وتسلّمه إلى أسرارها.

انداح أمامه سهل فرشته بسط الجليد. تطلّ أحيانا بقع خضراء تتخلّلها رؤوس السرخس. كأنّها تتحدّى الجليد فترفع هاماتها من تحت الملاءة البيضاء.

اندفعت لويزة تركض وسط الجليد. تغوص في الأمواج المكلّلة بالزبد الأبيض. صفّر الزاهي لمّا رآها تنحدر في السهب وتبعد عنه تاركة آثار حوافرها في شكل ثقوب سوداء متتابعة. لم تحفل بصاحبها، بل ظلّت تركض كالمأخوذة بسحر البياض. تصاعد نباحها يملأ الفضاء، يقطع السبات الكئيب. راح النباح يتناءى شيئا فشيئا لمّا ابتعدت وتوارت في المنحدر. خاف الزاهي أن تشلّ البرودة قوائمها أوتنطمر في أحد المنخفضات العميقة فلحق بها ينادي ويصفّر. المنحدر طويل ينزل كالشّلال وكلّ شيء يبدوميّتا قتله البرد والجليد. راح يتبع الثقوب السوداء المتعرّجة، يتدحرج حينا وينتصب حينا آخر حتّى شارف السفح فسمع نباحها يقترب منه ويترجّع كأنّه معلّق في الفضاء. '' اللعنة على الكلاب ! لوكنت أعلم هذا لتركتها في الزريبة تحرس الدّجاج..''

أحسّ بنفسه يبتعد ويدخل ثنيّة مبلّطة، خطّ مستقيم يكاد يبان. نزل فوقه الثلج وترك منه أشكالا هندسيّة لسير عجلات. إنّها آثار سيّارة يمحوها الجليد. انعطف يتبع النباح من جديد. صار يلهث وأحسّ بنسغ الجليد يسري في ساقيه. عرق جسمه من

أعلى بينما نزلت البرودة إلى أسفل. كلبة النحس هذه، ستكون سببا في ضياع نعاجه ! لولم تتوقّف يتركها ويعود.. التمع الغضب في عينيه وقد شعر بالوهن وفكّر في المسافة التي قطعها، لكنّه لمّا صار قريبا منها وعلا نباحها لمح سقيفة سوداء مغطّاة بلحاء الشّجر. كانت تنبش الأرض وتلهث كأنّها تستجلي شيئا ما. تعوي وتمرّر أنفها بين ألياف الشجر.

زحف الزّاهي نحوها، ساور الشكّ قلبه وهويقترب من السّقيفة. ما كاد ينحرف عن جادّته حتّى تناهى إليه أنين يشبه أنين المحتضر. خاف في الأوّل وتنحنح حتّى يسمع صوته. لكنّ الأنين يتواصل متشنّجا بحشرجة الموت والمعاناة. استعاذ مرّات عديدة ثمّ تقدّم بخطوات وئيدة حذرة. تباعد قليلا ثمّ أطلّ من بين الأعمدة. رأى جسما هامدا مثل كتلة من الخشب. غزا الخوف قلبه وظنّه مقتولا. ليس إلاّ كذلك وخاصّة في مثل هذه الظروف.. نظر من فتحة أخرى ليميّز الرأس، سائل ورديّ ينساب مع البصاق. هتف الزّاهي في ذهول: '' إنّه يتنفّس ! مازال يتنفّس ! '' دفع برجليه صفاقات الخفّاف ثمّ رفعه قليلا عن الأرض. بسمل وهويحرّكه من مكانه ويرفع يدين رخوتين كأنّهما منفصلتان عن الجسم. قابلته لطخات حمراء ورضوض زرقاء على الوجه. خاطبته نفسه بارتياب: '' لا بدّ أنّه ثمّة مسألة تصفية حساب، هذه آثار لكمات وتعذيب.. قلّبه بيديه الضخمتين ثمّ وضع إحداهما على صدره، تحسّس النبض.. لكنّه فاقد الحركة. نزع معطفه ثمّ لفّه به وكأنّه يقرأ علامات الموت في عينيه المغمضتين وارتخاء جسمه. خمّن الأمر في نفسه: لا بدّ أن أصل به إلى البيت قبل ساعة على الأقلّ.. لوأجتاز به وادي الموالح تكون المسافة سهلة فيما بعد.. لكن هذا يتطلّب ثلاثة رجال على الأقلّ، لا يمكن أن أنزل به في المنحدر. لوأضعه على محمل من الأعواد يكون الأمر أسهل..

وقف الزّاهي متفكّرا كما لوأنّه يناشد الأفق والسحب التّائهة أن تمدّ له العون. رنا إلى الخطّ الأبيض الممتدّ حتّى ضياع النظر فانبجست له فجأة بعض الآمال المشرقة.

* * * * * * * *

تسلّلت أولى نسمات الربيع كالخجلى تحرّك الأوراق الراعشة. أزهرت شجيرات الخوخ وتورّدت خدود الجلنّار. إنّها العذوبة التي تهمس بتعاويذها السحريّة وتتشرّبها الأفئدة الضامئة. عذوبة خفيّة مشبعة برائحة الشجر، برائحة الخبز. وما ألذّه من خبز حين يكون بعيد المنال ! كمن يمدّ يده ينوي قطف القمر.. سارت الحياة برغم ذلك، تنبجس كلّ مساء من الأفق. يرسل بوارقه الحمراء إلى الأرض النائمة.

قال أبوالشوارب في نفسه: '' لا بدّ أن يكون اجتماع اليوم حاسما، يجب أن نتخلّص من الخوف، إنّه الخوف الذي يجعلنا نؤجّل الأمور. لن نموت جوعا إذا ما أضربنا. ثمّ الإضراب وحده لا يكفي، لا بدّ من الخروج للشوارع، عندها سيسمعوننا، سيعرفون

أنّنا لا نقبل أن نعيش بفتات موائدهم.. الفرنكات التي نتقاضاها لا تساوي نصف سهرة واحدة من سهراتهم.. ''
فكّر وكأنّه يدخل غمار حياة جديدة، معركة تتطلّب كثيرا من الحسابات الدقيقة، لا تكفي فيها العواطف أيضا. أهمّ شيء أن يعرف كيف ينتزع بعض المكاسب دون أن يدفع الثمن باهضا. بدت نظراته عميقة كأنّها تخترق الأشياء وتتسلّل إلى مكامنها الدفينة..
'' سوف نعلن للرجال أنّنا لن نسكت، لقد طفح الكأس ولم يعد لنا ما نخافه. شقاؤنا واحد سواء بهذه الأجور الزهيدة أوبدونها.. اليوم سينضاف العمال الزراعيون سوف يمضون على عريضة الإضراب بدون تردّد، إنّهم أشدّ بؤسا من غيرهم.. ''
سار مصعّدا في الشارع الرئيسي الملتوي، مازال غسق الفجر يرين على المدينة، يحمل برودة متلفّعة بجوّ من الهدوء الصباحيّ الخاشع. كلّ الناس في الفجر يصيرون ملائكة، أتقياء، تنبعث من أنفاسهم شذوات الحبّ والتآلف. يرفعون رؤوسهم في كبرياء وعناد لكن حينما ينقضي فجرهم يتذكّرون شقاءهم فيتحدّثون بمرارة وينكّسون رؤوسهم حتّى لا تسمعهم الحيطان.. عجيب أمر هؤلاء الناس !
إنّه يراهم بجلابيبهم الخشنة الداكنة، رائحتهم الحادّة القويّة ولحاهم الشائكة. هم بدون شكّ، فلاّحوالقرى النائية انحدروا من الجبال.. يتّجهون نحوساحة الشهداء ثمّ ينعطفون إلى اليمين.. العمّ رابح وصف لهم مقرّ الاجتماع ونبّههم إلى اتّخاذ الحذر عند اللزوم. لقد تسلّلوا منذ الفجر يحملون أنداء الجبال على ظهورهم نفوسهم تغلي حائرة لا تدري على أيّ شيء تنصبّ ! أحذيتهم طويلة الرقبة تحمل وحل الأرض المفلوحة يتركون أثر أقدامهم على الأرصفة النظيفة. إنّهم هادئون لا يظهر عليهم شيء.
قال أبوالشوارب في نفسه: '' لا شكّ أنّهم جاءوا لإعلان تضامنهم، سوف نمضي في الإضراب إلى النهاية ونحسّسهم أنّ مطالبنا واحدة. كثير منهم يعمل بالأجر اليوميّ وهذه ساقية تصبّ في نفس البحر. ''
صعد الشارع مسافة خمسين مترا ثمّ دخل زقاقا مظلما يشقّ بيوتا قديمة مسخمة. مرّ على رجل يبول. وقع بوله يتصاعد مثل نافورة. الساعة السابعة والنصف.. دقائق تفصل عن موعد الاجتماع. اليوم بالذات سيكون كلّ شيء واضحا، لن تظلّ الأمور غامضة.. المعركة كبيرة وعليهم أن يعرفوا كيف يتخلّصون من الخوف. سيتظاهرون بقوّة ويعلنون أنّهم ليسوا تلك الكلاب المدجّنة التي ترضى بالفضلات. الموت جوعا أوالموت بكرامة سيان. ليس اللافي وحده من يقدر على هذا الكلام ! لست أبا الشوارب إن لم أخرّبها على رؤوسهم ! عددنا اليوم يتضاعف وقد يصل إلى الألف.. ''

دخل زقاقا آخر مرّت به نساء محتجبات كأنّهنّ أشباح وكمن يسابق الزمن راح يحثّ السير. تفصله مسافة قصيرة عن شارع " لوثر كينغ " حيث مقرّ الاجتماع. سمع نوافذ تصطفق فوقه وهمهمات خافتة. الناس يستقبلون يوما جديدا، يوما كسائر الأيّام.. لمّا توقّف لحظة عن السير ليشعل سيجارة، اقترب منه رجلان وطلبا منه هويّته بلهجة آمرة صارمة.

*** * * * * * * ***

أكمل يا خالي، أكمل كيف مات؟ هل أكل كلّ الفول الذي في المزرعة؟
حكاية غريبة والله يا أخ علاّوة، المهمّ أنّك نجوت.
قال علاّوة معتذرا:
إنّي مدين لك بحياتي، لولاك لحصل الذي حصل. تصوّر أنّني صرت لا آبه للموت بعد أن جفّت آخر قطرة للصبر، بل العكس، طلبت الموت أكثر من مرّة. لم أستطع أن أكبح شيطان الموت الذي بدأ يسري في داخلي. قلت ذلك أهون من عذاب الجوع والعطش والبرد.
توقّف الزاهي لحظة، حلّومة تطالبه أن يكمل لها الحكاية .
نعم يا ابنتي، أكل " خطّاب " كلّ الفول خفية عن أخيه، كان الهدهد نائما لم يتفطّن إلى ذلك. لقد خان العهد الذي تعاهد عليه.

قال علاّوة مستأنفا:
تصوّر يا أخ الزّاهي ذلك خاصّة وأنّني موثوق اليدين. إنّها جريمة دبّرها الفرجاني هذا. ملأ دماغه ليتخلّص منّي. إنّي لا أخشاهم.. سوف أفضحهم واحدا واحدا.. عصابة من الشذوذ والإجرام.
قاطعه الزاهي بنبرة متوجّسة:
لا تتسرّع الآن، لوتنزل المدينة يقتلونك. لا شيء يقف أمامهم. الأمر يتطلّب وقتا طويلا حتّى يهدأ الخطر.
حلّومة تجلس على ركبتيه تداعب شواربه الغليظة وتلحّ:
وما هوالعهد يا خالي؟ هل كان الهدهد يتكلّم مثلنا؟
التفت إليها وقد قطعت عنه حبل الأفكار:
أيّ عهد قلت؟ آه نعم ! أين وصلت؟ لقد تعاهدا منذ الصغر على الوفاء وأن لا يأكل أحد عن أخيه شيئا.. فعلا يا ابنتي، كان الهدهد وجميع المخلوقات تتكلّم في الزمن القديم. إنّنا لم نعش ذاك الزمن. أجدادنا فقط هم الذين عرفوا ذلك.
قال علاّوة مستنكرا:
ليس لديّ ما أخاف عليه ! سوف أواجههم وأخبر الناس بفضائحهم. الجبان من يسكت عن الحقيقة عليّ أن أقول ذلك ليعرف الناس ما يجري في مدينتهم. الحقّ أبلج ولست أخاف شيئا. إنّنا مكمّمون طول أعمارنا لأنّنا لم نتعلّم الكلام بعد ! لم نتعلّم كيف نرفع أصواتنا في استنكار. هذه حياة القطيع.. مدينتي التي شرّدتني في حاجة إليّ اليوم أكثر من ذي قبل.
قال الزاهي:
إنّنا لا نضيف إليهم شيئا لأنّهم يعرفون الحقيقة كما تعرفها. الصوت الواحد لا يغيّر شيئا والساقية الصغيرة لا تعكّر بحرا. أنا أدعوك أن تتريّث. أنت تنجومن الموت فلا تلعب بالألغام من جديد.
قالها وهويداعب شعر حلّومة الذّهبيّ. ظنّها نامت على ركبتيه لكنّها ما كادت تتحسّس أنامله على جبينها حتّى استيقظت من غفوتها. قالت بصوت هامس:
ثمّ ماذا بعد ذلك يا خالي؟ ماذا جرى له؟ وهل مات حقّا من الفول؟
من هوالذي مات؟
ألم تقل لي أنّه " خطّاب "؟ أنت تنسى بسرعة يا خالي !
ابتسم الزاهي ثمّ قال:
آه فعلا نسيت ! لقد أكل " خطّاب " كلّ الفول الذي في المزرعة. كان أخوه ينام وبعد أن أتى عليها كلّها غصّ حلقه فمات. قتله جشعه وخيانته. أفاق الهدهد بعد ذلك فوجد

أخاه بجانبه فظنّه نائما وراح يوقظه: يا خطّاب ! يا خطّاب ! قم، قم الفول طاب !
ظلّ الهدهد يردّد ذلك كلّ مشرق ربيع جديد، يوقظ أخاه الذي تعاهد معه ذات مرّة..
قال علاّوة بنبرة قاطعة:
المدينة في حاجة إلى رجال يستطيعون أن يتكلّموا، أن ينيروا الحقائق ويطلقوا أفواه الناس. هذه الأشياء تربكنا لأنّنا لم نتعوّد الكلام. إنّنا نصمت حتّى في الأحلام لأنّهم أرتجوا علينا منذ البداية. علّمونا كيف نضع رؤوسنا في الرمل ولا نرى الحقيقة. كلّ واحد منّا تركن في داخله نعامة. لا رجل ينكر ذلك.
قال الزاهي مهدّئا:
لا تظلم الناس يا علاّوة. يكفيهم ما هم فيه من بؤس وشقاء. إنّهم يجاهدون في سبيل عيشهم ولا يمكن أن ندفع السيل إلى الأعلى بهذه السهولة. للأسف هذه حياتنا..
ردّ علاّوة بنبرة احتجاج:
هل من الشرّ أن يطالب الإنسان بالعدل؟ هل تقبل أن ترى السرقة والظلم وتسكت؟ صدّقني أنّني كنت في الأوّل الكلب الأمين لماجد وغيره، صحيح أنّني لم أفهم الأمور كما يجب، كنت أعمى، عليّ أن أعترف أنّني كنت كلبا آدميّا، لم أفكّر في شيء البتّة. رأسي هذا لم يقوعلى فهم العالم المحيط به. الآن فقط صار في ذمّتي حقائق يجب أن يعرفها كلّ الناس. لست أحسن من الرجال الذين يقبعون في السجن لأنّهم لم يسكتوا. أعلنوا كلّ ما يعرفونه للنّاس، قالوا: إنّ الحكّام يسرقون الشعب، يدجّنونه ويضعون في عنق كلّ واحد طوقا حتّى ينقاد ولا يتكلّم.
ظلّت الكلمات تتدفّق من فمه وكأنّها تحبس أنفاسه. إنّها الحقيقة تجتاز فكره كالإعصار. تحفر بسهامها في قلبه الممزّق. انبجست في ذهنه ملامح قديمة، صور منسيّة فحنّ فجأة للمدينة. كأنّ دهرا يفصله عنها. مهما كانت قسوة القلوب فإنّ العيون تناديه. ليس هوالذي يتخلّى عنها.. لا يدري، لعلّه الحنين إلى أشياء كثيرة افتقدها. كلّ العيوب تتناهى إذا ما تعلّق الأمر بالأرض البعيدة التي نشتاق إليها.
ظلّت خواطره تغلي، هذا الاختمار للحياة يحفّزه وكأنّه يكتشف العالم من جديد. هتف ن
أعماق نفسه: '' سوف أنزل غدا إلى المدينة وليذهب العالم إلى الجحيم !
حدجه الزاهي بنظرات هادئة متوجّسة. لم يقل شيئا، كأنّه استسلم للأمر.
نامت حلّومة على ركبتيه نوما عميقا دافئا، تحلم بالهدهد الصغير ينادي أخاه هل تراه يستيقظ يوما من نومه الأبديّ؟

* * * * * * * *

* * * * * * * *

أشرقت في الحقول زنابق يانعة حمراء، وانسلّ الفجر يهمس تعويذة سحريّة. لحظات تفصل عتمات الكون المتلاشية فينساب الزمن دفقا سلسبيلا يرسم بدواليبه الخفيّة تعاقب الفصول وصيرورة الحياة. فعلا لا شيء يرتدّ إلى الوراء أويثبت على حال ! ولوكان كذلك فلم تتعاقب الفصول؟ ! ولم تستأنف الطيور النازحة دوراتها وترحل الألوان غائمة عن وجه النهار؟ !
سحابات فضّية ترحل وتتلاشى وأحزان تنكتم في الأعماق.. إنّه الربيع يورق في ظلمات النفوس ! يصل مع الفجر مطوّحا بالخبز والنبيذ.. لا يأتي الربيع إلاّ ليوقظ المساكين الحالمين ويملأ عيون الأطفال باللآلئ والمحار.
في منحنى الفجاج خاطبت الطواحين الرياح ونادتها في أعماق النشوة والهيمان: هكذا في الساعة المقرّرة تنبعث الحياة ويطهّر النور عتمات الفناء ! انكسر جناحاك ولم يبق منك غير هفيف خامد الأنفاس.
هاجت الريح غيرة ودمدمت لكنّها سرعان ما انهارت وأذرت أنفاسها في الهامات ثمّ استحالت نسيما خلّبا يعطف القلوب. قالت متوعّدة:
أعيتني ردّة الزمان لكنّي لا أخشى الأعماق ولا أثبت على قرار. لسوف يكون طوفانا يدمّر الأغوار ويقلب الصروح الزائفة. لا تغترّي بالصحووالضياء فالربيع سنّة كاذبة. هودهر كساعة من الزمن.

قهقهت الأخرى وكأنّها تسمع هديرا. لم تكترث لذلك بل خاطبتها في كبرياء وقد رأت أجنحتها تتراخى:
هلاّ آمنت بعظمة الكون وقنعت بانقضاء الجهد وهمس الفناء. إنّه عالم الموت والأزل ومهما بلغت من الأقاصي وهجت ومجت فإنّ طرفك مشدود إليه، ما يلبث ينتصب شامخا إلاّ ليرتدّ إلى الكون حائرا.. انظري في أعماقك لسوف تجدين الفناء كامنا فيك يحفر في داخلك كالسّوس فتتعفّن أنفاسك ويشتدّ بك الوهن.
همّت تهمس في تخاذل وارتجاف:
- لعنة الفناء لا تخيفني. لقد خانتني جناحاي الكسيرتان وما كنت آملة إلاّ أن أستفيق من غشيتي وتعود لي عظمتي. لست أنا التي أكبّل في الفجاج والمهاوي.. انظري جبل الغيوم الدّاكنة ! إنّها بدء تفجّر الآمال !
أرسلت بوارق أرجوانيّة ثمّ تناثر غبار أربد غريب حجب زرقة السّماء. في اللحظة كانت الشمس تتدبّر أمر مغيبها وراء الأفق ثمّ طرقت زجاج النوافذ قطرات ثقيلة دافئة من المطر.
* * * * * * * *
تسلّل علاّوة مع الفجر. مازال الظلام يطفح في الفجاج كثيفا ساكنا. لم يشأ أن يودّع الزاهي، ربّما حدّثته نفسه بالعودة، فهوالذي أنقذ حياته ولا بدّ من مراعاة ذلك. شيم الرجال تقول له أنّ من أكل الخبز والملح لا بدّ وأن يفي به عهدا إلى الممات. علاّوة لا ينسى ولن ينسى أنّه لولا ذلك الراعي البسيط لكان الآن في عداد الأموات. فحياته إذا كلّها مدينة له بهذه التضحية العظيمة. لذلك أحسّ هذا الفجر بضخامة هذا الدّين. قال في نفسه: '' الزمان وحده هوالكفيل بذلك.. '' وكمن عاوده الشوق من جديد إلى ما وراء الأفق نظر إلى النجوم المنثورة من خلال الأغصان على البساط الأزرق الدّاكن فتراءت له العيون تناديه من بعيد. زفرات أنفاسه تجتذبه وتقوده إلى هناك. هكذا عندما تتجلّى له تلك العيون تتلاشى كلّ الأرزاء التي يحملها فوقه. سار مصعّدا في منحدرات حجريّة قاسية. مازالت العتمة تحجب النور فتبرز قامات الأشجار كالأشباح
''.. لا بدّ أن أبلغ المدينة قبل ساعتين على الأقلّ.. '' هكذا خاطب نفسه وهوينسلّ من بين الأغصان المتموّجة في منعطفات الوادي. عند الفجر تحمله العيون الحالمة إلى المغاور البعيدة وتهمس في أذنه أسرارا غريبة. توقّف فزعا لمّا سمع بعض الهوام تتحرّك في العتمة ثمّ استأنف مسارعا من جديد.
أشرف على القمّة وقد برزت خيوط ذهبيّة من وراء الأفق وبانت غابة الشربين الممتدّة في السهب الجليديّ. هناك مازال الجليد يغمر السّهول. لم تصله لفحات الرياح بعد. إنّه في مأمن منها.. بعض المزارع المنفردة نائمة في قميصها الأبيض والحركة ساكنة ومن حين لآخر تسمع طقطقة لأغصان تتكسّر وتنفصل كأنّها أعضاء تنقصف وتهوي.

مرّ علاّوة بأكواخ الفلاّحين المنتشرة على أطراف الوهدان. إنّها معلّقة في الجبل كالبثور السوداء. يتصاعد من بعضها دخان نحيف أورق يدلّ على الحياة المختبئة وسط قساوة الجليد. الربيع يصل ببطء إلى هذه المناطق فكلّ شيء يبدوميّتا، قتله الصقيع. لمّا عبر بين الزرائب لسعته روائح دسمة حارّة من العفونة التي تفوح من زبل البقر. يستعملونه طلاء لأكواخهم يسدّون به الثغرات ويغلقون به منافذ الهواء حتّى تحافظ على الدّفء. أمّا الأبواب فغالبا ما يتّخذون لحاء الشجر مسدّات يصنعونها بأنفسهم ويسقّفونها بنبات الدسّ والسرخس.

بدت صفوف ذهبيّة من الغيوم ترتقب الشمس. انبلج الفجر كاشفا عن بياض فاتر يلمع في الشرق. رأى علاّوة القرص الذّهبيّ يمدّ إصبعا من وراء الجبل.. ها هي تخترق باله ذكريات حنونة، ترتعش في أعماقه لتوقظ كلّ الأشياء الجميلة.. رأى مريم بثوبها الملائكيّ. في عينيها بيرق يضاهي وهج شعرها.. هل تراها مازالت تذكر الموجات التي امتدّت من قلبه إلى أحشائها يوما؟ ! إنّه لا ينسى ذلك الخفر اللطيف، يخترق نفسه بعذوبة ويحلّق به في الأقاصي.مريم التي علّمته الحبّ وغذّت حياته بالأحلام لا يمكن أن تنساه ! من الصعب أن تخمد اللهب الذي أذكته بنفسها ذات يوم !

توقّف أمام غدير يجرف معه أوراقا ذابلة وأعوادا من القشّ اليابس. بدا له المنظر صورة صادقة للحياة، معبرا أخرس إلى المجهول. خيّل إليه أنّه محمول بنفس التيّار إلى حيث لا يعلم. سرت في أعماقه رجفة وهويتابع الأوراق الذابلة المتوارية. ما يفكّر فيه سخيف جدّا وعليه أن يطرد ذلك من ذهنه. لا يدري لماذا تحضره صورة الموت دائما بدون استئذان؟ ! أحيانا يحسّ وكأنّ القدر يمهله ويفتنّ في مداعبته بمواعيد كاذبة. وأحيانا أخرى يرى قدره مشحونا بالأسرار المجهولة الغامضة.

ظلّ يصغي إلى هدير السواقي العذبة التي تفصل سهب الجليد. بانت من بعيد عزبة صغيرة لها بيوتات متناثرة. أشجار الكرز بدأت تزهر وتعلن تباشير الربيع ثمّ برزت تيجان التين الشوكي الذّهبيّة اللون. كان كلّ شيء يوقظ فيه ذلك الاختمار للحياة.

اختمار ممزوج بسويداء عذبة حالمة. راح يتساءل بسذاجة: '' ما حاجتنا إلى الربيع ما دامت القلوب خاوية؟ !.. ولماذا تزهر الحقول والنفوس يعشّش فيها السواد؟! ليس هذا من عدالة كوننا الجميل ! نحن نحتاج الربيع كما نحتاج مقدارا رائعا من الخبز.. كما نحنّ إلى قبضة ضخمة من الدّفء الذي يوقظ عتمات النفوس.. ''

تماوجت في رأسه خواطر مجنونة وبدا كأنّه يهذي، لا يدري من أين جاءته هذه العدوى. منذ بدأ دماغه يشتغل صارت له هذه الشطحات. لا شكّ أنّ مقداد مرّ بهذه الشطحات قبل أن يحرق نفسه. اللاّفي يقول من يفكّر جيّدا يعي الحياة بوجهها الأمثل

وهويرى العكس، فالذي يعتمد على ذهنه مجنون. وكم من مرّة جرّب ذلك وأحسّ نفسه يهوّم في متاهات مغلقة تعود به إلى نقطة البداية.
ظلّ يحلم طويلا وهويخبّ وسط أكوام الجليد وكأنّه يعبر أمواجا من الزبد الأبيض. لمّا شارف المنحدر الشرقيّ لمعت تحته سقف القرميد الأحمر ورؤوس المداخن. إنّه يطلّ على المدينة. مازال يفصله عنها المنحدر. لاحت الصومعة والكنيسة.. القصر القديم وقطيع من السنونوات تسفّ على حافات القرميد ثمّ تعلوفي السماوات الرّحاب. تدور فوق القصر ثمّ تتفرّق كحبّات الحصى إلى الجبال الخضراء البعيدة. رأى الضريح نائما في سكينته الأبديّة ثمّ امتدّت عيناه حتّى ضياع النظر حيث تترامى الوهدان الغائمة وتعانق الوادي.
ظلّ يلاحق أسراب السّنونووهي ترسم أشكالا متنوّعة. مرّة تتجمّع كتلة واحدة وأخرى تتلاشى وتتباعد. أحيانا تتتابع في خطّ مستقيم ثمّ تسرح في الغمام وتذوب في المدى الأزرق.
المدينة تناديه، تمدّ له كفّا من الودّ وقبضات من الشّيح الأخضر. شقائق النعمان ترنوإليه بعوينات دامية كأنّها تعرفه.. ها هي الحواكير التي يعرفها ! لقد اخضلّت بأنفاس الرّبيع وأزهرت فيها أشجار اللوز، حتّى الصبّار غدا شامخا بتيجانه. كأنّه يسبح في فضاء من الحرّية والانعتاق. ودّ لويسرح مع السنونوات أويعانق اليمّ الأزرق المترامي.
ترك خياله يهوّم كما يشاء وقد انبجست فجأة من تلك المناظر أشياء قديمة منسيّة..إنّه يستعيد بعض تفاصيلها..
غاص في المنحدر وكأنّه ينزل من سماء خالية. تعثّرت قدماه بنوامي السّدر الممتدّ إلى السفح فتماسك لحظة ثمّ جانب المنزلق كما لويتّقي سيلا جارفالمّا شارف النهاية قابلته من خلال الأغصان بيوتات قديمة تشبه الخرائب وقد أحاطت بها المزابل بينما نمت على حوافيها زهيرات يانعة حمراء. ثمّ لمعت من بين مجاميع الشجيرات صفائح قرميدها القرمزيّ. عبر الممرّ الضيّق ثمّ خرج مباشرة إلى الشارع الطويل
شارع " دي لا فون " كما يسمّونه. مازالت أنفاس الصبح ترين على المدينة والهامات البشريّة تتحرّك في بطء. لكنّ الغسق القائم بدأ يتلاشى ويطلع النهار رخيما فبرزت جموع مزدحمة وصدى الخطى يتردّد على الإسفلت. أحسّ علاّوة بهذا الازدحام المفاجئ فكأنّ الناس قد خرجوا على اتّفاق في وقت واحد. رأى عيونهم المتوعّدة ونظراتهم الكالحة. قوّة خرساء صامتة توشك أن تنفجر.. لغط وهمهمات صمّاء لا تنفكّ تتردّد، يتخاطبون بهمس من بعيد:
صباح الخير حمدون

صباح النور، كنت في الموعد !
نعم، والملتقى في ساحة الشهداء قرب محطّة البنزين
نعم لا تتأخّر عن الموعد
ثمّ يمضي في أوج حركته ونشاطه. ألفى علاّوة نفسه بدون أن يشعر مشدودا إلى تيّار الحشد يجرفه ويحمله في نفس الاتّجاه. بلغ المغازة العامّة ثمّ جانب الرصيف لكنّ السيل العارم من الناس قد زاد هذه المرّة. أضواء المدينة النائمة لم تنطفئ بعد بينما راحت خيوط شمس نيسان تلثم الخدود الباردة وتبشّر بصباح ربيعيّ جميل.
مشى علاّوة بضعة أمتار كأنّه ينساق برغم عنه في اتّجاه ساحة الشهداء، كلّ الحشد ينصبّ هناك. والكلّ يمشي حذوبعض. يرى وجوها غريبة كأنّها تخرج لأوّل مرّة من مخابئ مجهولة. سمع رجلين يتكلّمان قربه:
إنّه يوم مشمس جميل !
نعم وسوف يكون أجمل الأيام. انظر هذه الحشود.
بهت وقد تملّكه إحساس غامض بالأشياء والكائنات. كأنّه في غربة عن العالم المحيط به. سار بعيدا وقلبه ينبض بأشياء مفاجئة توشك على الانفجار.
ما الذي ينويه هذا الجمهور الضخم؟ ! ولماذا يلتقي بكلّ هذه السرعة؟! كأنّه يسمع نفس الأحاديث وتتردّد في أذنه نفس الكلمات.
لمّا انعطف يمينا أطلّت محطّة البنزين ورأى الجموع تغذّ السير وكأنّها تسابق الزمن. تتدفّق من كلّ ناحية وجوه ووجوه ومعاطف شتويّة مبطّنة وقبّعات من الفراء. سمع همهمات وضجّة صمّاء تترجّع ثمّ تضطرب في فوضى. خفتت لحظة قصيرة ثمّ ارتفعت الأصوات، صارت كالإنشاد وانطلقت الأقدام التي لا حصر لها تسحق الإسفلت. لم يدر علاّوة كيف صار جزءا من هذه القوّة المفاجئة ولا كيف جرفه السيل العارم من البشر.
انبجست فجأة أحلامه القديمة واندسّ في قلب الحشد ثمّ ذاب في الزّحام.

*** * * * * * * ***

خاتمة

علاوة ! يا علاّوة ! انهض لقد احترق نصف الخبز.
كانت أولى أشعّة الفجر تنوس من كوّة صغيرة في المخزن. علاّوة لا يزال يرقد في استسلام لذيذ وكأنّ به وهنا قديما طويل الأمد. ما إن ناداه حمحوم حتّى لفحته رائحة حادّة سخيمة من الخبز المحروق. امتلأ المكان بالدّخان وفاحت الأطباق بما فيها. حتّى الألواح اسودّت وصارت فحما. طفق حمحوم يرشّ الماء ويرمي الأطباق خارجا. قال له بنبرة متوعّدة:
سوف يخصم لك المعلّم أجر أسبوع كامل. أنت أحرقت قيمة خمسين كيسا ولا بدّ لك من تعويض ذلك.
مسح علاّوة عينيه وهولا يزال وسنان تتماوج في رأسه الأحلام والكوابيس ثمّ نهره قائلا:
إلى الجحيم أنت ومعلّمك.. قل له إن شئت، اخصم شهرا كاملا..
انتصب واقفا يمسح العرق عن جبينه. أصداء الرصاص لا تزال تلعلع في أذنه.. الدماء تصبغ الإسفلت.. ثمّ ما عاد يسمع شيئا بعد ذلك. لماذا غابت عنه التفاصيل؟ ! تبخّرت مثل السراب ثمّ انطوت في صفحات النسيان! جفّ حلقه وأحسّ باختناق مفاجئ فدفع باب المخزن وخرج يملأ صدره بالهواء البارد الرطب. كأنّه يسري من كهف يسدّ عليه النور والهواء. راح يعرض وجهه لنسمات الفجر وينطلق في الشارع الطويل. لا بدّ أن أرى أبا الشوارب هذا المساء، سوف يحكي لي عن ذكريات السجن ويقرأ لي رسائل اللافي المتبقّية. ترى هل كانت معه زهيرة عندما اختفى؟ ! لم يعرف أحد إلى أين ذهب ! ثمّة من يقول أنّه قتل لكنّ أبا الشوارب هوالوحيد الذي يعرف الحقيقة.

ظلّ يكلّم نفسه ويغذّ السير كمن يسابق شيئا. ودّ لويصرخ أويتكلّم بصوت عال مثل تفتّق هذا النهار. استدار يمينا ثمّ راح يركض ويشقّ طريقه في الهواء الرقيق. ومن الأفق البعيد كان قرص الشمس يطلع ملتهبا ريّان يحمل ميلاد نيسان جديد.

انتهت
جوان 1997

عبد الرزاق السومري: ولد بعين دراهم قرية جبليّة بالشمال الغربي التونسي سنة 1964. درس بكلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة وتخرّج منها سنة 1988 بالإجازة في اللغة والآداب العربيّة. له تحت الطبع:
مرايا الزمن المتوحّش (رواية)
وهم الحداثة وسلطة الخطاب.. مقاربات تفكيكيّة لأنماط من الخطاب في الثقافة العربيّة (دراسة في النقد)